غسان زكريا

يتذكر

السلطان الأحمر





غسان زكريا

يتذكر

السلطان الأحمر



THE RED SULTAN

BY

GHASSAN ZAKARIA

First Published in Great Britain in 1991

Unit F11 Lanterns Court, Millharbour
Docklands, London E14

British Library Cataloguing in Publication Data:

Zakaria, Ghassan
The Red Sultan
1. Arab Countries – Politics
ISBN 1 – 85762–000–3

الإهداء

الى روح الأمينة الأولى
جولييات المير سعاده
ويدي ترفع اليمين

غسان زكريا

الطبعة الاولى
١٩٩١
لندن

● تقتضي الاشارة الى ان فصولا من هذا الكتاب قد نشرت على حلقات أسبوعية مسلسلة في مجلة «سوراقيا» بين ١٢ من آذار (مارس) ١٩٩٠ و٢٧ من تموز (يوليو) ١٩٩٠ وقد زيدت في هذا الكتاب ونقحت وحذف منها. وهي في أي حال من الاحوال ملك كاتبها ولا تلزم الآراء الواردة فيها والمواقف دار «أرادوس للنشر».

ARADOS PUBLISHING LTD.
UNIT F11 LANTERNS COURT, MILLHARBOUR, DOCKLANDS,
LONDON E14



لقد أمضيت ثلاثة عقود طويلة من عمري متردداً في كتابة «السلطان الأحمر» فما شعرت بها، وما كان قرار التفرغ له لولا الزميل انطوان شكرالله حيدر، الذي جلس إليّ ساعات طويلة على مدى أيام أطول للاستماع الى تلاوتي وترتيب أفكاري وتنسيق جملي وإعادة صياغتي.

فليس أمراً سهلاً أن أتذكر أحداثاً جرت قبل ثلاثين عاماً وأكثر، حول فترة مثيرة ومخيفة، عشت دقائقها وتفاصيلها وعانيت منها.

ولا بد لي هنا من أن أتوجه بالشكر الى الذين تعاونوا معي في تحقيق وتنفيذ هذا الكتاب صفاً واخراجاً وخطاً فنياً، بعدما كاد صدوره يتعذر ويتأخر ويتأرجح أيضا.

أخص من هؤلاء عبدالله باكير وأدونيس قباني وبهيج عنداري ونديم الحافظ.

حسبي انني في تذكراتي جانبت الحقيقة وحاذرت الخطأ في الوقائع والتواريخ، وان كنت سهوت أو أخطأت في زلة هينة للقلم فأملي أن يأتي من يلفت الى السهو والى الخطأ فأتدارك وأصحح في طبعة مقبلة.

غسان زكريا

لندن ـ ۱۹۹۲



لماذا السلطان هذه الايام؟

لم يكن في مخططي نشر هذا الكتاب، ذلك لأن الكتابة عن عبد الحميد السراج في هذه الايام، تتطلب تفرغاً وأبحاثاً، اضافة الى كونها عملاً يبحث عن حجم وتأثير يأتي - ربما - على قائمة اواسط التسعينات، لاسباب تكونت عندي قناعة بها عندما رتبت ما أتمنى انجازه عندما أقرر أن اعتزل وأتخلى وأتفرغ للعمل التاريخي - وهو اختصاصي - والعمل الصحافي - وهو مهنتي - في شكل كتب او كتيبات محدودة التوزيع، بعيدة عن الملاحقة اليومية والتعليق الاسبوعي المباشر على الاحداث العربية - وما اكثرها!! - هذه الايام.. .

كان عليّ ان افرغ من وضع «كرونولوجي» صحيح للشرق القديم، بعيداً عن تشويهات التأريخ الاوروبي - الاميركاني. وكان عليّ ان افرغ من تبويب أبحاثي عن «الملوك الذين وحدوا الهلال الخصيب»، ثم يأتي الدور على بعض «شؤون سياسية» بعد التمهيد التاريخي لفهمها كظاهرة او مرحلة في تأريخ كيانات المشرق، ذلك ان عنصراً أساسيا يبرز تخبط أجيال ما بعد العشرينات وحيرتها لما تعرضت لعمليات تجهيل وتعتيم وترهيب وتفريغ مقصودة بما سبقها من قرون استعباد عثماني (تركي) في تأريخ سورية التأريخية وتأريخ العالم العربي، وربما كان هذا «التفريغ» ضرورياً لكي تبرز «المنجزات». !

في اعتقادي ان ذلك التجهيل والتشويه كانا ضروريين حتى امكن سلب رجالات التأريخ المشرقي افضالهم، وحتى يجلس عبدالحميد السراج مثلا في مقعد صالح العلي او ابراهيم هنانو او سعد الله الجابري او هاشم الاتاسي، فيعتبر ذلك انجازا ومكسبا شعبيا، وحتى يعتبر الجيل المبتور التأريخ، المسلوب، المشوه، الحاضر، افتتاح مصنع للحليب المجفف (مثلا) بقرض أجنبي وخبرة سوفياتية وتنفيذ اشتراكي ودون مساهمة شامية تذكر من الناحية التكنولوجية، يعتبر، عملا خالدا، بطوليا،

عجائبيا، يكفي لمحو كل ما حدث من اخطائه وجرائمه وخطاياه!!

لأنهم لا يعرفون ان صالح العلي ـ مثلا ـ قاتل فرنسة وهز وجودها في الساحل، فيما حاربها ابراهيم هنانو في الداخل، وناورها وداورها الجابري والاتاسي في ظروف سورية كانت قبل ستين سبعين عاما عملا خارقا، لم يتأت للكبار الكبار، وكانت نتائج تلك الثورات والحروب والمعارك على جغرافية الشام واقتصاد الشام وانسان الشام ما لا سبيل الى مقارنته بأية احلام «سراجية» معلقة على أوهام «وحدة» غلبها الغلاب.!

كان أملي ان يفرج عن التاريخ السوري الرسمي (والوثائق) كما تفعل الدول الراقيات، حتى يمكن تقويم الحقبة السراجية على ضوء انجازات السوريين في الخمسينات، بل كان القصد من تأخير الكتابة عنه والنشر طوال ثلاثين عاما ان تتاح لي وثائق اكثر، باعتبار ان مصادر تأريخ موطني وأمتي لا تزال في ارشيفات دول الغرب الكواسر، بل كان ظني ـ وبعضه إثم!! ـ ان يبدأ الافراج عن الوثائق الاميركانية ابتداء من العام ١٩٥٣ بعدما مرت عليها العقود الثلاثة القانونية، فاذا ـ وهي هنا ظرفية شرطية ـ ما وصلت الى اواسط التسعينات صار متاحا لي على الاقل الفترة بين ١٩٥٢ الى ١٩٦١ وهي كافية جدا، فما حاجتي للوثائق للاقتناع او الاكتشاف. فلقد كنت في عصر عبد الحميد السراج شاهد عيان، وما توصلت اليه من معرفة تؤكده الحقائق كل يوم بل كل ساعة ودقيقة.

وانما احتجت ـ واحتاج ـ الوثائق للذين لا يؤمنون ولا يصدقون الا بعد ان يدسوا اصابعهم في الجرح أو أدس إصبعي ـ وأصابعي ـ في جراحهم.!

فلم يعد الإنتظار ضروريا ولا مجديا، فالتطورات الجارية من حولي والى يميني ويساري لا تبشر بخير قليل او كثير، والقيود على الوثائق وعلى الفكر التي طالما شكا منها الاحرار ستزداد وتتضاعف. فلن يتاح للباحثين ان يتعرفوا ليؤرخوا، الا على النذر اليسير. . .

لكن اهم الاسباب في نظري لقراري السابق في تأجيل الكتابة والنشر، ان يفعل عامل الزمان فعله فيّ وفي القارىء معا، فتبرد حدة الاحداث العاصفة وتتحول الى تاريخ، له سلبياته الكثيرة الكثيرة فيما ايجابياته اكثر من نادرة. . . ولا يمكن لواحد مثلي ان يدعي الحياد في الكتابة عن «الحقبة السراجية»، وانا كمواطن سوري، عاش أحداثها كاملة، فأثرت في حياتي وعمري وحاضري ومستقبلي الشخصي والمهني والقومي. . . يستحيل ان يكون محايدا في الحديث عن «حقبة» اعطته أتعس أيام عمره واقسى نكسات وطنه.

كيف أدعيّ الحياد، ازاء محاولات تصفية جسدية وفكرية لحركة رسولية نهضوية، سعت ـ وتسعى ـ لتغيير مجرى التاريخ عبر مسيرة ستين عاما من الكلام والصبر

الطويل؟ كيف وقد اعطيت احلى سنوات عمري في سبيل انتصارها، أكون محايدا ازاء ضربها وقمعها ووقف صعودها. !

وقد عشت حتى رأيت عبدالحميد السراج يهزم في ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ كما لم يهزم في الاربعينات يوم كان حارسا على «بحسيتا» حلب!! وما أظن أن فرحة قد غمرت قلباً مثل فرحتي بقيام نظام «الإنفصال» عن مصر مع التسليم باستحالة انتصاره لزمن، فما بالك، بتحقيق ذلك ـ واستمراره ـ منذ صار الى الابد؟!

هل أستطيع أن أنسى «الهزة» الوطنية ـ القومية التي غمرت القلب والروح والعقل باعلان يوم ٢٨ ايلول (سبتمبر) وتصفية المصالح المصرية والثقافة المصرية بين عالمي وموطني، وتخليصي من «عوضين» و«حسنين» وأغنية «السح انبح انبو» التي ابتكرها عبقري مصري من سلالة حتشبسوت ربما. !

بل كيف اكون محايدا ازاء خروجي من دائرة النفوذ المصري الصرف الى الهيمنة المصرية المتدثرة بالنفوذ الاميركاني ـ الاسرائيلي؟

وكيف أكون محايدا وقد كان ثمن «الاستقلال» تقطيع أوصال الهلال الخصيب وفصل لبنان وفلسطين والعراق والكويت وقبرص عن الشام؟ كيف أكون محايدا وأنا الذي لو خيرت في بداية حياتي بين بقاء الاحتلال التركي الف عام وقبول فصل هذه الكيانات، لما اخترت ابدا فصل واحدة منها، وقد كان شعار دمشق يوم ٨ آذار (مارس) ١٩٢٠ ايام يوسف العظمة «وحدة من طوروس الى العقبة ومن زاغروس الى البحر» قالها في «المؤتمر السوري الكبير». !

هزمنا فرنسة في لبنان والشام وطردناها بعد صراع ربع قرن، لكننا تركنا موشي دايان يقول عن حرب الجولان «من بين السبعين الف عسكري سوري الذين انطلقوا هائمين على وجوههم صاعدين المرتفعات الصخرية من سهل البطيحة وشواطىء طبرية، التقطنا خمسة آلاف اسير فقط لكي نبادلهم جميعا بالاسير الاسرائيلي الوحيد الذي أسره السوريون». !

أهذا جرح يندمل ويشفى؟ لا . . . بل سيرافقني الى القبر، ولولا انه غسل بالدم وببرقية غولدا مائير في حرب تشرين (اكتوبر)، «ايقظ هنري كيسنجر الآن، لاننا نريد المساعدة اليوم، فغدا ربما يكون قد فات الاوان»!! لولا ذلك لانتفض جيل كامل مجروح للعرض والطول يوم البعث والنشور. !

أيمكن ان أكون محايدا وأنا أكتب عن المجازر التي مارسها عبدالحميد السراج واعوانه في فئة مؤمنة كل غايتها كانت ـ ولا زالت ـ ان تكوّن المجتمع الاكمل والاجمل والامثل، الذي فيه كل خير وحق وجمال. الى يوم تستطيع فيه ان تكمل بناء جيل النصر الآتي! . .

أيكون مثلي محايدا وهو من رأى بعينيه مساوىء «السلطان» ومثالبه التي لم تترك

ثغرة واحدة يمكن ان ينفذ منها النصر الاواغلقتها ، ولا غلطة يمكن ان يستفيد منها العدو العبراني لم ترتكبها . !؟

ما بين فرحة «الوحدة» التي صنعتها «جونتا» العسكر العشرة (في اوساط الخمسينات) وبين الحسرة والنقيب اكرم الصفدي يعد عناصره بأنه اتفق مع «السلطان» على تخصيص كذا مليون ليرة من ثروة الشوام لدعم «ثورة» صائب سلام وعبدالله يافي و«المقاومة الشعبية» عام ١٩٥٨ في لبنان . !

وما بين الفرحة بـ «الوحدة» المصنعة وحلاوة الانفصال وانتكاسة استعادة لبنان وتمزق الوطن الى قبائل وعشائر وانحسار الحقبة السورية عن الفعل العربي العام وانحسار دور السوريين . .

ما بين تنشيط الاقتصاد السوري واطلاقه نابضا قويا ، وتدمير هذا الاقتصاد والقضاء على فرصة سورية لبناء الوحدة الهللخصبية الاقتصادية (المشرقية) حولها وبقيادتها ، حتى لم يبق في المهاجر والمغتربات الا المغترب السوري والمغترب اللبناني والمغترب الفلسطيني ، وفي دمشق اقيمت اول شركة طيران عربية بأموال القطاع الخاص ، وأول بنك عربي ، واول مصنع نسيج ، واول صحيفة سياسية ، واول مؤتمر لوحدة سورية عربية ، بل ان دمشق كانت عاصمة «القومية» العربية الاولى وبغداد الثانية ، وان ذلك كله حصل بين الـ ١٩٢٠ والـ ١٩٤٩ ودمر في حقبة عبدالحميد السراج الذي حول الحكم الى «مزرعة» سلمها الى عبدالوهاب الخطيب وبرهان ادهم وشوقي دقاق ومروان سباعي وبهجت مسوتي وبقية اخوان الصفا . !

كيف أكون محايدا وقد حول عبدالحميد السراج سورية في زمانه الى سجن كبير ، اختفت فيه كل مظاهر وشكليات الديمقراطيةوضرب فيه وعذب وزراء ونوابا واطباء ومحامين وصحافيين ورجال اعمال ومهندسين ونساء ورجال دين ، وهو ما لم يجرؤ الاستعمار الفرنسي على مدى ربع قرن على فعله وهو يحتل الشام ولبنان بمائة الف جندي؟

كيف أكون محايدا والقانون في اجازة؟

ما بين ذكريات «يا ظلام السجن خيم» لنجيب الريس ومحاولات فرنسة استعادة نفوذها في بلاد الشرق ـ كما كانت تسميها ـ ونفوذها بين صفوف الذين تدربوا في معاهدها قبل ان تجبرهم لمعاهد الولايات المتحدة الاميركية او الاتحادالسوفياتي .

وبين تراجع اعلام سورية الى المرتبة الخامسة في دول العالم العربي حتى التي تعلمت القراءة من أبجديتها وعبر اساتذتها ومعلميها ، وبين تواري أحمد عنسة ، وكأنه قد حمل كل خطايا اعلامه ودعايته ، بل ان الاخير أصبح رمزا لكل ما هو سيء اعلاميا حتى ان الصحافي الراحل عباس الحامض اطلق على «الرأي العام» صحيفته صفة «مدرسة الخيانة» .

بين هذا وذلك مستحيل ان يدعي الواحد فينا حيادا في الكتابة عن الـ «شرطي» الذي وصل الى السلطة بالارهاب وكل شيء في سوية اكبر منه، وهرب منها ـ أو هُرِّب ـ وهو برأي اعوانه وانصاره اكبر من سورية وكل ما فيها.
مستحيل.

لذلك كنت أؤجل. احاول أن اكتسب وقتاً بتأجيل الكتابة، الى ان مرت حوالى ثلاثة عقود طويلة، فرأيت صورة السراج وسط شلة المعارضين السوريين المرهقين المتعبين في بغداد، وسمعت ان الحوار الخاطىء حول من هو الاسوأ: العقيد عبد الحميد السراج او الفريق أمين الحافظ، قد رجح كفة الاول، ونسي المتحاورون ان «السلطان الاحمر» هو الذي أتى بمن جاء بعده، بعد ان تمت تصفية واقصاء كل رجالات سورية ورجال السياسة فيها والفكر والعقيدة والماضي والتأريخ، وان «العسكر» الذين تولوا الامور من بعده كانوا جزءا لا يتجزأ من القوات المسلحة مفهوما واسلوبا، وان عبد الكريم نحلاوي وحيدر كزبري ومهيب هندي وفايز رفاعي كانوا أصدقاؤه ومقربين منه، بل ان هشام عبد ربه الذي القى القبض عليه في دارة روشن بدرخان كان مساعدا رئيسا له، مع الفارق بين نفاق الوارث والدنيا مقبلة، واستجدائه وقد جدبت الموارد وأفلست الخزائن. !
حاولت أن أجد بعض كتاب عن عبدالحميد السراج، وهالني ان شخصه «الاسطوري» كان نكرة، وانه مجهول مجهول، لا يمر ذكره، فان قالوا عنه كلمة او كلمتين ربما. !
ولم أدهش، بل لعلي رأيت ما توقعته، ولو كان غير ذلك لكان للدهشة ما يستوجبها وللحيرة ما يبررها، فالاخ. . عبدالحميد كان يحاول مُلكاً في بغداد قبل ان تقوم الدنيا ولم تقعد لأجل الكويت وجابر وسعد وصباح. وقررت ان أنشر ما كتبت وان احدث ناس هذا الزمان والناس التي لم تلد بعد عن رجل ـ ولا كالرجال ـ استقوى على امرأة كل ذنبها انها كانت زوجة لشهيد. ! عن رجل ـ ولا كالرجال ـ قوض ثقافة وقوض حضارة وقوض حركة كادت تغير مجرى التاريخ. !
ولا أزعم انني سأشيد به، او أدينه، ولا أزعم انني سأهدي جيلا من الضلال، بل أصبو الى ان أسجل خبرتي ومعرفتي ومعايشتي ومشاهدتي للجيل الذي يقرأني هذه الايام، فاذا كان مقدرا لشعب ـ اي شعب ـ ان يخوض تجربة «سطحية» جديدة، فعلى الاقل ان يدخلها بوعي هذه المرة، وبفكر وبايمان!


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


تمهيد



عندما ستحصى تركات التاريخ، سيبقى يوم الجمعة ٢٢ من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ يوماً فاصلا في تاريخ سورية والشرق الأدنى.

ففي ذلك اليوم، حدثت نقلة بالغة الخطورة في حياة السوريين، إذ وجدوا أنفسهم أسارى حكم استخباراتي جائر، يمارس عليهم طقوسه، وعلى رأسه رجل غير مكترث بكرامات الناس، التفت الى من حوله وحواليه، فاذا عَبَدَة المناصب يلوون ازاءه الرقاب. فاستحكم وحكم وتحكم على مدى سنوات ست طويلة بمرارتها وقساوتها. ذلك الرجل كان اسمه: عبد الحميد السراج.

- ١ -

دمشق. بعد ظهر يوم الجمعة ٢٢ من نيسان (ابريل) ١٩٥٥.

الملعب البلدي، يختنق بالناس الذين توزعوا على مدرجاته، لحضور مباراة في كرة القدم بين منتخبي الجيشين السوري والمصري.

على المدخل الرئيس، تعلقت عيون المتفرجين، حيث اصطف الجند تأهباً لاستقبال ضيوف الشرف من علية المسؤولين في الدولة والسلك الديبلوماسي.

نشرت أصوات الدراجات النارية هيبتها على الحضور، فالآتي خلفها هو رئيس الشعبة الثالثة في القوات المسلحة السورية، ومن أرباب العزم في الدولة. ما ان وقفت سيارته عند المدخل حتى هلل المذيع من مكبرات الصوت مرحبا به، فتأججت مدرجات الملعب واشتعلت الحناجر بالصراخ.

كان طويل القامة، ممتلىء الجسم، عريض الاكتاف، شديد الشبه بمظهر الضباط البروسيين، أول ما يأخذ عينيك فيه، هذه الثقة في نبرات الصوت والايحاء. عندما دخل كان محاطاً بعدد من المرافقين، من بينهم يونس عبدالرحيم، وهو رقيب شاب وجهه حاد الملامح، وسيمها، وعيناه ثاقبتان تقدحان شررا.

ما كاد الضابط يجلس في المقعد المعد له ، حتى هاج بالرقيب الشاب الدم ، فاستل مسدسه وتقدم منه، وبحركة سريعة صوب فوهة المسدس على رأس الضابط وضغط على الزناد. وبهدوء حول الرقيب فوهة المسدس نحو صدغه و. . . انتحر.

وانتشر الخبر بين الناس: قتلوا عدنان المالكي . !

استحكم الذعر بمفاصل دمشق. أخذت شوارعها شكل الموت، وانتشر المجندون بلباس مدني، يزنرون الاحياء وبدأت موجة الاعتقالات.

لم اكن في الملعب البلدي بين آلاف المتفرجين. كنت على بعد كيلومترات عديدة، ازور وزوجتي وطفلتي زوجة الصديق عبدالقادر عجلاني، حين دخل علينا زوجها مرددا وقد اهتز حنقا:

ـ قتلوه. . . قتلوا عدنان المالكي.

فصحت به: متى وأين وكيف ومن؟.

أجاب والانفعال ما يزال متشبثاً بملامح وجهه:

ـ قتله القوميون السوريون في الملعب البلدي!

دهشتي لاغتيال عدنان المالكي، لم تكن اقل من دهشة وانفعال عبدالقادر عجلاني. فلقد عرفت المالكي عن كثب. فالرجل كان في مطلع الخمسينات يزاحمني على صداقة فتاة اميركانية اسمها فرنسيس سيموبولوس كانت تعمل «سكرتيرة» لـ جيمس موس James Moss سفير الولايات المتحدة لدى دمشق. وكان يحضر بقامته الطويلة ولباسه العسكري الانيق لزيارتها، فيلقاني جالسا مرتاحاً، محاطاً بآخرين من أصدقائها، أخص بالذكر منهم الديبلوماسي السابق نهاد ابراهيم باشا، والراحل رياض ابو السعود، والمحامي زهير الشطي ورجل الاعمال أنطون مشاقة وغيرهم من الذين كانوا يجتمعون في اكثر أمسيات الاسبوع للانطلاق من دارتها في بناية صالح الشامي في شارع الجاحظ المقابل لمنزل السفير الاميركاني بمنطقة ابو رمانة، الى واحدة من علب الليل في فنادق العاصمة الكبرى حيث كان للشباب الدمشقي، في ذاك الزمان، حرية مصادقة من يشاء من أفراد الجاليات الاجنبية القاطنة في العاصمة السورية، من دون ان يتعرضوا لأسئلة أجهزة الأمن ، التي راحت بعد «عسكرة» النظام ترقب مثل هذه «الصداقات» وترمي عليها وحولها الشكوك وتعرض أصحابها الى ألف. . . ألف علامة استفهام.

- ٢ -

ليس لمن يعرفه ان يتعجب مما بدا منه. فعدنان المالكي كان طماحا مولعاً بالسلطة. وهو لم يمض عليه كثير وقت حتى أصبح رئيسا للشعبة الثالثة في الجيش. وفي تلك الحقبة كان يمثل في الجيش السوري النخبة العسكرية الدمشقية التي تحاول ان تجد لها مقاما في السياسة السورية، بعدما أطاحت الانقلابات المتعاقبة بالحياة التشريعية والتنفيذية والقضائية في البلاد، بدءاً من انقلاب «الزعيم» حسني الزعيم يوم ١٩٤٩/٣/٣٠ بتخطيط من الاستخبارات المركزية الاميركانية C.I.A ، تلاه آخر بتخطيط من الاستخبارات البريطانية، التي دفعت الى واجهة الاحداث باللواء سامي الحناوي ومعه زمرة من الضباط الذين تمكنوا من انتزاع المبادرة من أيدي ضباط قوميين اجتماعيين ومستقلين، الذين كانوا قد نجحوا في القضاء على نظام حسني الزعيم، فأعدموه مع رئيس وزرائه محسن البرازي في آن.

لما خططت الاستخبارات البريطانية للانقلاب على حسني الزعيم، نجحت في الجمع بين اللواء سامي الحناوي ورشدي الكيخيا الزعيم التاريخي لـ «حزب الشعب»، الذي كان يدعو بالسر والعلن الى احياء الوحدة أو الاتحاد مع العراق، فلم تكن بريطانية تجد غضاضة في تلك الوحدة، ذلك ان نفوذ نوري السعيد في العراق كان يوثق العرى بين العائلة الهاشمية والحكومة البريطانية.

ولقد كان دفاع الحناوي والكيخيا عن مطالبتها بالاتحاد مع العراق [على الرغم من وجود نوري السعيد في مركز القرار] ينحصر في مقولة ان الافراد مهما استمروا حاكمين أو محكومين فهم الى زوال بينما الاوطان والشعوب باقية أبداً!

البعثيون الاشتراكيون اشاحوا بوجوههم عن تلك المقولة. رفضوها. واخذوا يتصدون لها. عاملين بكل ما أوتوا من قدرة على التغلغل داخل صفوف الجيش واشاعة الانقلابية بين العسكر، لا يقيمون وزنا لحكم «وحدوي» وهم اصلا من دعاة «الوحدة»! وصرفوا بعد ذلك الجهد في الندوة البرلمانية لاشاعة ما قدروا عليه وما تمكنوا منه لمعارضة كل ساع الى التوجه الوحدوي مع العراق. فأصبح البعثيون الاشتراكيون ينظرون الى كل مطالب بالوحدة على انه مغموز النسب، عدو هاتك، يستحل الحرام ويزري بالحلال. وقد استباحوا جلسات مجلس النواب للتطاول والقذف بتهم العمالة والخيانة على الذين يعارضونهم ، حتى ان أكرم الحوراني ، أحد قادتهم، [وقد كان سوريا قوميا اجتماعيا لفترة طويلة في

الاربعينات] لم يتوان في خطبة مجلجلة تحت قبة المجلس من نعت كل من تحدث في شأن الوحدة مع العراق بـ «الجاسوسية» و فعل «التجسس»!

ولقد ساعد على تمدد هذه الظاهرة المعادية للوحدة مع العراق، وعلى اشاعة الفوضى والبلبلة في الحياة السياسية السورية، تمكن عسكر مصر في ٢٣ تموز (يوليو) ١٩٥٢ من الاطاحة بالملك فاروق، والقبض على أعنة الحكم بدعم من واشنطن، التي كانت سفارتها في القاهرة على دراية مسبقة بدقائق الانقلاب ورافقته منذ البداية.

ومع وصول جمال عبدالناصر، على رأس «مجلس قيادة الثورة» بعد اجبار اللواء محمد نجيب على التنحي، وجد البعثيون الاشتراكيون ومن معهم من انتهازيين فرصة سانحة للقضاء نهائيا على فكرة الوحدة او الاتحاد مع العراق.

فعبدالناصر حاول ان يجد لنفسه مواطىء اقدام على الساحة العربية التي كان يجهلها وتجهله. فأخذ يبحث عمن يشد أزره فيها. عن «وكلاء» و«حلفاء» وحتى عن «عملاء» يستطيعون ادخاله الى تلك الساحة. فوجد ضالته المنشودة في شريحة واسعة في المجتمع السوري مدنية وعسكرية، كانت تشربت الوعي القومي والوطني منذ ميسلون [١٩٢٠] وقبلها ثورة صالح العلي والدنادشة [١٩١٩] وبعدهما ثورة سلطان الاطرش [١٩٢٥] التي امتد لهيبها الى ضواحي دمشق الشرقية والجنوبية، والى سفوح جبل الشيخ ووادي التيم وحاصبيا وراشيا في البقاع الغربي.

الرجل المجهول الآتي من وادي النيل، أصبح فجأة «القائد العبقري». فقد نجح البعثيون ومن سار مسراهم في الفكر والنهج في تصوير جمال عبدالناصر بأنه «الملهم» والقادر على حمل ارث صلاح الدين وفخر الدين ويوسف العظمة... فأثاروا به حماسة السوريين وكرههم للمستعمرين البريطانيين والفرنسيين والمحتلين العبرانيين.

البعثيون الاشتراكيون يعملون على تنظيم صفوفهم ورصها على الساحتين المدنية والعسكرية، فارتضوا المشاركة في اكثر من حكومة ائتلاف وطني مع خصومهم في احزاب اليمين «الشعب»، و«الوطني»، على الرغم من التناقض السياسي والايديولوجي. اما في الشأن العسكري، فقد عملوا بعزم ومن دون كلل ولا وهن للوصول الى قمة القيادة العسكرية، فتمكنوا من ايصال العقيد عدنان المالكي الى رئاسة الشعبة الثالثة في الجيش، فكان الدور الذي طلب منه

هو القيام بتنقلات داخل الجيش واختيار الضابط المناسب للقطاع المناسب!

عدنان المالكي، لم يكن - كما عرفته - بعثيا اشتراكيا بالمعنى الحزبي الضيق. المنتمي الى الحزب كان شقيقه رياض، الذي كان، وقتها، يزاول المحاماة، بينما شوكت شقيقهما الاكبر سناً يعمل في التجارة وبيع الادوات الكهربائية وأجهزة الراديو. الاشقاء الثلاثة وشقيقتهم ثروت هم أفراد عائلة دمشقية عريقة عرفها المحيطون بها خصوصا والدمشقيون عموما، اسرة بورجوازية، لا علاقة لها بالاشتراكية وباليسارية المتطرفة لا من بعيد ولا من قريب، ولا علاقة لها ايضا بالمؤامرات والانقلابات العسكرية.

لقد كان عدنان المالكي استثناء. كان «وطنيا» حتى التطرف. انقلب على حسني الزعيم في الاشهر الاربعة في حكمه القصير. فأودعه سجن المزة العسكري، كما أودع الكثيرين غيره من الضباط الذين ثاروا على حكم الفرد وعلى قمع الحريات وتعميم النهج الديكتاتوري... في وقت كان غيرهم من الضباط القادة الذين كانوا يحسبون على الحركة السورية القومية الاجتماعية ممن ظلوا بعيدين عن عيون أجهزة الاستخبارات العسكرية، يتكتلون ثم ينقضون على حكم حسني الزعيم، بعدما غدر بقائدهم الراحل أنطون سعاده فسلمه الى الحكومة اللبنانية التي كان يرأسها رياض الصلح فأعدمته رميا بالرصاص في ٨ تموز (يوليو) ١٩٤٩ عبر صفقة شاركت فيها المصالح المصرية والاسرائيلية والاميركانية من أجل تمرير إتفاقية البترول لشركة التابلاين وعقد صلح منفرد مع الدولة العبرية...

- ٣ -

كان من طبع عدنان المالكي اقتناص الفرص. وهو حتى في تكتله مع الضباط البعثيين الاشتراكيين، داخل الجيش كان لا يلتفت الا لنفسه دون سواها ولا يتورع عن محاولة الوصول الى السلطة بعزم وثاب.

لقد استفاد من الجو المشحون بالانقلابية الذي تمخض عنه فجر الثلاثين من آذار (مارس) ١٩٤٩، فبدأ يسعى الى ايجاد تجمعات رافضة داخل الجيش، فوجد في تكتل الضباط البعثيين الاشتراكيين ما كان يصبو ويطمح اليه. بيد ان هذا التقرب أثخن من ولعه الى السلطة. فاستغله للوصول الى المناصب العليا واستغلوه في طريقهم للانقضاض على الحكم.

لم يشر مرة واحدة الى هذا التكتل، على انه تكتل لـ «الضباط الاحرار». فهذا الاصطلاح دخل على قاموس السياسة العربية عن طريق مصر واللواء محمد نجيب ومن بعده المقدم جمال عبدالناصر وصحبه.

فلا حسني الزعيم ومن بعده سامي الحناوي واديب الشيشكلي الذي تلاهما، شكلوا في انقلاباتهم المتتابعة وما تفرع عنها من تحركات لألوية الجيش، تكتلات أطلقت على نفسها تسمية «الضباط الاحرار»، ولا حتى شكل هؤلاء ما صار يسمى فيما بعد «مجلس قيادة الثورة»: حسني الزعيم كان حاكما فردا. سامي الحناوي كان قائدًا فرداً. اديب الشيشكلي كان رأسا فردا، وكل الذي فعله هذا الاخير، ان الزمن افسح له خطأ الانقلاب على الحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي كان ينتمي اليه، ليؤسس «حزب التحرير العربي» في سعي لاهث منه لاستقطاب دعم «العروبيين» في بلاد الشام وحكومتي المملكة العربية السعودية ومصر.

لعل التاريخ ينصف، وتنصف الموازين معه، عندما يفتح صفحاته لتدون عليها دقائق هذه المرحلة الحاسمة، فتفرد بعض الصفحات للاخطاء التي مارسها أديب شيشكلي ضد الحزب القومي الاجتماعي ومثلها التي مارستها قيادة الحزب السوري القومي الاجتماعي في تعاملها مع «الرفيق» القومي الاجتماعي اديب الشيشكلي الذي أصبح في النصف الاول من خمسينات هذا القرن رئيسا للجمهورية السورية، وأول قومي اجتماعي يعتلي هذا المنصب الخطير منذ تأسيس الحزب في أواسط الثلاثينات حتى يومنا هذا.

واذكر فيما أذكر، حادثة فريدة من نوعها، قد لا تكون «سياسية» وقد لا تكون «اجتماعية» لكنها بالتأكيد «نظامية». ففي يوم من ايام ايار (مايو) ١٩٥٢ كنت في زيارة لـ «الامينة الاولى» الراحلة جوليات المير [قرينة انطون سعاده] والاستاذ جورج عبدالمسيح [الذي كان وقتها رئيسا للحزب السوري القومي الاجتماعي] في منزلها في حي عين الكرش المتفرع عن شارع بغداد، لما دخل علينا أحد مرافقي جورج عبدالمسيح ليحيطه علما بأن «الرئيس أديب الشيشكلي جاء البيت زائرا». فانتفض عبدالمسيح وصرخ في وجه المرافق بصوته الجهوري: «منذ متى يزور القوميون الاجتماعيون رئيسهم من دون إذن مسبق... قل له ان الرئيس في اجتماع مغلق».

فامتثل المرافق، وغاب عن انظارنا وسط دهشة «الامينة الاولى» ومن كان

حولها وحواليها . وسمعنا بعد دقائق هدير الدراجات النارية ، وصوت محرك سيارة المرسيدس السوداء المصفحة ، التي حملت رئيس الجمهورية الى دارة رئيس الحزب ، تنطلق الى حيث لا عودة . . .

قد لا تكون تلك الحادثة سببا رئيساً لقرار حل الاحزاب السياسية الذي اتخذه اديب الشيشكلي فيما بعد ، ولا عاملا اساسا في تصديه لمرشحي الحزب السوري القومي الاجتماعي ، الذين كانوا خاضوا غمار معركة الانتخابات النيابية ، فاسقطهم بالتزوير ، وما نجح منهم سوى اثنان بالتزكية ، أحدهما النائب الراحل زكي نظام الدين . . . ولكن تلك الحادثة تصلح لتفسير ما فعله خطأ التعامل مع شخصية مركبة معقدة مثل شخصية أديب الشيشكلي (أ)

انتشى اديب الشيشكلي بالسلطة . تمسك بها بأظفاره . كان شعوره يزداد التهابا وطبعه يزيد حدة ، ومن خوفه ان تفلت السلطة من قبضته حكم بالحديد والنار ، اقام نظاما بوليسيا قوامه بعض عبدة المناصب المرائين ، الذين شكلوا جهاز أمن زاد في عدد اقبية التعذيب والسراديب العفنة المظلمة الموزعة في غير مكان في العاصمة السورية والمدن الكبرى والصغرى فتساوى الجليل مع الحقير في الميزان . نشر الذعر والخوف والقتل . فما تورع عن اعطاء الاوامر للنقيب عبد الحق شحادة [رئيس شرطته العسكرية] بالصعود الى ذرى جبال العلويين ، وعلى مشارف قرية «جوبة برغال» ، تعرض الى القومي الاجتماعي مجيب المرشد [نجل النائب الراحل سلمان المرشد الذي اعدمته الحكومة السورية في الاربعينات بعد محاكمة علنية نسبت اليه فيها تهما عدة ، منها التعامل مع فرنسة وبعضها ادعاء الالوهية] ، وطلب اليه ان يهتف ثلاثا بحياة اديب الشيشكلي فلما تمنع المرشد رافضا الامتثال ، اطلق النقيب عبدالحق شحادة النار عليه من رشاش كان معه فخر قتيلا ، هو الذي كان يحاول ان يمد الى الجبل الاخضر تعاليم نهضة ، لو فعلت لغيرت مجرى تاريخه .

على مثل هذا الجو الارهابي الدموي ، طبع اديب الشيشكلي نظامه ، ولون الحياة السياسية في سورية . ولم يكن غريبا بعد ذلك ان يحاصر عسكره جبل حوران ، ويطوق بالنار عاصمته السويداء ، في محاولة لاقتحامها وتطويع سلطان «باشا» الاطرش [وهي التي عصت على الجنرال الفرنسي سراي ، احد أبطال الحرب العالمية الثانية ، عندما حاول القبض على القائد ، الذي كان هز أمن فرنسة في العشرينات بثورة استمرت سنوات ثلاثاً] بعدما اتهمه والآلاف من أبناء بني معروف بالعصيان والتمرد على نظامه . الا ان سلطان الاطرش تمكن من الافلات من قبضة العسكر المهاجم والانسحاب الى الاردن ، بعدما تضرجت صخور الجبل الاسمر بدماء

العديد من شباب آل الاطرش وغيرهم من شباب السويداء.

وبلغت الدماء الثنن . . .

فاهتـاج القـوم. تحالف الحـزبيون والمستقلون للانقضـاض على حكم اديب الشيشكـلي . قامت في حمص وحلب تكتـلات عسكرية ومدنية استنفرت مئات الألوف في الشوارع والثكن يهتفون بسقوط «الطاغية» . . .

كان اديب الشيشكلي شبه محاصر في قصر الرئاسة [الذي صار فيها بعد قصر الضيافـة] في شارع «ابو رمانة». التظاهرات كانت تشل مفاصل دمشق وصوت الناس كان هدارا، لما استقبل نائب القامشلي زكي نظام الدين منتدباً من قبل مجلس النواب.

جلس نائب القامشلي أمام أديب الشيشكلي وأومأ مستأذنا القول، بجرأة عرف بها، انه حقناً للدماء فان من الاجدر ان يغادر الرئيس العاصمة قبل ان تتحول شوارع دمشق التي كانت تغـلي بالمتـظاهـرين الى ساح حرب يصـول فيها الجنود ويجولون ، وتهدر فيها الدبابات وتدك الدور والمنازل.

لو ان عاصفة سقطت عليه ، لما بهت اديب الشيشكلي بهتته لكلام زكي نظام الدين. جحظت عيناه. وقف وقد اصطكت اسنانه.

ـ أهذا ما يريده الشعب؟

سأل اديب الشيشكلي ، ثم تقلصت شفتاه وجمد الدم في رقبته.

فما كان من زكي نظام الدين، الا ان ترك مقعده وفتح نافذة الصالون الكبير الذي يطل على الشارع، ليُسمع «الرئيس» اصوات عشرات الالوف من المتظاهرين الذين كانوا يهتفون مطالبين برحيله.

همد الشيشكلي ، استحوذ عليه صمت حزين. ثم ردد بصوت خافت: فلتكن مشيئة الشعب . . . سأرحل.

و. . . يغادر اديب الشيشكلي دمشق. يصطحب معه النقيب عبدالحق شحادة الى جانب عدد من الضباط، بينهم الملازم آصف قباني، مرافقه العسكري الخاص، الذي كان الشيشكلي يؤثره بمكانة في نفسه ويدير له الاذن التي يسمع بها.

آصف قبـاني، كان موضـوعـا لمقـال طويل نشره سعيد فريحة [فقيد الصحافة اللبنانية] في مجلته «الصياد» ، لما بدا له ان نجم اديب الشيشكلي بات الى أفول، عنوانه: «سيدي الملازم رئيس الجمهورية». بينما كان عنوان مقال صاحب «الصياد» و«الجعبـة» التاريخي في الشيشكلي يوم كان في عز تألقه ومجده وسطوته: «هذا هو الشيشكلي فليحكم الناس»!

- ٤ -

كان يجلس الى جانب السائق. لا يحرك رأسه. يجيب اذا ما سئل، ويصمت اذا لم يسأل. يفتح باب السيارة لمرؤوسه في الدخول اليها والخروج منها. يؤدي له التحية. ينحني. يحمل حقائبه. ملفاته. ينتظر على باب مكتبه.

لقد أتقن عبدالحميد السراج ذلك كله وأداه بمهارة وحرفة طوال فترة عمله مرافقا لحسني الزعيم. فقد كان المبصر الاعمى والسامع الاصم والمتحدث الابكم في آن.

وربما كان اتقانه لفن التنصت والطاعة يعود الى كونه ضابط استطلاع واستخبارات، أوفد الى فرنسة في بعثة للتخصص في هذين المجالين العسكريين. فأثار هناك في صفوف اترابه من الشغب وحالات التمرد، ما حمل القيادة العسكرية، وقتها على استدعائه الى دمشق، فلم يكمل ما انتدب من أجله الى فرنسة.

وكما كان مع حسني الزعيم مرافقا حريصا على ارضاء مرؤوسه، كان مع اديب الشيشكلي. وان كان الامر مع هذا الاخير مختلفا. فحسني الزعيم كان يغوى حفلات العظمة والفخامة والابهة، وعلى زمنه عرف المجتمع الدمشقي لأول مرة رئيسا للجمهورية، يرقص وزوجته أمام الناس في حفلات «فندق بلودان الكبير». فيما كان اديب الشيشكلي من هواة الكأس والطاس والسهر حتى مطالع الفجر، يتقن الفصل بين حياته الخاصة وحياته العامة. في منزله كان أبا محافظا صارما، وخارجه كان «صاحب كيف»، على ما يقول العوام.

الذين ما زالوا يذكرون ليالي نادي مطار المزة، حيث كانت انغام فرقة «نينو باليرمو»، تتنسل مع الليل، وتسيل على اجساد الراقصين المترنحين، لا بد أن يذكرون اطلالة اديب الشيشكلي شبه الليلية عليهم، والى جانبه مرافق شاب اسمر وسيم، ومعهما عصام المحايري وصبحي فرحات وحسن عطار وعبدالله محسن والراحل رجل الاعمال فؤاد غميان، صاحب المطعم الانيق، الذي كان يستضيفهم على مائدته ليليا، فيسهرون حتى يتعب الليل من السهر.

في احدى ليالي شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٤، كنت اسهر هناك ومعي بعض الاصدقاء، أذكر منهم نائب حارم الراحل عادل الكيخيا وعديله نجيب ميسر. لما أشار اليّ الاستاذ عصام المحايري بالقدوم الى حيث كان يجلسون ليحدثني. فعلت. صافحت الجالسين فردا فردا. وكنت اعرفهم الا ذلك الشاب الاسمر الوسيم، فقد مددت له يدي ذاكرا اسمي. فرد علي وهو يبتسم ابتسامة غريبة هامسا: عبدالحميد السراج.

في تلك الفترة كانت سورية تتأرجح بين شرق وغرب. بين وحدة مع العراق او اتحاد بمظلة بريطانية أو وحدة واتحاد مع مصر بمظلة اميركانية. وفي زمن كان اديب الشيشكلي يحاول أن يثبت لنفسه موقعا راسخا في السلطة عبر بعض رجالات السياسة المحافظين واليساريين، الى ان استتب له الامر فأخذ يشعر انه قد تمكن من الاستقلال بالمنصب والقرار، فضرب يمينا ويسارا مطيحاً بالاحزاب السياسية فنفى الراحلين ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار والسياسي الاشتراكي اكرم الحوراني، الى لبنان، حيث لاحقهم بعناصر استخباراته، فاضطرهم للفرار الى رومة، وما عادوا الى دمشق الا بعدما غادرها اديب الشيشكلي، وبعدما تسلم الدكتور مأمون الكزبري منصب رئاسة الجمهورية لبضعة ايام في حين امسك اللواء شوكت شقير بقيادة الجيش ردحا من الزمن.

عدنان المالكي وعبدالحميد السراج، كانا يرقبان الاحداث: كل من موقعه، بعيون نسر يتحين الفرصة للانقضاض على طريدته.

وفي حين كان المالكي يطمح الى تسلم السلطة عبر العلاقة الحميمة التي كانت تربطه بالبعثيين الاشتراكيين، كان السراج يخطط لاقامة نظام بوليسي، بعدما امضى فترة طويلة يتأمل في حلول ما كان يسميه «مشكلات الجمهورية» خصوصا الاجتماعية منها، نتيجة لنشأته في بيئة محافظة ومعدمة في مدينة حماه، وشعوره بالحقد الذي لازمه وما يزال على كل ثري او من أصبح ثريا.

في يوم لاهب من ايام آب (اغسطس) عام ١٩٦١، بعد عودتنا من تشييع جثمان شقيقه البكر، وقف السراج . . . معي على شرفة «فندق ابي الفداء» في مدينة حماه. ثالثنا كان الراحل توفيق الحبوباتي، صاحب «نادي الشرق» المشهور. عبدالحميد السراج وجه كلامه الى الحبوباتي وهو يشير باصبعه الى عدد من الاولاد يسبحون في مياه نهر العاصي الموحلة بقرب ناعورة المياه التاريخية:

ـ تأمل يا أبا محمد كم حظ هؤلاء الاطفال كبيرا؟

جال توفيق الحبوباتي بنظره في وجه السراج، وافتر ثغره عن ابتسامة معروفة عنه في أوساط الدمشقيين وقال هادئا:

ولو يا أبا فراس. . . أتحسد هؤلاء الاولاد على المياه العكرة الموحلة المليئة بالجراثيم. . .

قطب السراج وقال: كان ممنوعا علي عندما كنت في سنهم ان افعل مثلهم، لأن اولاد البرازي والعظم والكيلاني والشيشكلي وبقية عائلات هذه المدينة الاقطاعية، كانوا يمنعون عنا حتى السباحة في هذه المياه العكرة، وان خالفنا وعصينا كانوا

يطلقون النار علينا او في أقله رجمونا بالحجارة.

للحظات وانا استمع لما يقوله، مر أمامي شريط السنوات الست من حياة الرجل، وبدأت تزول امام عيني، علامات الاستفهام الكثيرة التي راودتني طوال فترة تسلطه وسطوته على البلاد والعباد، والتي لا تفسير لها سوى الحقد الاجتماعي والمادي الذي غلف كل تصرفات عبدالحميد السراج وافعاله منذ صعوده الى موقع المسؤولية في نيسان (ابريل) ١٩٥٥ حتى أفول نجمه عن المسرح السوري في ايلول (سبتمبر) ١٩٦١.

★★★

الذين عرفوا عدنان المالكي لا ينكرون عليه نظرته الثابتة والمعمقة في الامور. فهو عسكري مسيس، معتد بـ «القومية» العربية. مثقف، يتقن الفرنسية بطلاقة وتعلم الانكليزية على كبر.

ولا ريب في ان عدنان المالكي، الذي كان ضابط ركن، يتحلى بخصائل القادة. جرىء. مقدام. لا تعوزه الحجة في الاقناع ولا ينقصه المنطق في طرح القضايا. جارى اترابه في حلم القومية العربية الرومانسي، وعرف كيف يستفيد من المؤسسة العسكرية، التي كانت القوة المادية الوحيدة المؤثرة في السياسة السورية. فالاحزاب والتنظيمات الشعبية لم تكن تملك ادوات التغيير في البلاد، واقصى ما كانت تستطيعه هو تنظيم تظاهرات وتوقيع عرائض احتجاج، واضعف الايمان اصدار صحيفة تنادي بسقوط مسؤول او بحياة آخر.

منذ البداية، عرف عدنان المالكي ان الجيش وحده هو القوة الضاربة القادرة على اعلان حال الطوارىء والاحكام العرفية وفتح المعتقلات والسجون، وتشكيل المحاكم الاستثنائية لاسباب امنية اذا افتقدتها قيادته ابتكرتها.

كما عرف أن الجيش كان وما يزال، وحده القادر على التجسس والاستخبار، لا عن اعداء الامة والوطن بل عن المواطنين الذين وقفوا على مدى ربع قرن بين هزيمة ميسلون وفرحة الجلاء يقارعون فرنسة بالحجارة اذا اعوزهم السلاح، وبالصدور العارية اذا افتقدوا الدروع، فما ان جاء الجيش ليحمي الارض والشعب، حتى استنفره حسني الزعيم ضد مواطنيه، وأمره ان يدير مدافعه باتجاه دمشق بعدما سحبها من الجبهة الغربية على أرض الجولان.

لم يكن عدنان المالكي يسكت على ضيم. ولما استفحل الامر ولم يعد يطاق في خواتيم عهد اديب الشيشكلي انتفض المالكي عليه. فسرح من الجيش. ولما خلع «الديكتاتور» ورحل عاد المالكي اليه. بوعي آخر وبنضوج سياسي جعله يحالف

الحياديين والاشتراكيين والشيوعيين في الندوة البرلمانية وفي الشارع.

كان معارضا لكل نفوذ غربي [اميركاني. فرنسي . بريطاني] في الشرق القديم. وفي الوقت نفسه معارضا جريئا ومعاندا للوحدة او الاتحاد مع العراق. ولقد اتكأ في معارضته تلك على رفضه حلف بغداد. فجارى في ذلك رأي غيره من العسكريين والساسة الذين لم يفهموا، وقتها، الفارق بين سياسة الافراد وسياسة الاوطان. فنوري السعيد زائل اما الوحدة فهي الباقية وحدها. . . .

وقد أدت به معارضته الحادة لفكرة الوحدة مع العراق الى أن ألقى بثقله العسكري في الانتخابات النيابية عام ١٩٥٤ الى جانب ثلاثي يميني اشتراكي أركانه خالد العظم ، صبري العسلي، واكرم الحوراني، لاسقاط حكومة الراحل فارس الخوري ، التي كانت تتبنى دعوة الاتحاد مع العراق. حتى انه في تلك الايام قيل ان عدنان المالكي كان يستعد للقيام بانقلاب عسكري على فارس الخوري لو لم يقدم هذا الاخير استقالته ، يسانده في خطته «حزب البعث العربي الاشتراكي» بجناحيه المدني والعسكري!

وبعدما تخلص من فارس الخوري وهمدت أصوات دعاة الوحدة مع العراق، بدأ المالكي يضغط في اتجاه توقيع اتفاقية دفاع مشترك مع مصر. فتم ذلك في شهر آذار (مارس) ١٩٥٥ أي قبل مصرعه. بحوالى الشهر.

عبدالحميد السراج ، كان من طينة ومعدن مختلفين.

لم يؤمن يوما بأن للشعب عليه حقوقاً، وان للمواطنين كرامة. بنى لنفسه «سلطنة» تعمل على مدار الساعة لكتم أنفاس الناس ورصد حركاتهم وتلفيق التهم بحقهم واعتقالهم ورميهم في سراديب التعذيب رهن «التحقيق» الذي كان ينتهي أحياناً بموت «المتهم» تحت سياط الجلادين. فان اعوزته المؤامرات والدسائس، ابتكر وباع واشترى بلا كلل ولا ملل ولا رحمة، وان تعب من سورية نقل مؤامراته ودسائسه الى لبنان والعراق والاردن، كما سيمر معنا. . .

ولقد كان عبدالحميد السراج يعرف موقع عدنان المالكي واهميته في استقطاب اعداد كبيرة من القطع والألوية والقيادات العسكرية. وكان يعرف جيدا القاعدة المدنية التي كان المالكي يتكيء عليها ويستغلها للوصول الى السلطة. فوجد ان خياره الوحيد لتحقيق مآربه وما يطمح اليه هو الاعتماد على جهاز الاستخبارات الذي وضعته الظروف على رأسه، بعدما دفع به بعض النافذين المتنفذين المتمترسين من خلف وهج الانقلاب المصري [١٩٥٢] حيث انتدب لتوطيد دعايته ووجوده في دمشق، الضابط محمود رياض الذي صار سفيرا لدى دمشق [ووزيرا للخارجية

وأمينا لجامعة الدول العربية في زمنها الرديء] معززا بعبد المحسن ابو النور ملحقه العسكري.

لم يكن القادة البعثيون الاشتراكيون، يرغبون في ان تنغمس بنادق العسكر في السياسة. فهم قد لاقوا الامرين منهم: حسني الزعيم اعتقلهم. سامي الحناوي عزلهم واديب الشيشكلي شردهم.

مرارا وقف اكرم الحوراني في وجه الضباط البعثيين ولم يشجع اي ضابط منهم على القيام بحركة عسكرية خوفاً من ان يتحول هؤلاء الضباط الى قوة سياسية تضع القيادات المدنية في الحزب في قبضتها... بيد ان البعثيين هؤلاء، وجدوا ان لا مناص من التعاون مع العسكر لتثبيت مواقع اقدام لهم على صعيد القرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وقد وجدوا في عدنان المالكي ضالتهم المنشودة. فقد نجح شقيقه المحامي رياض المالكي، «بتسويقه» لقادة الحزب على انه «الرجل القادر على كل اصلاح».

لهذا كان اغتيال عدنان المالكي صدمة كبرى للبعثيين خصوصا، ولليساريين عموما. فقاتله في الملعب البلدي سوري قومي اجتماعي وفكره كان آنذاك طرحا مخالفا لهدير الجماهير. عبدالحميد السراج من موقعه كرئيس للاستخبارات [المكتب الثاني] وجد في الدم المراق على مدرجات الملعب البلدي فرصته الذهبية للانقضاض على السلطة... ففعل.

(أ) يتساءل عايد خطار في كتاب: قراءة في تاريخ الحزب السوري القومي الاجتماعي صفحة ٦٨ [الطبعة الاولى آذار (مارس) ١٩٨٩] عما اذا كان اديب شيشكلي اقام نظاما قوميا اجتماعيا ويجيب بالطبع لا. ثم يتساءل ولكن لماذا؟
لأن القيادة الحزبية آنذاك توقفت أمام شكليات نظامية، كانت في الحقيقة، تعبيرا عن عجز فاضح في الاستفادة من الموقع والحادث: فلم. تقدم برنامجاً ولا جهازا للحكم، بل أرادت التعاطي في أدنى مستوى كنقل مدرس او توظيف موظف، ثم عندما انقلب شيشكلي الى طاغية فردي اكتفت بـ «المعارضة الايجابية البناءة» فلا هي حكمت ولا هي عارضت.!



عبدالحميد السراج
في شبابه

الفصل الأول

حارس "بحسيتا"

- ١ -

لم يكن عبدالحميد السراج من «الحرس القديم» في الجيش السوري . لم يعاصر «جيش الشرق» Troupes Du Levant الذي أنشأته فرنسة في دولتي لبنان وسورية ، بعد نزول بحارتها في بيروت [حزيران (يونيو) ١٩٢٠] واجتياحهم دمشق في تموز (يوليو) ، بعد معركة «ميسلون»، التي قوضت عرش الملك فيصل الاول، كما الاستقلال ، كما الوحدة والحرية .

ولا هو كان من الضباط القدامى ، الذين تخرجوا من الكلية العسكرية في حمص بين ١٩٢٠ و١٩٤٥ ، في مستوى اللواء عبدالله عطفة واللواء توفيق نظام الدين واللواء سامي الحناوي، ولا حتى العقيد امير شلاش او «الزعيم» حسني الزعيم او العقيد أديب الشيشكلي . . . فهؤلاء وغيرهم ، تدرجوا في الرتبة والراتب من المعهد الثانوي الى التخرج من الكلية العسكرية، فتشربوا تقاليد عسكرية «فرنسية» صارمة، علمتهم ان مهمة الجندي هي الدفاع عن حياض الوطن، ومساعدة الشعب في التصدي للغزاة والمعتدين، وليست الجندية الاستهانة بكرامات الناس، وحبك الدسائس والمؤامرات وتحويل الثكن الى معتقلات تعذيب وقتل .

وعندما كان اولئك الضباط [وغيرهم من الذين أصبحوا من أرباب العزم في الجيش والدولة] يحملون رتبا عالية كان عبدالحميد السراج في مدينة حلب دركيا بسيطا يحرس سوقها العمومية .

★★★

على مدخل «بحسيتا»، سوق مدينة حلب العمومية، خلف «باب الفرج» كوخ خشبي يستعير العوام لوصفه الكلمة التركية «كولبه» ويستجير منه المتسللون خلسة الى مضاجع بنات الهوى، وهم دون سن الرشد. وكثيراً ما كان هؤلاء يغافلون الدركي القابع في الكوخ يحصي الداخلين والخارجين، . يسألهم عن تذكرة الهوية ، ثم يمر بيديه على ملابسهم بحثاً عن المخدرات أو السلاح ، فيندسون عنوة ، ومتى

أصبح واحدهم في أحد البيوت العتيقة المرصوفة على جانبي الشارع، أيقن أنه أصبح في حمى سيدة البيت وفي أمان من الدركي المتربص بعيونه المسنونة بالمارة.

على الرغم من حدة قسمات وجهه، كان الخفر يتمسك بها. وخلف الجسد القوي الممتلىء، الذي كان يشي بأن صاحبه من هواة الرياضة، يختبىء رجل خجول، بالكاد يسمع صوته الذين كان يعترضهم سائلا عن تذكرة الهوية او عما في جيوبهم. ففي نبراته الهادئة حتى الهمس بالكلام، خفر ووداعة وضعة في آن معاً. ولم يدخل في روع الذين كانوا يترددون على «بحسيتا» من لبنانيين وسوريين ان الدركي عبدالحميد السراج، حارس السوق، سيحكم ويتحكم. وانه كان ذئباً أو نعجة استأذبت.

كان يكفي الداخل الى سلك الدرك [شرطة الريف] ان يعرف القراءة ويتقن الكتابة. أما معرفة القوانين العامة وكتابة المحاضر فقد كان الدركي يحصل عليهما عبر التدرج في الخدمة.

وفي حين كان سلك الدرك لكثيرين «مهنة» تقيهم البطالة والفاقة والعوز، كان بالنسبة الى عبدالحميد السراج، الآتي من محيط معدم، محطة لم يجعل طموحه يقف عندها. فانكب على متابعة تحصيله العلمي، فكان يصرف الوقت في كوخ «بحسيتا» في التحضير لامتحانات «البكالوريا» [الشهادة الثانوية]، يحدوه أمل الانتساب الى الكلية العسكرية. . . فدخلها عام ١٩٤٧.

كان الحس الوطني، عامذاك، ينتشر بين طلبة الكلية العسكرية مع قيام «جيش الانقاذ» بقيادة طه «باشا» الهاشمي في دمشق وفوزي القاوقجي في سهول ومسالك فلسطين، يقاتل عصابات «الهاغانا» و«الارغون» و«شتيرن». فدبت الحمية والنخوة في الشباب ومن يقدر على حمل السلاح للالتحاق بفصائل المتطوعين، التي كانت تتدفق من العراق والشام ولبنان والاردن وبعض البلدان العربية الأخرى. . . .

في حماة، تقدم عبدالحميد السراج بطلب الانضمام الى مقاتلي «جيش الانقاذ»، الا ان قادة فرق المتطوعين الحمويين، ومنهم اديب الشيشكلي واكرم الحوراني، رفضوا طلب السراج، بدعوى انه لم يكن يملك الخبرة العسكرية الكافية في قتال الغوار، ولم يقنع الشيشكلي خلال حديثهما انه من عينة العسكريين الاكفاء الذين يقتحمون المعامع بشموخ واستبسال.

لقد كان رفض قادة حماه له، صدمة تركت أثرا بليغا في حياة السراج. فخرج من لدنهم كئيباً، وفي أعماقه يغلي حقد ممض. وقوي عنده وازع الطبقية في نفسه، فعقد العزم ساعتها على «الانتقام». فلقد اعتبر ان تصنيفه من أبناء عائلات حماه الدنيا،

هو الذي أبعده عن الانضمام الى صفوف المتطوعين للقتال في فلسطين. . .

ففي ساعة صفاء في شهر تموز (يوليو) ١٩٦١ وعلى شرفة منزله الصيفي في بلد
وقف السراج بقمبازه الحموي، تنهد بعمق وقال لي:

«لقد حرموني حتى من حق القتال في فلسطين. . . أتعرف لماذا؟».

رمقني بنظرة تجمع فيها كل حقد الدنيا، وقبل أن أحرك لساني في فمي با
منفعلا، كما لم أره من قبل:

«لأنني لم أكن ابن عائلة وحسب ونسب يعود الى عائلات البرازي أو العظ
الكيلاني والشيشكلي ومرهج».

- ٢ -

كان من موقعه، يرصد تقرب البعثيين الاشتراكيين والشيوعيين من عد
المالكي. وقد تيقن عبدالحميد السراج بدهاء عرف فيه، أن هؤلاء يجعلون رئي
الشعبة الثالثة في الجيش مطية لهم للانقضاض على السلطة. فلم يكن غريبا
كرهم وفرهم ودسائسهم وخططهم ومؤامرتهم.

ولكن الرصاصات التي أطلقها يونس عبدالرحيم في ٢٢ نيسان (ابريل) ٩٥٥
لم تقتل عدنان المالكي وحسب، بل قتلت حريات المواطنين وديموقراطية
النسبية، التي كانوا يتمتعون بها منذ رحيل فرنسة عن بلاد الشام عام ١٩٤٥
ذلك اليوم الذي سقط فيه الضابط الكبير صريعا. . .

وكأن مدبراً دبر، فلم تمض نصف ساعة على الجريمة في الملعب البلدي، ح
كان «التعميم» على عناصر المكتب الثاني [الاستخبارات] ان تمضي لاعتقال
تشاء من السوريين القوميين الاجتماعيين، وسوقهم مخفورين الى مركز الشر
العسكرية في منطقة «البرامكة» المقابل لجامعة دمشق، قبل نقلهم جماعات ووحد
الى سجن «المزة» العسكري. فيما سارع البعثيون الاشتراكيون والشيوعيون و
ساندهم وتكافل معهم من رجالات الشارع الدمشقي، الى الهجوم على مرا
القوميين الاجتماعيين في احياء دمشق وتحطيمها. كذلك لم تنقض ساعة على مق
المالكي حتى احرقت مطابع «الجيل الجديد»، وهي كانت للحزب، في حي سو
ساروجة الشعبي، وأعقب ذلك اذاعة خبر التهمة الموجهة الى القوميين الاجتماعي
قبل أي تحقيق قضائي أو قانوني.

هذا الخروج المفضوح على القانون، كشف النوايا المبيتة والاصابع التي كا
تخطط في العتمة لقلب الاوضاع في الشام. فلم تعرف البلاد من قبل مثل تل

التصرفـات والخروقات والتطاول على القانون. فعندما اغتيل الدكتور عبدالرحمن الشهبندر، في اربعينات هذا القرن، في عيادته في شارع «الشعلان»، انتظر القاضي الفـرنسي ومعـاونـه النائب العام السوري، اكثر من أربعة ايام، قبل ادانة أحمد عصـاصة واعوانه بجريمة القتل. . . وقبل اطلاق حملات التشكيك التي حامت فوق رؤوس جميل مردم بك وشكـري القـوتـلي ولـطفي الحفـار وغيرهم. . . من رجالات «الكتلة الوطنية» ، الذين فروا الى بغداد خوفا من الملاحقات فيما بقيت مكـاتبهم وممتلكـاتهم ومنـازلهم وعـائـلاتهم بمنـأى عن ردود الفعـل «الشعبية» و«الرسمية» ، فما دوهمت ولا أحرقت ولا تم اعتقال من يكن الى هؤلاء بصلة القربى أو التبعية.

في ذلك اليوم، سقطت الشام في التجربة. غيّر عبدالحميد السراج ملامح حياتها السياسية والاجتماعية. انتهت مرحلة العمل بالدستور والقانون والنظام، وبدأت مرحلة العمـل بقـانون الطوارىء وبالاحكام العرفية، الذي كان أصدره الرئيس هاشم الاتاسي بضغط من عبدالحميد السراج، وقد وجد فيه الرئيس وقتها أهون الشرين.

كان الرئيس هاشم الاتاسي، على عتبة الثمانين. جليلاً، مقتدراً، خبر السياسة واختبرته،عاركها وعاركته طوال سنوات في المسؤوليات التي تقلب عليها وصولا الى رئاسة الدولة. كان يرقب التطورات المتسارعة بقلق المسؤول، لا يقوى حيالها وقد أفلت الامـر أو كاد من يديه. دخـل عليه عبدالحميد السراج في مكتبه في قصر المهـاجـرين، محاطـاً بمجمـوعة من الضباط البعثيين والشيوعيين بينهم مصطفى حمدون، عبـدالغني قنـوت، برهان قصاب حسـن، محمد زلفو، عفيف البزري، جادو عزالـدين واحـمـد الحنيدي. . . فجعلوا من قميص عدنان المالكي المنخورة بالرصاص، قميص عثمان ليحكموا سيطرتهم على البلاد، وأخذوا يطالبون الاتاسي بتعليق الدستور واعلان الاحكام العرفية وأنشاء مجلس عدلي يحاكم المتهمين بقتل عدنـان المـالكي. وظنوا أنهم بذلك يستقوون على الرجل المسن، فزينوا له أنهم يمثلون نفرا مهما في الجيش، وانهم يحملون اليه ما يجيش ويعتمر في صفوف العسكر في البلاد.

فرد الرئيس هاشم الاتاسي عليهم بنبرة الواثق المتيقن:
«كيف لي أن أعلن ما جئتم تطلبونه مني وليس هناك من داع لذلك. . . فأي محكمـة عادية في قصر العدل، يمكنها ان تحكم على القاتل اذا ما جرمته بعقوبة

السجن المؤبد او الاعدام شنقا!»

فاستشاط الاتاسي غضبا وانعقدت على وجهه حبات العرق وصاح بالسراج: «إغرب عن وجهي . . . الله يغضب عليك يا ابن السراج».

من بين الجمع طلع صوت عبدالحميد السراج مهدداً:

«ان كنت يا فخامة الرئيس لا تعلن الاحكام العرفية فلن أستطيع ضمان حياة المعتقلين».

- ٣ -

خرج عبد الحميد السراج من قصر المهاجرين حانقا، مهانا، ليزرع الجمهورية السورية عنفا وارهابا. فبين جبال طوروس، في شمال سورية، ومخفر الرمثة، على الحدود الاردنية، ومن موقع الجديدة في الغرب، الى موقع ابو الشامات، في أقصى الشرق، بث الجواسيس والعناصر التي كانت تترصد الطرقات. توقف. تفتش. تعتقل. . وتسوق قوافل القوميين الاجتماعيين [او من اشتبه انه ينتمي اليهم] الى المعتقلات والسجون . دهم رجاله البيوت. استباحوا المحرمات. نكلوا. نهبوا . نشروا الرعب. حتى ان دمشق التي كانت، حتى ذاك التاريخ، تسهر في الليل وتغازل القمر، باتت تتقي شر عبدالحميد السراج وتنام باكرا. وفي العشايا تعقد حلقات السمر في المنازل، والحديث يطول، تروى فيه حكايا المداهمات والاعتقالات التي حصدت عشرات الالوف، وما قام به رجال السراج من أصناف تعذيب المعتقلين.

كان عبدالحميد السراج في هاتيك الايام، عازبا، يسكن شقة صغيرة في احدى زواريب منطقة عين الكرش، المتفرعة عن شارع «٢٩ أيار». كان يراه الناس كل يوم، لا بل كل ساعة في جيئة ورواح، في سيارات مختلفة. فهو كان يبدل سياراته ليس غواية بالسيارات، انما زيادة في الحيطة والتمويه والتضليل، ليقينه بأن الذين قتلوا عدنان المالكي قادرون على قتله. فكان يوماً يستعمل على سياراته لوحة حمراء [وهي للسيارات العمومية] ومرة لوحة سوداء [وهي للسيارات الخصوصية] وثالثة لوحة خاصة بالجيش ورابعة بالسلك الدبلوماسي. مدخلا على نظام الامن الذي كان يرأسه اساليب لم يعهدها من قبل حتى على زمن الفرنسيين.

لقد اخبرني والدي مرة، وهو كان عاصر عقدين في فترة الحكم العثماني، انه لم يسمع بارهاب حكومي منظم مثل نظام وأسلوب البطش والدس والتضليل الذي اتبعه السراج.

احدى سيارات السراج، كانت من طراز «فورد» [التي لم تكن قد وضعت على القائمة السوداء] صاحبها كان نائب القامشلي زكي نظام الدين [شقيق اللواء توفيق نظام الدين الذي صار فيما بعد رئيسا لاركان حرب الجيش السوري] كان قد تركها هدية لجورج عبدالمسيح [رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي] قبل ان يغادر دمشق في مطلع عام ١٩٥٥ في رحلة الى اميركة اللاتينية طاف خلالها على غير دولة ودولة خصوصا البرازيل والارجنتين حيث للحزب هناك وجود ضخم وفاعل.

في حومة الاعتقالات والمطاردات والمداهمات بحثا عن «قتلة» المالكي، الذين حوكموا قبل ان يحاكموا وادينوا قبل ان يدانوا، دهم رجال السراج بيت جوليات المير [أرملة انطون سعاده مؤسس وزعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي] بحثاً عن جورج عبدالمسيح [وكانت جوليات المير قد اعتقلت يوم مصرع المالكي تاركة خلفها ثلاث بنات اكبرهن كانت في العاشرة] فلم يعثروا عليه، انما عثروا على مفاتيح سيارة الـ «فورد» مرمية على طاولة في المنزل. فأخذها سامي جمعة [ابو سمير] الذي كان يرأس مفرزة الاعتقالات مع مجموعة من العناصر بينهم الراحل وجيه الانطكلي، [الذي سأعود الى قصته فيما بعد عندما سأروي عن مسؤوليته في تعذيب وقتل المناضل الشيوعي اللبناني فرج الله الحلو وتذويبه بالاسيد وانكار الرئيس عبدالناصر للأمر في خطاب ألقاه في ميدان التحرير في القاهرة عندما قامت القيامة بينه وبين نيكيتا خروتشوف بسبب مقتل الحلو]، فسلم سامي جمعة مفاتيح السيارة الى رئيسه النقيب عبدالحميد السراج، فأمر بتغيير لونها فأصبحت بلونين برتقالي غامق وفاتح وأخذ يتجول بها بين الحين والآخر...

في هذه الاثناء لازمت مسكني وعملي في «بنك القاهرة» الذي افتتح للمرة الاولى فرعا له في ساحة يوسف العظمة في منطقة الحريقة. مدير البنك كان المصرفي الفلسطيني عدنان مراد. مساعده كان المرحوم نزار الصباغ، [نجل العقيد العراقي صلاح الدين الصباغ، الذي كان ساند حركة رشيد عالي الكيلاني الوطنية ضد حكم نوري السعيد، فلما فشلت وفشل تسلل عبر ثلوج شمالي العراق الى الجزيرة الشامية، ومنها الى حلب، حيث اعتقلته السلطات الفرنسية وسلمته الى البريطانيين في بغداد، فسلموه الى وصي العرش العراقي عبدالاله ورئيس وزرائه نوري السعيد، اللذان أعدماه بتهمة التمرد والخيانة العظمى في ساحة الرشيد في بغداد على مرأى من زوجه وولديه]... وبين ٢٢ نيسان (ابريل) ١٩٥٥ و٢٥ تموز (يوليو) كانت دمشق وكل دسكرة سورية، ترتعد كلما قيل لمواطنيها ان «مفرزة ابو سمير»

[سامي جمعة] اقتربت من الدار أو المكتب او . . . المؤسسة. وأنا كنت من هؤلاء المواطنين. عن خوف او حيطة، ذلك لأنني كنت اخشى «المجهول»، هذا الذي كان يحمله معهم زوار الفجر، كما كانت تحمله الصحف اللبنانية والعربية وهي تنشر على اعمدتها تفاصيل موجة الرعب التي اشاعها عبدالحميد السراج في البلاد.

لقد نشر وقيل الكثير عن تلك الفترة الدامية. وربما كان أروع ما نشر، تلك الاستغاثة التي أطلقها فارس الخوري، رئيس مجلس النواب السوري ورئيس الحكومة ورئيس مجلس الامن الدولي، وهو يصرح لجريدة «صدى لبنان» البيروتية قائلا:

«استغيث بالعالم من الخطر الاحمر الذي يفتك بسورية».

فهل كان عبدالحميد السراج شيوعياً؟

لا . . . لم يكن السراج شيوعيا. لم يكن بعثيا اشـتراكيا ولا «قـوميا» عربيا. عبدالحميد السراج كان نسيج نفسه. مثل كل المتسلطين ، كان همه السلطة والسلطان.

كذلـك لم يخطىء سعيد تقي الدين ، برد الله ثراه، لما أطلق عليه تسمية: «السلطان الاحمر».

- ٤ -

طلع الصوت من سماعة الهاتف خشنا:

«الاستاذ عصام [المحايري] . . . نريد زيارتك لنسألك بعض الاسئلة. . . لقد قتل عدنان المالكي والقاتل أحد اعضاء حزبك!»

بهدوء عُرف به، وضع عصام المحايري سماعة الهاتف، توجسُ ريبة ، فلم تكن قد مرت ساعة على مقتل المالكي . همد لحظات. تغلب على الظنون بابتسامة مررها على شفتيه ورماها على وجه أمه يزيل عنه القلق والخوف.

بيته كان في ساحة النجمة. يعرفه الدمشقيون جيدا، فالرجل كان نائبا سابقا ، ما رَدّ بابه في وجه سائل، ومحاميا ما وهن في الدفاع عن المظلومين، وصحافياً في قلمه حزة السكين دفاعا عن الحق والحقيقة.

ما رُؤي يوم في ساحة النجمة كان الجند فيه بحركة مثل ذلك اليوم. سبعون جنـديا طوقوا المنزل، يتقدمهم النقيب أكرم ديري ، الذي كان مساعدا للمقدم ميشال خوري [الضابط القومي الاجتماعي] في الشرطة العسكرية، أربع سيارات مدججة بالسلاح قطعت كل الطرق المؤدية الى المكان.

علا الدق على باب المنزل.

وما كاد اكرم الديري يدخل، حتى بادر عصام المحايري، الذي وقفت الى جانبه والدته وشقيقته سهام:

«أتعرف ان عدنان المالكي قد قتل»؟

فرد عليه المحايري بهدوء أيضاً:

«سمعت الخبر من الاذاعة»...

«أنت يا أستاذ مطلوب للتحقيق».

قال كلامه هذا وأومأ الى أحد الجند ان يسحب عصاما من ذراعه... لم يعاند، انما نظر الى النقيب الديري وقال بهدوء:

«حضرة النقيب... هل معك مذكرة جلب».

رمى الديري على وجه عصام المحايري نظرة ازدراء وقال بحنق:

«لست بحاجة الى مذكرات جلب»...

ثم وضع اصبعه على النجوم فوق كتفه وتابع:

«أنا في هذه الجريمة القانون»...

واشار الى الجندي، فشد عصام المحايري من ذراعه وخرج به.

كان الديري، لما وضع اصبعه على النجوم التي تزين كتفه، يرسم لسورية في تلك الدقائق الحاسمة، مستقبلا مجهولا لا علاقة له بالقانون والنظام. فلما صمم عبدالحميد السراج على انتهاج الطغيان والانتقام سبيلا للسلطة، أحاط نفسه بالاتباع الصاغرين وبالاذناب المتزلفين وعبدة المناصب والمتفعين من اشتراكيين وشيوعيين ورجال عصابات، فشكل منهم «مافيا» دموية، حكمت وتحكمت في الشام على مدى سنوات ست طويلة.

في زمرة السراج برز محمد الجراح [المشرد هذه الايام في بغداد] والضابط الشيوعي عفيف البزري، الذي كان في إدارة المساحة العسكرية، فاذا به لغاية في نفس موسكو والسراج يتحول الى رئيس للمحكمة العسكرية التي حاكمت السوريين القوميين الاجتماعيين في محاولتهم الثورية عام ١٩٥٦، ، ثم بعد ذلك رئيسا للاركان العامة، قبل ان تنهيه وحدة الشام مع مصر. ولم يكن الشيوعي الآخر عبدالمجيد جمال الدين اقل اندفاعا في خدمة السلطان الاحمر، فلقد كان محققا عسكريا وجلادا في آن معا... الى جانبه النقيب الشيوعي برهان قصاب حسن. أما برهان ادهم [ابو ابراهيم] فكان مساعد عبدالحميد السراج، فقد ترأس المكتب الخاص

الذي كان يتعامل مع الشأن اللبناني. فكان ادهم يضم الى «بلاطه» عناصر لبنانية، لاحداث الشغب والقلاقل في بيروت. رجال أعمال وسياسيين، ونواب ومحامين، بدءاً من رئيس المجلس النيابي الراحل صبري حمادة مرورا بصائب سلام وانتهاء بشبلي العريان رجل العشيرة المقيم في دير العشائر على الحدود التي رسمها سايكس وبيكو بين الشام ولبنان في المقلب الغربي لهضبة ميسلون.

أما شوقي دقاق، فما اكتفى بجلد الاحرار وتعذيب المعتقلين. بنزع أظفارهم ولسعهم بالكهرباء، بل كان يفتك بالنساء ويدنس الحرمات. كان مركزه في شارع الروضة، على مقربة من بيت رجل الاعمال الثري محمد الميداني، حين حاول التطاول على الصبية ناديا ابنته ومعاكستها، حتى ضج والدها من الأمر، فجاءني شقيقها المهندس فاروق الميداني، مرة، راجيا ان أكلم السراج [وكان زمنها عديلي] لعله يكبح جماح الدقاق فيكف عن مطاردة شقيقته، لكنني على الرغم من الصداقة التي كانت تربطني بعائلة الميداني، اعتذرت منه بعدما أفهمته ووالده بأنني لم أكن ذلك العديل المقرب من السراج.

لم يؤثر السراج احدا من المتعاونين معه، بمكانة في نفسه، مثلما كان يؤثر عبدالوهاب الخطيب، الذي صار في مصر عبدالناصر والسادات ومبارك، رجل اعمال يتاجر بألف صنف وصنف... فقد قربه السراج منه وأمن جانبه ووثق به طوال فترة تسلطه وحكمه، حتى قيل ان قتل فرج الله الحلو، ونشره بالمنشار ثم تذويبه بالاسيد، تم بأوامر صريحة من عبدالوهاب الخطيب لوجيه الانطكلي بعدما أوحى له بها عبدالحميد السراج.

بهجت مسوتي، كان شيئاً آخر. محام دمشقي. ابن حي الميدان المحافظ. خريج كلية الحقوق في جامعة دمشق. أوكل السراج اليه التعامل مع المعتقلين الدمشقيين، وعلى رأسهم عصام المحايري، لاقناعهم في البداية بالحسنى المبطنة بالتهديد والوعيد، فان أعرضوا ورفضوا او انكروا وتمردوا، كان بهجت مسوتي يأمر ببطحهم ارضا وجلدهم بالسياط امامه، أو لسعهم بالكهرباء أو غمرهم بالمياه المثلجة أو اغراقهم في براميل المازوت حتى يلتهب جلدهم فينز منه القيح والدم.

مروان السباعي، جلاد آخر من جلادي عبدالحميد السراج في حمص، ولا أظن ان ذاكرة أسراه أو معتقليه وضحاياه من الرجال والنساء قد نسيت ما اقترفته يده الملطخة بدمائهم وعرقهم الى رعبهم وخوفهم...

هؤلاء وغيرهم [وعددهم يفوق ما يمكن ان تحصيه الذاكرة] كانوا «المافيا» التي اتكأ عليها السراج للتحكم بالسوريين، وفيما بعد باللبنانيين والاردنيين والعراقيين،

الى يوم أصبح فيه، بنظر جمال عبدالناصر يمثل «العناية الالهية» التي ساقها الله للكشف عن «مؤامرة» الملك الراحل سعود بن عبدالعزيز ، للقضاء على«الوحدة» بين الشام ومصر، قبيل اعلانها بشكل رسمي في ١٩٥٨/٢/٢٢ والابقاء على تفاصيلها سرية حتى وصول جمال عبدالناصر الى دمشق بعد أسبوع واحد من قيام «الوحدة»، في اول زيارة له لـ «الاقليم الشمالي» الذي كان يجهله تماما، حيث كشف عنها بشكل استعراضي جماهيري كان الرئيس المصري الراحل يتقنه جيدا ولم ينافسه عليه اي حاكم عربي . . . حتى الآن.!



ـ ٥ ـ

اقتادوه مكبلا الى مركز الشرطة العسكرية في «البرامكة». في الطريق، لم يلجأ الى العنف معه. كان الجند في تلك الايام يخشون تجاوز الحدود التي كان يرعاها الدستور والنظام والقانون العام.

كان المركز يعج بمئات المعتقلين. سيقوا اليه في الشاحنات ، وسيارات الجيب العسكرية. فأدخلوه الى غرفة كلحت جدرانها من الرطوبة.

بقي واقفا، قبالة النقيب أكرم الديري الذي جلس خلف طاولة خشبية صغيرة، سلط عليها ضوء لمبة كهربائية يتدلى شريطها الاسود من السقف. ما لبث ان تحلق حوله عدد من الضباط، انهالوا عليه بالتهديد والوعيد، بعدها ، تركوه وحيدا في الغرفة لساعات قبل ان دخل عليه اكرم الديري مرة ثانية واخرجه الى الشاحنة التي اقلته الى سجن «المزة» العسكري.

على مدى اربع ساعات، تناوبوا على التحقيق معه. لم يسمحوا له بالجلوس، اول الامر ، فبقي واقفا، والذين حققوا معه كانوا ضباط قانون وقضاة تحقيق، لكنهم كانوا ـ ايضا ـ عسكريين برتب مختلفة، حقنوا بروح البغضاء والكراهية لكل من اعتنق الفكر القومي الاجتماعي اعتبروه عدوا لـ «القومية العربية»، فيما كان انطون سعاده ـ واضعه ـ يدعو الى العروبة الواقعية التي ترى العالم العربي كما هو بيئات ومجتمعات متعددة، ولكنها تؤمن بأن ما بين هذه البيئات والمجتمعات المتمايزة روابط ومصالح تحتم عليها انشاء جبهة عربية واحدة. أوليس سعادة القائل:

«متى كانت المسألة مسألة مكانة العالم العربي تجاه غيره من العوالم، فنحن هم

العرب قبل غيرنا، نحن صدر العرب ونحن سيفهم ونحن ترسهم، ونحن حماة الضاد ومصدر الاشعاع الفكري في العالم العربي».

عصام المحايري،وهو هذه الأيام رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي، [قيادة الطوارىء] ما زال صامتا عن هذه المرحلة، ولا أعتقد انها غابت عن باله وأفكاره ثانية واحدة ولا اعتقد انه نسيها وهو كان من أبرز ضحاياها. أغلب الظن أنه أبقاها في الذكريات والمذكرات لكِبَرٍ في نفسه ورفضه أن ينشر غسيل الوطن على أسماع الدنيا. لعله ينشرها يوم يتقاعد عن النضال. . .

في سجن «المزة» العسكري، ومن بعده سجن القلعة المدني امضى عصام المحايري ومئات غيره من المعتقلين ثلاثة عشر عاما، ما كانت مؤلمة لاتباع سعاده، كما آلمهم اعتقال زوجة مؤسس وزعيم الحزب. فالرجال من المعتقلين، كانوا يحملون المسؤوليات. نذروا أنفسهم لها ولقضية الحزب. . . . زوجة انطون سعاده لم تكن تحمل من مسؤولية الا مسؤولية تربية بناتها الثلاث.

لقد أمر عبدالحميد السراج باعتقال جوليات المير ليبقيها رهينة تضمن له سلامته وتزيح قبضة القوميين عن عنقه وثأرهم منه. . . فكان لا يتوانى عن التهديد بقتل زوجة سعاده كلما جاء من يفاتحه بأمر تسوية أو بطلب اخلاء سبيل. كان السراج يعرف جيدا أن أرملة سعاده بريئة من كل التهم التي ساقها بحقها، وانها لم تقترف ذنبا لتسجن مع المجرمات والفاسقات. لم تكن عضوا في المجلس الاعلى للحزب الذي هو سلطة تشريعية، ولا عضوا في مجلس العمد الذي هو سلطة تنفيذية. كانت زوجة للزعيم الشهيد وام بناته وامينة على بيته وتراثه فقط. . .

أذكر كيف انني في آذار (مارس) ١٩٦٠ تحدثت الى مَلَكْ زوجة عبدالحميد السراج عن أرملة سعاده في منزلها بشارع الجاحظ، الذي كان السراج قد أخذ طابقه العلوي - إن لم أكن مخطئاً - من صاحبه البهبهاني، الثري الكويتي المعروف. أما الطابق الثاني فقد نقل منه المصرفي واصف كمال [الذي كان مديرا للبنك العربي في دمشق] بينما الدور الارضي سكنه رجل الاقتصاد السوري وحاكم البنك المركزي عزت الطرابلسي [المهاجر حالياً في فرنسة] هذا المبنى تحول بكامله منذ وصول البعث الى الحكم في الثامن من آذار (مارس) ١٩٦٣ الى ادارة للمخابرات العامة و. . ما زال.

قلت لقرينة السراج: «انت أم وزوجك أب، وهناك خلف جدران السجن الرهيبة تقبع منذ خمس سنوات ام مثلك، كل ذنبها انها تزوجت رجلا اعدم قبل أحد عشر عاما».

رفعت حاجبيها وأرخت عينيها غير مبالية :
«لكنها مجرمة ويجب ان تحرم من اولادها» . . .
تمالكت نفسي وعدت أسألها :
«ما هو الجرم الذي اقترفته حتى تجوز معاقبتها ورميها بين الفاسقات والمجرمات؟» .
لم تتركني أكمل فقالت بحدة :
«تزوجت انطون سعاده» .
لم أدع كلامها يضغط على اعصابي فيثيرها ، تمهلت ثم أجبتها :
غريب . . . هذا كلام يصدر عن شيوعية ملتزمة بالحزب الشيوعي وتنفذ أوامر «الرفيق» خالد بكداش . . . لقد كنت توزعين مع نادية الجابري رفيقتك في النضال مناشير الحزب . فهل أصبح انتسابك للحزب الشيوعي وتوزيعك مناشير بكداش . . . جريمة؟

في ذاك اليوم لم أحصل على جواب . . جوابها كان صمتاً ، لأن المطلوب منها في ذلك الزمان ان تصمت . هي التي ضاقت ذرعا اكثر من مرة بتصرفات زوجها وبقساوته وحقده .

★★★

كان الليل قد انتصف . افاقني رنين جرس الهاتف . أتاني صوت مَلَكْ السراج مذعورا . كانت وهي تجهش بالبكاء تطلب مني ومن زوجتي [شقيقتها] الاسراع اليها .

كنت أسكن منزلاً قبالة قصر خالد العظم في ساحة ابي العلاء في حي ابو رمانة . فسارعت مع زوجتي نطوي المسافة الى منزل السراج . ساورتني الظنون ان حادثاً ما قد وقع ، وانني سأرى البيت مطوقا بالعسكر.

تبددت الظنون عندما شاهدت الحرس أمام البيت كما في العادة ، لا حركة ولا جلبة . طوينا درجات السلم بسرعة . دخلنا ، فرأينا عبدالحميد السراج يجلس على أريكة في صدر الدار ، عابسا واجما وزوجته مَلَكْ تزبد وترعد ، وما ان شاهدتنا حتى انفجرت بالصراخ :

«انظروا الى يده . لقد وعدني مرارا ان لا يضرب أحداً . . . ولكنه حنث بوعده كالعادة . . . لقد مارس التعذيب هذه الليلة وعاد اليّ بيد «مزرقة» سوداء من كثرة ما أمسك بها السوط وضرب» .



عبدالحميد السراج ... عندما أصبح مقدما في الجيش

الفصل الثاني

الهروب الى الحرية



- ١ -

كانت شمس الخامس والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٥ تصب ناراً على بيوت دمشق النعسانة بعد ليلة طويلة من الحر.

علا الدق على الباب بوتيرة عصبية. رميت نظرة عجلى على الساعة في معصمي وأنا أتمطى، فاذا بعقاربها تشير الى السادسة. توجست شرا: من يكون الطارق في مثل تلك الساعة المبكرة؟

أخذتني رعدة الذعر، تزاحمت الافكار في رأسي. . . أتراها أزفت الساعة لأنضم الى قوافل المعتقلين في سراديب التعذيب؟

مددت يدي الى الباب أفتحه، فأحسست برعشة انسكبت في جسدي لم تلبث ان استقرت في مفاصلي، فغالبت جمود يدي. طلع علي وجه مَلَك، شقيقة زوجتي [التي تزوجت السراج فيما بعد] فسكن ارتباكي. رميت نظرة متأملة على وجهها، فاذا بمسحة من الخوف تغشاه، فغيرت ملامحه المتناسقة، عيناها جاحظتان في محجريهما، لهاثها المتقطع كان يحبس الكلمات على رأس لسانها، استبدلتها بالاشارات اولا، الى ان تمالكت نفسها:

«على مدخل المبنى أربعة عناصر من المكتب الثاني [الاستخبارات] يحومون حول المكان، يرصدون المارة بعيون مستفسرة ويسألون الداخل والخارج عما يريد. أحدهم كردي من آل ظاظا، عرفته، وعرفني، فلقد كان يتردد على والدي [والدها علي آغا زلفو من زعماء الاكراد] سألته ماذا تفعلون هنا؟ فقال جئنا لنعتقل غسان زكريا. . . فبادرته على الفور حسنا تفعلون. . . ودخلت مسرعة لاطلب اليك ان ترحل». . .

جمدت في مكاني. شعرت بدبيب الخدر في رأسي. حاولت ان استجمع افكاري. مر امامي شريط التعذيب، وتناهى الى مسمعي أنين الموجوعين بعد حفلات الجلد الطويلة في السراديب المظلمة العفنة إلتي تفوح منها روائح القيح والدم اليابس على الاجساد.

هزتني زوجتي فاعادتني الى صوابي.

كنت أسكن في طابق أرضي من مبنى الراحل مفيد الحسيني (مدير وكالة الانباء العربية في دمشق عامئذ)، يطل من الخلف على حديقة متصلة بشارع ركن الدين. فكان منفذي الوحيد للافلات من قبضة رجال عبدالحميد السراج، باب المنزل الخلفي. لملمت زوجتي بانـاملهـا دمعـة غدرتها، فسالت على خدها. ودعتني. فطلبت منها ان تتصل بشقيقها خالد فيقتفي أثري الى «بنك القاهرة»، حيث كنت اعمل.

تسلقت الجدار العالي الفاصل بين البيت والحديقة المتصلة بشارع ركن الدين، ووليت الادبار. متجها نحو منطقة الحريقة، حيث كان فرع البنك في ساحة يوسف العظمة.

لم يبطىء زوار الفجر قبل أن يطرقوا الباب، فتحته مَلَكْ، فدهش ابراهيم ظاظا لما رآها تستقبله، انعقدت الكلمات على لسانه برهات ثم بادرها متسائلا: «ماذا تفعلين هنا»؟.

فتجمع الحنق في صوتها: «ألا تدري ان الذي جئت تطلبه هو صهري زوج أختي»؟.

علا وجه الرجل حياء غريب، وبدأ يتوسل الاعذار. أكّد انه لم يكن يعرف ذلك ـ وكان صادقا ـ ثم عاد يسألها عني، فأجابته انني مسافر منذ أربعة ايام، لذلك جاءت الى شقيقتها لتبقى معها، فلا تتركها في البيت وحدها أثناء غيابي. . واتبعت ذلك بأن دعته لتفتيش البيت. فأعرض. اعتذر. و. . . ومشى.

وصلتُ الى البنك وأنا ألهث. طوال الطريق تجنبت السير في وسط الرصيف. سرت بمحـاذاة الابنية فزعـاً من ان يخطفني من وسط الـرصيف من يترصـدني لاعتقالي. فلا يترك لي مجالا للهرب الى داخل البنايات او المحلات التجارية الكبرى.

آخـر ما كنت أتـوقعه وأنا أجلس على مكتبي، زائغ العينين، أنظر بين الفينة والفينة الى باب البنك بلهفة، ثم انقله الى الساعة الكبيرة المسمرة على وسط الجدار امامي، فبدت كأنها عين مارد يهددني ويعدّ لي الدقائق والثواني لحريتي أو أسري، ان يطلع عليّ صوت مساعد مدير البنك الراحل نزار الصباغ [الحاقد على الانكليز لانهم سلموا والده الى الوصي على العرش العراقي عبد الإله ورئيس وزرائه نوري السعيد، فأعدم في ساحة الرشيد بتهمة الخيانة العظمى] مهددا متوعدا، يكيل لي التهم ويصنفني في عداد المتآمرين على سلامة الدولة، مؤكدا في شبه يقين علاقة القوميين الاجتماعيين بالغرب، وان واشنطن ولندن والقوميين قتلة عدنان المالكي. . .

لقد كان نزار الصباغ ـ رحمه الله ـ يردد كلاما لاكته ألسن العامة ضمن الحملة المسعورة المدبرة والمنظمة التي كتبها الشيوعيون والاشتراكيون في منشوراتهم وتصريحاتهم ضد القوميين الاجتماعيين، فجاهدت النفس ان لا أعيره اهتماما، تركته يغلي ويفور واقحمت عيني في أعمدة جريدة كانت مرمية على المكتب. فقلبتها بسرعة، مصطنعا قراءتها. . . أتحايل ، فاسترق النظر مرة الى الساعة. . . و. . . مرات الى باب البنك الرئيس أترقب بصبر دخول خالد لينتشلني من بين براثن الاسر.

خواطر كالومض مرت مختلطة في رأسي ، فتهالكت على الكرسي متعبا بعدها، فما شعرت الا بيد تربت على كتفي. فانتفضت، فاذا بالمرحوم خالد زلفو، شقيق زوجتي. واذا بي أسارع فأتناول حقيبة جلدية صغيرة ألقمتها بطاقة الهوية. لم أستأذن من أحد. لم أودع أحدا. . . رميت نظرة اخيرة على مكتبي وخرجت يلحق بي شقيق زوجتي. كنت وقتها أهرب من سجن المزة الى. . . الحرية.

- ٢ -

طريق دمشق ـ بيروت ، كانت مزروعة بالعيون المسنونة. فلقد بث عبد الحميد السراج جواسيسه يترصدون الطرقات، كأنه ما اكتفى بآلاف الذين أودعهم السجون والمعتقلات فأخذ يطلب المزيد.

اقترح عليّ خالد ، ان نتسلق جبل الشيخ الى لبنان. خطف كلامه بسرعة. لم يترك لي اي مجالاً للتفكير. أذعنت صاغرا. فكل ما كنت أريده في تلك اللحظات ان أجد من يضيء مقلتيّ بالأمل للإفلات من قبضة عبدالحميد السراج القاتلة.

سارعنا الى مرآب سيارات القنيطرة [قبل سقوطها في قبضة الاحتلال الاسرائيلي بإثني عشر عاماً] لم نجد الا باصا صغيرا. كان شرط سائقه ان ندفع له سبع عشرة ليرة سورية سلفا قبل ان يدير محركه. فما ان ألقم جيبه بالمال حتى مضى بنا باتجاه الجنوب الغربي.

كان الباص يسرع فوق الطرقات السنجابية. الاشجار والبيوت تركض في الاتجاه المضاد لنا. انسياباته انعشت قلبي الكسير، فمددت رأسي من النافذة وتركت الهواء يلطم وجهي. أطلت علينا من بعيد ضاحية «المزة» وسجنها العسكري الزابض على ذروة هضبة فيها، لي خلف جدرانه أحبة تنزل على أجسادهم سياط الجلادين. . فمطار دمشق القديم، فالسهول والهضاب المترامية الاطراف، فتل «الكوكب» ، حيث نزلت الرؤيا على الضابط الروماني شاوول، الذي أصبح بولس الرسول فيلسوف المسيحية . . . ومنه مررنا بسعسع ، فامتدت امام أنظارنا سهوب

خضر وحصون واستحكامات ومخابىء مرابض المدفعية التي كانت تشكل خطوط دفاع سورية الخلفية. . .

ردني اختناق صوت المحرك الى رشدي. فقد وصلنا الى مزرعة «الحلس» التي كانت بعض املاك علي زلفو[والد زوجتي] الزراعية الواسعة. فدخلنا، خالد وأنا، وعر الجولان سيرا على الاقدام. بعد ساعة بلغنا مساكن فلاحي المزرعة الذين تراكضوا الينا مرحبين. بنجل الآغا وصهره. . .

كان النهار قد انتصف، وعيون الشمس المحمرة تلسعنا بحرارتها. تطوع أحد الفلاحين، وكان اسمه محمود، ان يكون دليلنا الى قرية «الدوار» المختبئة في السفح الجنوبي من جبل حرمون [الشيخ] على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم عن سطح البحر. فقد شرح خالد له، بانه يريد التسلق الى «الدوار» هربا من ابيه الآغا الغاضب عليه بسبب مشاكساته!

مشيت خلفهما صعدا، غير مبال بالحصى المتناثر تحت رجلي، ولا اعطيت بالاً لوعر أو لصخر، أو لجرح في ركبتي بدأ ينزف لما ارتطمت بصخرة تسلقتها.

كان دليلنا محمود، قصير القامة، نحيف البنية، دقيق الساقين، سريع العدو والتسلق فهو ألف منذ صغره الوعر والصخور وحفظ الدرب الى «الدوار» عن ظهر قلب. فامكنه ان يختصر لنا الدرب ويخفف عنا صعوبة التسلق.

كانت الشمس قد نشرت الوية المغيب لما علقت قلوبنا على مشارف «الدوار». وقفت ألتقط انفاسي واتفقد الجرح النازف في ركبتي، فشدني خالد بذارعي نحو بيت المختار ابو عزالدين.

اشرأبت اعناق من في البيت نحو الباب. ووقفت انظارهم علينا. ولم تمض دقيقة على جلوسنا، حتى سد الباب رجل مربوع القامة، بدين، عريض الكتفين واسع الصدر، ضخمه. عرف ابن الآغا، فلف عباءته وأرخى جفنيه وحنى رأسه:

- يا هلا. . . أهلا. ما وراءك يا سيدنا.

- ما ورائي الا الخير يا مختار.

ما كاد خالد ينهي كلامه، حتى أومأ المختار، ان احضروا العشاء. فانتصب خالد واقفا منتحلا الاعذار، بضرورة مغادرتنا بسرعة لانه يخشى ان يتعقبه والده الآغا، وبلباقة دغدغ شعور المختار فبدا مزدهيا متفاخرا اذ قال له:

- اعرف ان والدي يصطفيك من بين الآخرين، ولذلك له دالة عليك يا ابا عزالدين، فلا أريد ان اوقعك في حرج معه. فمشكلتي مع والدي كبيرة. . . فاتركنا نتابع سيرنا الى «شبعا» في المقلب اللبناني من حرمون وهناك نتدبر أمرنا الى بيروت. ولقد تركت لشقيقي الاكبر معن امر تدبير الاشكال وتسويته بيني وبين والدي

رافقنا صوت المختار حتى منتصف الدرب، حتى اختفى، واختفت معه

«الدوار» خلفنا ، ونحن نتسلق الصخور فيتدحرج الحصى وراء دعساتنا.

أذكر أبدا ، لما مالت الشمس نحو المغيب، كيف أنها تركت أشعتها المرتجفة وسط حبال النور، تُذَهِّب تلال فلسطين. رحت أسرح نظري فيها. ارتاح مسندا ظهري المتعب على صخر اجرد. فيقطع صوت خالد عليّ نشوتي بالمنظر فأعود أمد يدي الى الصخور و. . . اتسلق.

بدأ البرد يسكب في جسدي ارتعاشات رفيقة. وأخذ الجوع والتعب مني مأخذا. وكلما كنا نصل الى جبل ترامت امامنا جبال، وكلما بلغنا قمة اطلت علينا قمم أخرى. وانتصف الليل بنا، لا يقلق سكونه سوى هسيس النسيم البارد وصوت طائر ضلّ مرقده.

تبدّى القمر بدرا، من خلال السحب المنتشرة في اعالي الهضاب المتصلة بجبل حرمون، فأرسل انواره تتدحرج ببطء على الصخور، فتلقي ظلالها القاتمة تؤلف اشكالا غريبة، تكبر وتصغر، تنفرج وتضيق، تبعا لمرور السحب امام ضوء القمر. فسمعنا فجأة، اصواتا بشرية ونهيق حمير وبغال. فكمّنا خلف صخرة كبيرة نستطلع. خشيت دسيسة دبرها علينا في دمشق اجدهم!

أقامت الشرطة العسكرية السورية لها موقعا في قلعة شيبوب المجاورة لقصر عنتر. والموقعان فيهما ـ هذه الايام ـ قوة نمساوية تابعة للامم المتحدة، وكانا استعملا في العهود الوسيطة كمراكز مراقبة واشارة نارية لانذار دمشق من زحف غريب عليها من سهول فلسطين، فيما المؤرخون يعيدون القلعة والقصر الى العصر الآرامي فالكنعاني ، حيث كان يعبد فيهما الاله حدد . فتقوم عذارى كنعان وآرام بتقديم انفسهن للكهنة في عمَلية عطاء جنسي تأكيدا لاستمرار الخصب وغسل الذنوب!

بدت لنا في وسط الوادي ، مجموعة من الفلاحين اللبنانيين والسوريين، كانوا اوقدوا نارا وأكلوا شواء صيدهم، فيما دوابهم ترتاح قبل متابعة السير. فاقترب مني محمود وبصق حنقا وشتم. ومن دونَ ان أن أسأل قال:

«هؤلاء من قومي. يتعاملون مع اليهود، يهربون البضائع منهم واليهم، وهم الآن اما في طريقهم الى قراهم أو الى فلسطين المحتلة». . .

انتظرنا فترة ظننتها دهرا. كان هذا الانتظار الممض، اصعب علي من كل الارهاب الذي عشته في دمشق والارهاق الذي حل بي وأنا اتسلق كتلة صخرية يزيد ارتفاعها عن ٢٨٤٠ متراً عن سطح البحر.

كان ما تبقى من الثلج في الجبل يتكوم على شكل دوائر بيضاء مرمية تحت الصخور. . . لم اعد أقوى على تحمل البرد ينخر عظامي:، وكان قد حل بي الاعياء فانطرحت على وجهي لا اعي. . . وما استفقت الا وخالد يلطمني على وجنتي ومحمود يفرك يدي ليدفئهما. . .

تجاوزنا قصر شيبوب التفافاً، بدأنا رحلة الهبوط الى «شبعا» [التي تحاصرها قوات «اسرائيل» هذه الايام]، فشعرت انني ملكت الحرية. وانني ارتديتها معطفا يقيني من البرد ودرعا على صدري يحميني من الخوف. حتى ان رفيقيّ في رحلة التسلق والهبوط ما عادا يلحقان بي ، صرت ارمي بنفسي على الصخور والحصى، صرت اتدحرج معها اتنشق هواء الحرية بعيداً عن عنف عبدالحميد السراج وارهابه.

كان الفجـر قد بدأ يلقي وشاحه البهي على «شبعا» دافعا أمامه نسيما باردا. فتراءى لي من بعيد بستان تفاح، فركضت نحوه والجوع يعتصرني، وبدأت بقطف حبات التفاح غير مبال بالمواد الكيماوية التي كانت رشت عليها . ثم جلست على كعب شجـرة. . . أرتاح. فاذا بصاحب البستان (الذي كان مختارا للبلدة) يطل علينا مستفسرا عمن نكون، ولما عرف فينا ابن الآغا افسح لنا طريق بيته.

ما ان جلس بيننا، يسكب لنا قهوة مرة، من دل بقي يفقفق على نار هادئة، حتى دخل علينا ثلاثة شبان، قدمنا مختار «شبعا» اليهم بأننا: «ابن الآغا علي زلفو وصهره ودليلهـما». . . جلسـوا حلقـة حولنـا، يرمـون على وجوهنا نظرات موشاة بالريبة والتوجس. وبعد ان ساد السكوت، حرك اكبر الشبان الثلاثة سنا كتفيه، وكان في العقد الثالث من سنيّه، ورفع رأسه قليلا وقال مستخرجا كلامه من كعب الذاكرة:

ـ ألست فلاناً؟!

تمليت وجهه بسرعة وأجبت:

ـ نعم أنا هو.

ـ أنسيتني؟.

لملم حيرتي المرتسمة على وجهي وتابع:

ـ أنا كنت في عداد الذين مكثوا في بيتك في دمشق ثلاثة ايام أثناء الانتخابات النيابية عام ١٩٥٤.

فجأة بان وجهه اليفا، وعرفته. انه واحد من آل ماضي راح يروي كيف كان بيتي في دمشق عامذاك، مفتوحا ليل نهار لمئات الآتين من الوطن الكبير لدعم ترشيح عصام المحايري وعبدالله محسن لمجلس النواب خلال الحقبة الشيشكلية. ولما أنس بي، اخذ يخبرنا ان الشرطة العسكرية السورية اقامت مرصدا على قمة الجبل بين قلعـة شيبـوب وقصر عنـتر لمراقبـة المتسللين من الشـام الى لبنان. وانه في الثاني والعشرين من تموز (يوليو) تمكن النقيب فضل الله أبو منصور على صهوة فرسه من ان يعبر ومعه مرافقان اصيبا بجروح من رشاشات أطلقها عليهما الجنود الذين كانوا طاردوهما مع النقيب من سفح الجبل الى ذروته فاعتقل الجريحان «اما فضل الله ابو

منصور فقد نزل الينا وأوصلناه الى مرجعيون ومنها الى صيدا وهو الآن في بيروت» . . .

أحسست بالراحة . واني بين اهلي وعشيرتي . ولم تمض ساعة ، حتى كنا نحن ايضا في الطريق الى مرجعيون ومنها الى صيدا حتى وصلنا بيروت في الخامسة مساء . فتوجهت مباشرة الى مركز الحزب القومي الاجتماعي في مبنى العازارية الضخم ، حيث استقبلني ، جبران جريج ، وكان عميدا للداخلية في الحزب ، فقدمت له تقريرا عن الذي حصل وكيف تسللت من دمشق الى بيروت . أخبرته بما يفعله السراج وأعوانه بالقوميين ، الذين يذهبون الى السجون ويلاقون اصناف التعذيب ، ضحايا لمؤامرة لم تكشف ابعادها بعد . . .

ودعته لأتدبر أمري ، فاذا بي وجها لوجه مع الراحل سعيد تقي الدين ، الذي فوجىء بمرآي في بيروت ، فأمسك بيدي ، وأدخلني الى مكتبه ، حيث كان وكيلا لعميد الاذاعة ، عصام المحايري الأسير في سجن المزة العسكري ، يعاني الامرين من جلاده الرقيب أول ماجد شاكر ، الذي كان رئيس الشرطة العسكرية اكرم الديري قد أوكل اليه أمر التفنن في تعذيبه ليل نهار .

كرّت اسئلة سعيد تقي الدين : كيف . . . وماذا . . . وأين و . . . متى؟ يقف مني على أدنى التفاصيل ، يمتص لفافات التبغ الواحدة بعد الاخرى . يرمي اعقابها بعصبية في صحن الدخان .

ذكرت له كل ما أعرف . استمهلني سعيد برهات . خرج من المكتب وبيده ورقة عليها افتتاحية لجريدة «صدى لبنان» . عاد . رآني اشبك عشري على رأسي وقد أرخيته على المكتب ونمت . أيقظني لأمضي - وخالد ومحمود - كي نتدبر أمر نومنا وطعامنا . !

- ٣ -

ستة أشهر ، انسلت ايامها الممضة وأنا في بيروت . اضغط على الجرح . كانت أخبار دمشق تصلني متتابعة ، تروي المزيد عن حكايا الرعب والقمع والتعذيب . ولكنني في دوامة المسؤولية التي مارستها ، كنت اشعر وكأنني اسهم ولو جزئيا في معركة الخلاص من عصابة الضباط العشرة الحاكمة في الشام : [اكرم الديري ، جادو عزالدين . طعمة العودالله . احمد الحنيدي . برهان قصاب حسن . عبدالكريم النفوري . جمال الصوفي . عفيف البرزي . حسن حدة] التي وان كان عبدالحميد السراج ليس اعلى من فيها رتبة ، الا انه كان فيها بالتأكيد الاكثر فعلاً وقوة ونفوذا .

فهو كان على رأس جهاز استخبارات الجيش، الامر الذي مكّنه من التسلل لا الى المؤسسات ودوائر الدولة وحسب، انما الى الدور والقصور، موظفا ومستخدما اتباعا واعوانا، فعلمهم فن التنصت والمكر والمخادعة، فلما تمكنوا، اصبحوا دعائم حكمه وتسلطه، تتملك هيبتهم القلوب فيخشاهم الناس، فاخضعوا البلاد وحولوا العباد الى ضحايا.

كان عبدالحميد السراج، في كره وفره مع القوميين الاجتماعيين، يأبى الاستكانة الا بعد القضاء على اثنين: سعيد تقي الدين وغسان جديد. واصبح يترقب سنوح الفرص للاقتصاص منهما. فلقد كان يرى فيهما خطرا على حياته ووجوده السياسي والمادي في دمشق.

سعيد تقي الدين، شن حملة كبيرة على عبدالحميد السراج، وعلى ارهابه وقمعه. عراه. نبش له اصوله وجذوره. استعدى عليه الانسباء والاقارب. لم يهدأ. ولم يستكن ولا جف الحبر في قلمه وهو يدبج المقالات تارة في «صدى لبنان» وطورا في «الزوابع»، وحينا في «النهار» وآخر في النشرات والمناشير التي كان يوصل الليل بالنهار وهو يشرف على طباعتها وارسالها على ظهور الحمير والبغال في مناطق الحدود السورية - اللبنانية التي رسمها سايكس وبيكو عام ١٩١٦، يقودها شبان قوميون الى منحدرات الهضاب الفاصلة بين مناطق بعلبك وسهل الزبداني وسرغايا، حيث كان يتلقفها في مطالع الفجر رفقاء لهم في المقلب الشامي، فيقومون بتوزيعها على القرى، وعلى احياء دمشق وبقية المدن السورية. فكانت تلك النشرات تهتك ستر الاوضاع في دمشق، تنقل الى السوريين أخبار «السلطان الاحمر» وجوره وعسفه ومؤامراته، وتشير بالاسماء الى اعوانه وادوارهم في المؤامرات والتنكيل بالناس، اضافة الى ما يدور داخل الحكم وخارجه... في وقت كانت صحف دمشق تبلع ريقها، والرقيب العسكري يحصي على الصحافيين انفاسهم وحبرهم وورقهم. اما المأجورون منهم - وكانوا كثراً - فقد أجادوا التسبيح بحمد السلطان الاحمر، وكما أجادوا الانتظار في السفارة المصرية ليقبضوا من السفير محمود رياض وملحقه العسكري محسن ابو النور وعدلي حشاد (الملحق الصحافي) جعالاتهم الشهرية.

كان تسرب هذه النشرات يقض مضجع عبدالحميد السراج الذي حار كيف يمنع وصولها الى دمشق، على الرغم من كل التنكيل والقمع... فزُين له، بعدما لم تنفع اساليب التهديد والوعيد مع السلطات اللبنانية، ان يخطف سعيد تقي الدين الى دمشق ومن ثمة يصفيه تحت التعذيب في سجن المزة العسكري.

واذا كان عبدالحميد السراج يضيق ذرعا بقلم سعيد تقي الدين، فان اوصاله

كانت ترتعد لمجرد ذكر اسم غسان جديد. فلقد كان هذا الاخير، ضابطا مقداما، يتجسد العزم في قسمات وجهه وتلمع البسالة في عينيه، على صدره و«سام أمية» [وهـو اعلى اوسمة العسكر زمنذاك]، لاستبساله في معارك فلسطين عام ١٩٤٨ ولقـدراتـه العسكـرية غير المحدودة في التدريب وحرب الغوار. دمث الاخلاق. الصدق سلطان ينزل عند امره. يحابيه الجنود لاقدامه في المعامع على رأسهم. لذلك كله كان السراج يخشاه ويخاف ان يرتد عليه . . .



اعـد السراج العـدة. ارسل أحد عناصره وكان حمويا [لم يعد في الذاكرة مطارح لاسمـه] اوعـز اليه الاتصال بمشهور دندش وغيره من شباب الهرمل[البقاع] في محاولة لاغرائهم بالمال ليساعدوه على خطف سعيد تقي الدين وغسان جديد الى دمشق.

ماشى مشهور دندش وصحبه رسول السراج في خطته. التقوه في مقهى كان يقوم مكان «لاروندا»، على زاوية الطرف الجنوبي من ساحة البرج في بيروت. سمعوا له قولته. ساوموه وساومهم حتى اتفقوا على ان يدعو مشهور دندش سعيد تقي الدين وغسـان جديد الى العشاء في احد مطاعم السمك قرب بلاج «السان ميشال»، فيحضر الحموي الى المطعم ومعه مبلغ خمسين الف ليرة لبنانية [وكان هذا المبلغ يعادل ثروة في هاتيك الايام] يسلمه فيستلم الرجلين المطلوبين . . .

دخل مشهور دندش المطعم ليلتها، وتوزع من معه، وكانوا اربعين شخصا، على طاولات ركزت في زوايا المطعم الاربع، فبدوا كأنهم زبائن جالسين الى موائد الـطعـام، بينما انتقى دندش طاولة في وسط المطعم، فجلس اليها اربعة، كانوا اشتركوا في التفاوض مع رسول السراج.

حسب الموعد المضروب. دخل الحموي الى المطعم. فاقترب من طاولة دندش، رمى السلام، وابتسم فبان كبير الانف، بارز الحاجبين، تغور تحتهما عينان واسعتان لاتوحيان بالثقة. أشعث الشعر. لحظات لحق به اثنان، قدمهما وجلسا. فدارت العيون على المكان بريبة وحذر. مال الحموي على مشهور دندش يسأله هامسا: «وين البضاعة؟».

رسم مشهـور دنـدش على وجهه ابتسامة اوحت للحموي بالاطمئنان وقال: «البضاعة لن تصل الا بعد ان نشرب كأس عرق . . . فالليل ما يزال في أوله».

ودارت أقداح العرق تتراقص بين الاصابع، ودارت معها الرؤوس ثملى. فما شعر الحموي ومن معه، الا وقد انتصف الليل وخفتت الاضواء في المطعم وتوزع

«الـزبـائن» على بواباته شاهرين مسدساتهم. لم يقوَ الثلاثة على الحراك. استدار الحمـوي نحو مشهور دندش محاولا استجلاء الامر. فاستل دندش مسدسه من خاصرته ووضعه على الطاولة فارتد الحموي وقد بدا الخوف يتكمش في ملامح وجهه الدميمة.

فجأة دخل غسان جديد صائحا: «لنشرب كأس انطون سعاده». فانتفض رفيقا الحموي واستدارا نحو الصوت. فاذا بغسان جديد يعرفهما: النقيب راشد قطيني، نائب السراج في جهـاز الاستخبارات والملازم اول عبد الوهاب الخطيب، ساعد السلطان الاحمر الضاربة وجلاده المفضل.

خارت قوى راشد قطيني وانتابت عبدالوهاب الخطيب رعدة الذعر. وبدأ الاثنان يتوسلان غسان جديد. اما الحموي فقد كان ثملا فبقي جالسا لا يقوى حراكا.

صاح غسـان جديد بالضـابـطين ان ينهضـا عن الارض. فليست تلك شيم العسكر. وان يرفعا رأسيهما احتراما على الاقل لرتبتهما العسكرية. ام ان عبدالحميد السراج قد علمهما الخنوع وطأطأة الرأس؟.

ثم أومـأ بيده، فطوقهـما أربعة شاهرين مسدساتهم. وسار الجموي معهما الى سيارة كانت تنتـظر امام المطعم. نقلتهم الى مكان قصي في اعالي المتن الشمالي. و. . . اختفوا.

- ٤ -

وما وصل خبر اختفاء راشد قطيني وعبدالوهاب الخطيب الى دمشق، حتى كان الغضب يأخذ من السراج شيئا فشيئا. فقد ساءه ان يكشف امر ما نوى عليه قبل نجـاحـه، فهتكت السلطات اللبنـانية الستر عن تصرفاته، وتحركات عملائه في بيروت، وان يؤخذ راشد قطيني نائبه، بحيلة ويلحق الاذى سمعته.

ما ترك وسيلة الا والتجأ اليها لمعرفة مكان وجود الضابطين المخطوفين، ولم يعدم حيلة عند عملائه في لبنان ـ وكانوا كثرا ـ الا واعتمدها ولكن. . . من دون جدوى.

بعد مضي اربعة ايام، على خطف الضابطين، كنت بمعية صديقين في حديقة فندق «اكسيلسيور» في بيروت والى يميننا جلس «الامير» مجيد ارسلان وزير الدفاع الوطني اللبناني، يحادث نظيره السوري رشاد برمدا والى جانبه جلس عبدالحميد السراج.

كانت تلك، المرة الاولى التي يزور فيها السراج العاصمة اللبنانية وهو على رأس المكتب الثـاني [الاستخبارات]. اما الزيارة الثانية، فقد كانت عندما هرب من

سجن المزة العسكري بعدما اعتقله هشام عبدربه «تلميذه» وأحد مساعديه الخلص بعد انقلاب ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ الذي انهى وضعا غير طبيعي وشاذا لوحدة مصطنعة وغير قابلة للحياة قامت بين سورية ومصر.

كان السراج يتلفت بحذر. عيناه زائغتان كعيني ذئب، تتنقلان بين مدخل الحديقة والناس الذين يرمون باجسادهم في بركة السباحة او يمررها على المستلقين يديرون ظهورهم للشمس . . . او على الجالسين يحتسون الجعة. كأنه ينتظر قادما او قادمين، مخبرا او مخبرين.

في يد «الامير» اللبناني اليمنى نربيش عاجي الحلمة يقرقر في نارجيلة اسطمبولية بعنق مشرئب، وبطربوش لمّاع يحمي الجمر من سرعة الاحتراق، اما يده اليسرى فتحمل سبحة سوداء الحبوب اغلب الظن انها من اليسر المطعم بالفضة، وبين الحين والآخر كان يمشط شاربيه بابهامه وسبابته، وينزه نظره في السابحين والسابحات. بينما رشاد برمدا يسهب في الحديث ورسم الاشارات بيديه . . .

حضر وزير الدفاع السوري ورئيس استخباراته الى بيروت لاستعادة الضابطين المخطوفين. سبقتهما الى العاصمة اللبنانية، اتصالات لم تكن خالية من التهديد بالويل والثبور وعظائم الامور، ان لم يكشف مكان وجود الضابطين اللذين كان السراج يخاف ان يكونا قد صفيا للنيل منه.

أجرت الحكومة اللبنانية اتصالات مكثفة. استنجدت بسعيد تقي الدين ، الذي وعد من اتصل به من المسؤولين، [وأغلب الظن انه كان رئيس الجمهورية الراحل كميل شمعون] ان يستخبر ويستطلع وان يجيب في غضون ساعات.

بعد سبع ساعات من الانتظار الطويل عثر المارة في حي «الكرنتينا»، في بيروت على ضابطين سوريين يسألان المارة عن الدرب الى بيروت. . .

اما ماذا جرى للضابطين بعد خطفهما، وماذا تم بين السلطات اللبنانية والخاطفين. فذلك للتاريخ. . .

كنا ما نزال جالسين في حديقة فندق «اكسيلسيور» دخل شرطي يعتمر عمرة الجيش السوري، مهرولا . وقف قبالة وزير الدفاع رشاد برمدا، أخذ التحية، ثم انحنى قليلا واسر للوزير ببضع كلمات، فانفرجت أساريره مشيراًالى السراج بهزة من رأسه. ثم وقف الوزير، بينما بقي «الامير» جالسا وقال متنحنحاً بعض الشيء:

فضلت يا عطوفة المير.

أفسح له العسكري المجال فمشى الوزير وخلفه عبدالحميد السراج، تدرجوا الى الشارع ، وانطلقوا بثلاث سيارات وغابوا في شوارع بيروت العتيقة.

ـ ٥ ـ

من طبعه، وهو القادر، ان يسكت على ضيم. كان السراج بعد عودته من بيروت مكلوماً. طويل الصمت، دائم الفكر. فهو لم يستطع ان ينسى «الهزيمة» التي ألحقها به القوميون بخطفهم من كان ارسل من ضباطه المقتدرين ليخطف سعيد تقي الدين وغسان جديد. . . قبلها عانى السراج من اختراق جميل العريان [عمه النائب السابق شبلي العريان المتعامل مع السراج]، لجهاز أمنه، الذي كان قد كلفه وقتها بخطف الدكتور سامي الخوري [ابن شفيق فارس الخوري]، المقيم حاليا في الاردن، فضحك منه وعليه. فعقد العزم على رد الصاع صاعين. . . فازدادت حملات التعذيب والتجويع في السجون، وترك العنان لرجاله يف القمع والتعسف. وبدأ يخطط لنقل مطاردته وقمعه الى لبنان. . .

في منزل أكرم الحوراني، التقاها. خلبته. جمالها بهر عينيه. وزادت جرأتها في الحديث من ولعه بها. فأخذ يتحين الفرص للقائها. . . فكان له ذلك في منزل خالد بكداش وزوجته وصال. تجاذبا أطراف الحديث. بثها لواعجه فاسترخت حياله. تعاهدا على الزواج. قال لها انه سيقدم على خطوبتها متى استقرت أحواله المادية، ففي تلك المرحلة كان عبد الحميد السراج نقيبا يعتاش من مرتبه الشهري فقط. . . اما مصروفاته الاخرى، فقد كانت مجموعة من المخصصات التي وضعت تحت تصرفه كرئيس للمكتب الثاني [الاستخبارات].

لقد أبقت مَلَكْ حبها للسراج سرا. لم تبح به لأحد حتى لاختها [زوجتي] فكانا يتواعدان ويلتقيان بعيداً عن أعين المقربين منها والاصدقاء.

لما تأكد منها، بدأ يستغلها ويشركها في عمله الاستخباراتي ويدربها عليه. طلب اليها ان تذهب الى بيروت مع شقيقتها [زوجتي] لتلقاني، علها عن طريقي تستطيع التسلل الى مسؤولين قوميين كباراً، فتجاورهم وتداورهم وتحدد في الوقت نفسه اماكن تواجدهم وتسجل تحركاتهم اليومية.

أسئلتها الكثيرة. فتحت عيني على ما كانت تضمره وتنويه من مجيئها الى بيروت. وكان تناهى اليّ انها تلتقي السراج. سألتها فتمنعت. واكتفت بالقول انها التقته مصادفة في منزل خالد بكداش. . . وليس ما يربط بينهما!

توجست شرا، فاعلمت جبران جريج بما يساورني وما أظن ان مَلَكْ جاءت بيروت من أجله. فعمم الامر على المسؤولين وعلى جهات أخرى. . . اذكر ان

الشاعر محمد يوسف حمود وسعيد تقي الدين كتبا كل بدوره عن اتصال مَلَكْ بهما، ما خلاصته:

«جاءتنا صبية دمشقية تفاوضنا على اخراج إسرانا من سجن المزة العسكري، مقابل ان نسلمها معلومات تؤدي الى فلان وفلان وفلان... من رفقائنا. اجبناها، ونحن نعرف جيدا من أرسلها الينا، باننا حريصون على الدفع بمئات بل بألوف من هؤلاء الى السجن لأنهم بوجودهم هناك يحققون وقفة العز التي تعني وجودنا»...

★★★

لم تكن مَلَكْ المرأة الاولى في حياة عبدالحميد السراج، وان كانت الاخيرة...
فهو لما كان عزبا، يحرس مداخل «بحسيتا» حلب وقع في غرام بنت من بنات الهوى، فعشقها وعشقته. اعطته جسدها ومالها، فكان يتقي به من العوز، وهو الدركي البسيط الآتي من محيط معدم.

ولما علا في الرتبة والراتب واصبح من أرباب العزم في الدولة، نقلها من «بحسيتا» الى شقة متواضعة في زقاق صغير متفرع عن شارع الفداء بمنطقة الصالحية في دمشق بينما سكن هو في عين «الكرش»!

كان يتردد عليها، يصرف الليل عندها... مرات يأتيها وحيدا، ومرات يصحب معه بعض الضباط المقربين اليه.

بقي على هذه الحال معها حتى بعد زواجه. لكنه مع الايام وجد انها باتت عبئا، شيئا من الماضي الذي يريد ان ينساه، فأسدل الحجب عليه صونا لسمعة وعلو مركز. وخاف، هي التي تعلمت صنعة السوق منذ كانت في «بحسيتا»، ان تقبل على الوشاة، تميل معهم وتسر في آذانهم بما كان من أمره معها...

ذات صباح من عام ١٩٥٩، على ضفة نهر بانياس المتفرع من بردى، وجد المارة جثة امرأة حنّى الدم وجهها وانساب على شعرها الاسود الذي تطل منه شعيرات بيض، مشى الذبول والكبر الى جمالها.

... وقتها كان عبدالحميد السراج ينوب عن الرئيس جمال عبدالناصر في رئاسة الجمهورية.

بعد أحداث دمشق ومقتل عدنان المالكي بأيام جاءني همس ان عندنا هماً مستجداً وينبغي ان نتدبره.
غسان جديد صار في لبنان والواجب هو ان نتدبر مسكنه وحمايته ومعيشته.

تعرّفت عليه وشلّتنا كلها معين حمود وجوزف طويل ونقولا نيّار ورياض ابي فاضل وغيرنا فأحببناه وأحبّنا.

البيت تدبره في برج ابي حيدر بقرب بيت واصف البارودي، ثم تدبرت بيوت كثيرة كاحتياط أمني فلا ينام غسان اكثر من يوم يومين في البيت الواحد. الحراسة أخذت جدلا لأن وجودها العلني والمسرحي قد يضر اكثر من عدمها. لا بد من التسلح ومن مرافقة مسلحة وأمنية، ولكن الحذر وعدم اتباع روتين دائم ظاهر هو الحماية الافعل. اذن لا مخافر ولا همروجة مراقبين ولا سلحللك. وتحول اسمه الى جورج خوري مع الهوية وكل اللوازم. ولم يعط سيارة واضحة واحدة ولم يترك لوحده. وتسلم عمدة الدفاع في الحزب علناً بعد أن كان يتسلمها سرا في دمشق. وتولى معين حمود وظيفة ناظر التدريب في منفذية بيروتوطحش الشباب الى العمل، وتحول الحزب، كما في الفترات الزاهرة من مسيرته، الى ورشة نشيطة والى قفران متماسكة في لبنان والشام برغم زج الالوف من الرفقاء في سجون سورية. وانتقل المركز الناجي من الاسر الى لبنان وحصل الانشقاق الاول الاكبر ما بين جورج عبدالمسيح وخصومه حول المسؤولية في اغتيال عدنان المالكي وما تلاه من تدمير وتخريب في الحزب. كان هذا الانشقاق ضربا معنوية اولا ومادية بشرية ثانيا وقدوة سيئة جدا لتعطيل اللعبة الدستورية وافساد المؤسسات واخضاع النصوص لهوى النفوس ولغاية بعيدة وخفية.

خرج معين حمود من الجيش وعمل مع فوزي غندور في وكالة سفر وسياحة بمكتب في شارع بشارة الخوري قريب من صيدلية ابي عجرم. وبرغم المنع البدهي والجرم بحقه لانه تسرح تأديبيا فقد ظلت علاقتي به كما كانت وأقوى. وصرت اتردد الى مكتبه ونتردد معا الى مشغل نقولا نيّار في روف من بناية في شارع الشيخ بشارة ايضا والى مكتب جوزف الطويل للتجارة في العازارية. التجمع الحقيقي في المشغل، ثم ندلف الى قناطر زينون. وما قناطر زينون ؟ هي بيت يخص جوزف الطويل واهله في ساحل برج البراجنة، على البحر، وكان البيت الأوحد على طول الساحل منذ الروشة وحتى خلدة. «في مطلع الخمسينيات». وقد اصبح اليوم مطعم السمكة. في هذا البيت ذي القناطر المطل على البحر والذي يغسل الموج اعتابه أمضينا عمرا جميلا عازبا من أجمل مراحل العمر. في هذا البيت سوف يخطف غسان جديد ومشهور دندش وديب كردية ومعين حمود وجوزف الطويل ورفقاء معهم ضباطا من المخابرات السورية مكلفين باغتيال غسان أو باعتقاله سرا الى دمشق. خطفوهم أياما ثم سلمتهم الشعبة الثانية اللبنانية الى زميلتها السورية وتقطعت المشكلة.

الفصل الثالث

نفط نجيب منهل



- ١ -

يجن الليل. يظل نزل «أوغاريت» في ساحة الدباس في بيروت، سهراناً. اللمبة الكهربائية اليتيمة المتدلية من شريط في السقف، كانت تفرض وجودها على الردهة الصغيرة. ضوؤها المتثائب يتراقص فيه دخان السجائر، التي يشعلها الساهرون يمتصونها ثم يعصرونها في صحن الدخان المتخم بشتى أنواع أعقاب السجائر الوطنية والاجنبية.

فلقد كان نزل «أوغاريت» ، يتحول الى منتدى يلتقي فيه الذين أفلتوا من بطش عبدالحميد السراج ، والى عنوان يقصده كل آتٍ الى بيروت، يفرغ في آذاننا أخبار الشارع الدمشقي الذي أرعبوه بالقتل والقمع والارهاب. والجيش الذي ركبوه مطية لتحكمهم. ومجلس النواب الذي أخرسوه. ومجلس الوزراء،الذي أسلسوه والقصر الجمهوري الذي احتبسوه.

كانت أخبار المداهمات والاعتقالات في حارم وطرطوس وحمص وحماه ، والاغتيالات في دير الزور [كان من ضحاياها الشاعر محمد أمين جمعة الذي طعن بخنجر في وضح النهار] والخطف من قارعة الطريق [كما حدث للضابط عبدالله اليازجي] وحملات التشهير الجائرة التي قادها الوزير البعثي الاشتراكي وهيب الغانم، بتخطيط من أكرم الحوراني وخالد بكداش [وهما كانا أيضا وراء الحملة الشنيعة على النائب حنا كسواني، الذي سحبت الحصانة النيابية منه ففضح تآمرهما في بيان مشهور وزعه في دمشق في الثالث من حزيران (يونيو) ١٩٥٩ وطالب فيه باسقاط حكومة صبري العسلي المتآمرة]. . . كانت كل هذه الاخبار تصلنا تباعاً، تنزل فينا مثل الصبر السقطري ، فتؤجج الغضب المعتمر في صدورنا، وتكشف مرة بعد مرة، كم كانت المؤامرة، التي حيكت اولى خيوطها مع مقتل عدنان المالكي في الثاني والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ ، كبيرة وكيف باتت تستهدف قلب الاوضاع في المنطقة بأسرها. . .

بيروت، وقتها، كانت تهتز حنقا. أفق دمشق المعبأ بالسواد والحقد، كان يطل منه لسان لسع الرئيس كميل شمعون ، فذهب في جريرة القوميين. مرّغ المأجورون رؤوس أقلامهم بالكذب الاسود، وكتبوا في الصحف المأجورة كلاماً لاذعاً متجنياً، وتغرغر المذيعون في دمشق والقاهرة، ضمن حملة منظمة ومركزة، بكلام هاجموا فيه شمعون ، منكلين به وبحكومته. اتهموه بأنه «يحمي القوميين». وان الذين افلتوا من عبدالحميد السراج، اختبأوا في مزرعة عادل حمدان قرب صيدا، فيجتمع كميل شمعون بهم تحت جنح الظلام، يعد معهم مؤامرة للانقضاض على الحكم في الشام!

فكان رد كميل شمعون، بأن تغاضى «بعض الشيء» عن الهاربين من دمشق وأظهر، نكاية بجمال عبدالناصر وبعبدالحميد السراج وليس أبداً حباً بأنطون سعاده بعض «الود» للقوميين، فما تعرض لنشاطهم وما منع صحفهم من هتك ستر ما يدور في دمشق.

ومُهمّ القول، كي تنتصف الموازين، انه لولا غباوة عبدالحميد السراج، وسذاجة محمود رياض في التعاطي مع رجل مثل شمعون، لكان الرئيس اللبناني الراحل ، وهو الميكيافيلي الطبع والتصرف، قد سلّم المطلوبين الى دمشق. . . فلقد كان يكره الحزب القومي ولا يثق بالقوميين. . . كما كانوا هم أيضاً لا يثقون به.

اذكر، وكنت لمّا أزل في دمشق، أن رئيس الحكومة السورية صبري العسلي ، علق في وقت متأخر من ليل الثالث من حزيران (يونيو) ١٩٥٥ ، على زيارة فؤاد عمون [مدير عام وزارة الخارجية اللبنانية] الى دمشق فقال:

«لقد أعلمت السيد عمون بان وحدة المصالح فيما بيننا وبين الجار الشقيق لبنان، تدعو دوماً لأن نكون حريصين على كرامة لبنان وكرامة رئيسه الاول السيد كميل شمعون، الذي يكن له السوريون جميعاً شعباً وحكومة الاحترام والاكبار، وسنتخذ جميع الاجراءات التي من شأنها ان تقف دون أي مساس بهذه الكرامة الغالية. هذا وقد قرر مجلس الوزراء ايفاد شخصية كبيرة للاعتذار من فخامة الرئيس شمعون».

وبدل «الشخصية الكبيرة»، ارسل عبدالحميد السراج الى بيروت منشورا من سبع صفحات بتوقيع يوسف الصيداوي [وهو توقيع مغفل بالطبع] يحمل تهجماً على شمعون وعلى الشخصيات السياسية اللبنانية التي وقفت من حوادث القتل والارهاب في دمشق مواقف نزيهة.



كانت تربطني بنزل «أوغاريت» حاجة واهية تعيدني اليه كل ليلة لآكل فيه و. . .

أنام. أو اشترك في استقبال من وفد الينا من الشام.

ضاق بي العيش في بيروت، انفق مما كان يحمله الى وافد مر ببيتنا، وهو بالكاد يسد ايجار الغرفة الصغيرة في النزل. كان الشوق يعتصرني لابنتي الطفلة ولعائلتي ووالديّ.

ظهر الثلاثاء الثالث عشر من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٥ حملت الينا أخبار دمشق صدور احكام المحكمة العسكرية التي برأت في قرار تلاه رئيسها بدر الدين علوش، الحزب من تهمة قتل عدنان المالكي ومن تهمة التعامل مع جهات أجنبية. لكنها حكمت بالاعدام غيابياً على جورج عبدالمسيح واسكندر شاوي وغسان جديد وسامي الخوري وعبدالله محسن. وبالسجن ٢٢ عاما على قرينة سعاده جوليات المير وعصام المحايري و١٥ سنة على المجلس القيادي في الحزب.

ظننت أن صدور الاحكام قد يخفف بعض الشيء من التعقبات والمطاردات فبدأت التفكير بالرجوع الى... دمشق.

- ٢ -

تجافى جنبي عن السرير ليلتها.

تعلقت نظراتي في سقف الغرفة. مساحة بيضاء كان يمر عليها شريط صور وخواطر مختلطة في رأسي: لم أعد أطيق البعاد وذل الانتظار والجوع والتشرد، فكيف اتدبر أمري؟ ترى... ما الذي ينتظرني متى عدت؟...

طال الليل. كنت أحسب كل ساعة فيه دهرا، حاولت أن أزيح من مخيلتي كل تلك الافكار، فأقحمت عيني في كتاب تاريخي قديم عن الحضارة السومرية، كان مقررا في برنامج السنة الاخيرة لنيل اجازة التاريخ في الجامعة الاميركانية في بيروت عام ١٩٥٢. ومع انني قرأت الكتاب مرات عديدة، حتى كدت احفظه عن ظهر قلب، الا ان الاسطر تلك الليلة كانت تركض أمامي فيعصى عليّ فهمها. ازداد ارتباكي. رميت الكتاب، وعدت الى نافذةالغرفة، انقل عيني في زوايا الشارع. ثم ازهق من المشهد الرتيب، فاعود أرمي بجسدي المتعب على السرير.

ما صدّقت ان الشمس نقرت بأشعتها البليدة المتكاسلة زجاج الغرفة، حتى انتصبت، ألقم الحقيبة الجلدية ملابسي. رميت نظرة عجلى على الغرفة، التي كانت تضم حريتي، والملجأ الذي وقاني من جلادي السراج، أحسست بمزيج من الحزن والفرح. اقفلت الباب خلفي على ذكريات أشهر ستة، واستسلمت للشارع.

بيروت، تستعد للميلاد والرأس السنة باكراً، فهي منذ ان يدخل الزمن بها شهر كانون الاول (ديسمبر)، تبدأ تتزيّن بالاجراس وشجر الميلاد، وكل ما كان يأتي به ويستورده تجارها من اوروبة.

الثالث والعشرون من كانون الاول (ديسمبر) ١٩٥٥. الميلاد يقترب. ومعه تصبح بيروت لا تطاق بزحمة الناس. كانت ضلوع الشوارع قد يبست من البرد، رذاذالمطر، يغسلها. رفعت ياقة معطفي واتجهت أقضم المسافات الى حيث كان مكتب «شركة» العلمين العاملة بين بيروت ودمشق. استولت علي رعشة برد رفيقة وانا انتظر دوري، دسست يدي في جيبة سترتي الداخلية أتحسس بطاقة الهوية، خفت ان أكون أضعتها. ارتحت لما مسكتها بأصابعي. انتشلني صوت المسؤول عن المرآب:

ـ يا استاذ . . . يا افندي تفضل على السيارة. . .

كان معي في السيارة ثلاثة طلاب من الجامعة الاميركانية، عائدون الى ذويهم في دمشق لتمضية عطلة الميلاد ورأس السنة. فخطر لي ان أتجاذب مع الجالس منهم الى جانبي اطراف الحديث، واصطنع أنني أخفف عنه حمل الكتب الكثيرة، بأن وضعت بعضها على ركبتي، وفتحت على عجل كتاباً في علم السياسة بدأت أقرأ فيه عن تاريخ النظم الديمقراطية في العالم. وكان في روعي انه اذا ما اوقفنا على مخفر الجديدة السوري يظنني الخفير طالباً اسوة بالثلاثة الآخرين.

اجتزنا مخفر المصنع اللبناني بهدوء وسلام، الى مخفر الجديدة السوري. رميت نظرة، فاذا برجال الاستخبارات والامن العام والجمارك في حركة غير عادية. أطل عنصر مدني وآخر جمركي، نقّل نظره على وجوهنا، توقف على الكتب فوق ركبتي:

ـ تلاميذ. . . أخي.

رددنا نحن الاربعة بصوت واحد:

- إي. . . نعم تلاميذ.

شعرت بالعيون المستغربة تتجمع في وجهي. . . ضحكت. ضحكوا. لم يسألنا بعدها العسكري عن هوياتنا. أومأ للسائق بالمرور. تنفست الصعداء. ارخيت رأسي على زجاج شباك السيارة و. . . ونمت.

من مخفر الجديدة حتى شارع السنجقدار، القريب من سوق الحميدية، كنت أشعر بأن التلاميذ الثلاثة يرتابون بي. سمعت وأنا مغمض العينين همسا بينهم متقطعا ورطنا بالانكليزية. ضحكت في سري. . . واصطنعت تجاهلهم.

كان الليل قد سجى ودمشق بدأت تأوي الى فراشها. فما عادت تسهر كعادتها

حتى مطلع الفجر. وقفت في زاوية شارع السنجقدار، اترقب مرور سيارة أجرة. طال انتظاري، وبدأ الذعر يتمسك بمفاصلي لحظات . . . تكمشت دواليب سيارة بالارض أمامي. تراجعت الى الوراء. ثم اقتربت على مهل من السائق. تمليته جيدا . . . ثم أعطيته عنوان بيتي في شارع عبدالرحمن الشهبندر.

ـ ٣ ـ

ـ اتصلت به صباحاً الى النزل . . . فقالوا لي انه غادر الى دمشق . . .

□ مجنون . . . مجنون . . . مجنون .

ـ تأخر علينا موهيك؟

□ يمكن عثروا عليه على الحدود. اسمه لا يزال على لوائح المطلوبين .

ـ لا نستطيع الاتصال بأحد قبل التأكد من انه إعتقل فعلاً . . .

□ يا تعتيري . . يا تعتيري . . . كمشوه .

وحدها خالتي راسمة قرينة الصحافي والسياسي ونائب دمشق الاسبق الراحل نجيب الريس، كانت اكثرهن رباطة جأش. تركت زوجتي ووالدتي وشقيقاتي. يندبن، وبقيت صامتة. عين على الساعة وأخرى على الباب .

نقرت على الباب الخلفي، [الذي كنت هربت منه قبل ستة أشهر]، على مهل ثم فتحته. فأحطن بي. دموعهن على وجناتهن . . . لقد انتابهن شعور ممزوج بالفرح والخوف، بعودتي والخوف منها . . .

خالتي، اشارت اليّ بالبقاء بالمنزل، حتى «نسعى لحلحلة أمورك». قالت وذهب تفكيرها الى نسيب العائلة الراحل عبدالكريم الدباح الدندشي [توفي في بيروت من أعـوام سبعـة] ،اتذكره ـ عامئذ ـ في السلك الدبلوماسي، لمّا عين ملحقا سياسيا مرة في البرازيل ومرة في الارجنتين، قبل ان استدعته الخارجية السورية الى الادارة المركزية . فطلبت منه الحضور الى منزلها في شارع نجيب الريس في منطقة ابو رمانة، وسألته بما له من صلات ان يوفر لي حرية الاقامة والعمل والتجوال.

حول عبدالكريم الدندشي ، حيكت اتهامات كثيرة، منها ان القوميين الاجتماعيين في البرازيل والارجنتين، قد حمّلوه مالاً الى عائلات الأسرى في سجون السراج في دمشق. ولكن هذه الاموال لم تصل، وكان عذر الدندشي في ذلك، انها «طارت» ، وهو على ظهر الباخرة التي نقلته من مرفأ جنوا في ايطالية الى مرفأ بيروت!

صباح الثامن والعشرين من كانـون الاول (ديسمبر) ١٩٥٥ مرّ عبدالكريم الدندشي. واصطحبني بسيارته الى الاركان العامة.

شعرت وأنا أدخل للمرة الاولى عرين عبدالحميد السراج، بانقباض. غشاوة بنفسجية مرت على عيني وأنا أمشي خلف عبدالكريم الدندشي، يقرأ على أبواب المكاتب أسماء الضباط. . . حتى وصلنا الى آخر الممر. توقف أمام باب دق عليه برفق. سمعنا صوتا رخيما. دخلنا. فاذا بي أمام النقيب راشد قطيني، الذي كان قد خطفه القوميون في بيروت [كما مر معنا].

انتصب بقامته المديدة. عريض الكتفين والصدر. ممتلىء الجسم. عينان زئبقيتان توحيان بالذكاء، تدوران في وجه منبسط القسمات، ينقلهما بسرعة في أرجاء المكان. متحفز. متنبه. هادىء النبرات. يتغير صوته تبعاً لتغير الحديث والموقف.

ضغط على يدي. تملاني بسرعة. قطع على عبدالكريم الدندشي توسعه في الكلام. فقلب بطرف اصابعه اوراقا كثيرة كانت في ملف امامه. وبدأ يخاطبني بصيغة الجمع، ولست أدري ان كانت احتراما لي ام تقريعاً، وأغلب الظن انها كانت من النوع الاخير:

ـ أهلاً. . . أهلاً. . . متى عدتم من بيروت.

أجبته: من حوالي أسبوع.

ـ أي طريق سلكتم. . . .

قلت بجدية: الطريق العادي المصنع ـ الجديدة.

مرت في عينيه نظرةُ هزء واستخفاف:

ـ إذن. . . هذه المرة لم تتسلقوا جبل الشيخ عائدين الينا، كما فعلتم يوم هربتم من دمشق؟

بادلته نظرة الاستخفاف بمثلها وقلت مبتسماً نصف ابتسامة:

ـ لم نحتج. . .

ثم أصلحت التعبير المتهكم:

ـ لم أحتج هذه المرة لا للشيخ ولا للجبل.

قطب. صمت هنيهة. قلب الملف الذي تضمن معلومات عني وعن هروبي. . . حملها أحد كتبة التقارير الى الاستخبارات.

غيّر لهجته ونبرات صوته وعاد الى صيغة المفرد:

ـ علمت انك رب عائلة. فانصرف اليها. مالك وللسياسة، إترك لغيرك ان يعمل فيها.

ثم علت نبرة صوته المغلفة بالتهديد والوعيد:

ـ نحن يا استاذ. . . سنراقبك. فان تحركت يمنة أو يسرة بشكل لا يعجبنا،

استضفناك في «المزة» وساعتها ذنبك على جنبك.

جمع أوراق الملف. ألقمه درج مكتبه. وقف منهيا المقابلة. انسحبت وحيداً، بينما بقي عبدالكريم الدندشي جالسا على كرسيه، لعلهما كانا سيناقشان مهمة ذات شأن! فلقد قيل الكثير عن صلات الدندشي بجهاز عبدالحميد السراج، الى أن أزفت ساعته، فاذا بيوم [أظنه كان في أواخر عام ١٩٥٩] تزورنا فيه زوجته اميمة ومعها بناته غزوة وسحر وابنه محمد، طالبين من زوجتي ومني تسديد دين عبدالكريم عليّ. فلقد زاره زوار الفجر. اقتاده سامي جمعة [ابو سمير] الى المعتقل الرهيب.

ـ ٤ ـ

لم تكن الكتابة عالماً غريباً عني، فوالدي المهندس الزراعي الراحل وصفي زكريا ترك للمكتبة العربية مؤلفات عدة في العلم الذي وهب حياته له كما في التاريخ وعلم الاجتماع والآثار والزراعة، . لقد دخل بيتنا أدباء وسياسيون ومفكرون، كان لهم شأوهم في هاتيك الايام. لكن الصحافة كانت مجالاً لم أختبره ما لبث بعدما تسلمت من خالتي راسمة الـريس ادارة جريدة «القبس» ان أصبحت قضيتي، ومهنتي،كما صارت الصحافة حرفتي ومهنتي وغرامي وحبي!

ذات صباح سعى اليّ وانا في مكتبي في «القبس»، المغترب الاميركاني السوري الاصل [جيم] نجيب منهل، يطلب مني الانضمام الى مؤسسته، فهو كان عاد الى بلاده للتنقيب عن النفط. فاعتذرت لضيق وقتي وانشغالي المهني على مدار الساعة، لكنه أصر، بل توسط زوجتي التي كانت تربطها بزوجته هند صلاح خانكان صداقة حميمة، بأن أساعده كمستشار صحافي.

ومـا كنت أعرف ان عبدالحميد السراج [الذي لم يكن وقتها قد صار عديلي] يحاصر هذا الرجل بالريبة والشك والحقد فيندفع الى تحطيمه والقضاء على مؤسسته ويعرقل استثمار النفط في سورية ٣٥ عاماً.

كان نجيب منهـل قد تجاوز السبعـين من عمره. الروعة لم تسحب منه جميع أذيالها. وقور في حديثه. رصين. تشرّب الطبع الاميركاني في حدته الصريحة، فكان يجاهر بها غير هيّاب بردود فعل محدثيه حيالها. كان كريما، معطاء وهو القادر. . . على أن أهم تلك الخصال انه كان صادقا في قصده تحويل ملايينه الى وطنه الام لاستخراج النفط من أرضه، فيستقوي به ليتسلح ويتذخر لمحاربة «اسرائيل» . فالرجل الذي يملك الملايين من آبار نفطه في تكساس، ما كان له ان يتكبد كل هذا العناء والجهد والانفاق الهائل من أجل سعي وراء قضية خاصة. ومع ذلك. . .

عانى الامـرين منذ ان بدأ يسعى للحصول على رخصة تنقيب واستثمار للذهب الاسـود الـواثق من استخراجه من منطقة حفريـات حقل «قرتشوك» الواقع في أقصى الشمال الشرقي السوري القريب من نهر دجلة.

كان وزير الاشغال العامة والمواصلات في حكومة صبري العسلي، عامئذ، النائب عبدالباقي نظام الدين شقيق النائب زكي واللواء توفيق نظام الدين ذو الخبرة القليلة لذلك وجد في نجيب منهل مجالاً خصباً للمماطلة والمماحكة، فأخذ بالتورية والممانعة وانتحال الاعذار وشدد في الهجوم عليه كلما حاول المغترب العائد الى وطنه الحصول على رخصة لاستثمار النفط اذا تفجر النفط!

قضى نجيب منهـل الاشهر الطويلة، يدور من دائرة الى دائرة، يتهالك عليه المنتفعون ويحوم حوله الوسطاء كل يعرض عليه خدماته. وكل يضع في جيبه ما قسم له... ويعطي لمنهل ظهره ويمشي...

تراخى على مقعد وثير في منزلي. انتابت نبرات صوته اعياء وهو يقول لي بلكنة عربية مكسرة:

- هل سمعت بضابط في الجيش اسمه عبدالحميد السراج؟

أطفأت السيكارة في صحن الدخان. ورميته بنظرة ارتياب:

- نعم... اسمع بالضابط عبدالحميد السراج...

انفرجت أساريره. تولاني غضب مقيم فقلت له بنبرة حادة:

- مالك وله... لماذا تسأل عنه؟

سوّى من جلسته وتكلف الجدية في الكلام:

- قيل لي اليوم... انني اذا توصلت الى عبدالحميد السراج حصلت على رخصة الاستثمار...

رفعت حاجبي دهشة:

- لكنه ضابط استخبارات و...

وكدت ألحق بهذه الكلمة اشنع النعوت، فتمالكت نفسي وتابعت بهدوء:

- يا نجيب.. ما دخل ضابط استخبارات مثل السراج بالنفط والتنقيب عنه؟

ضحك نجيب منهل كأنه لمح في وجهي غباوة وقال:

ألا تعرف ما لضباط الاستخبارات من نفوذ في الدوائر السياسية الحاكمة... «نَدنا» في الولايات المتحدة لا البيت الابيض ولا وزارة الخارجية يحكمانها. الذي يحكم هو جهاز C.I.A عبر عناصره في البيت الابيض، ووزارة الخارجية...

وانتشى كأنه كسب جولة الحديث. أطلق في المكان ضحكة عالية فرآنى مطرق

السمع مندهشا لكلامه ، فتابع :

ـ ان هذا الضابط الذي اسمه عبدالحميد السراج ، يستطيع بهاتف بسيط للوزير عبدالباقي نظام الدين ان «يأمره» باعطائي رخصة الاستثمار، فاذا مانع ضغط عليه بوساطة رئيس البلاد هاشم الاتاسي ورئيس الحكومة صبري العسلي. . . وإلا.

ـ وإلا ماذا؟

ـ وإلا يختفي في هجيع الليل، أو يُقال من الوزارة في وضح النهار!

سألتني زوجتي بعد ذهابه عن سبب تجهم وجهي ، وكانت شقيقتها مَلَكْ قد زارتنا . فأخبرتها ما كان من أمر نجيب منهل وما قاله لي عن عبدالحميد السراج اذكر ان مَلَكْ كانت مطرقة الى الحديث بانتباه ، وقد لمع في عينيها بريق غريب، لم أعره اي اهتمام.

في اليوم التالي، جاءت مَلَكْ الى مكتبي في «القبس» على غير عادة منها. سألتني عن مدى علاقتي وثقتي بنجيب منهل ، فأجبتها انه وزوجته ـ كما تعلمين ـ صديقين حميمين لي ولزوجتي، اضافة الى انني اثق به لدرجة انني أعطيه جهدي الصحافي في ترتيب حملات اعلامية لمؤسسته، واتبعت كلامي بالسؤال :

ـ لماذا اهتمامك بالامر؟

قالت: أستطيع تدبير الرخصة.

ـ كيف؟ . سألتها هازئا.

فقالت بنبرة حادة: هذا شغلي مقابل مليون ليرة سورية!

ـ ٥ ـ

كان غسان الالشي بين شلة من أربعة، [يعرفهم الدمشقيون بالظرفاء] أظرفهم واكثرهم دالة على من تبقى من أصحاب العزم في الدولة. . . فهو النجل الثاني لرئيس وزراء سورية الاسبق جميل الالشي الذي حكم مع الرئيس تاج الدين الحسني في ظل الانتداب الفرنسي.

كان بديناً، قصير القامة يمشي متهدلاً من فرط السمنة. يعاقر الخمر حتى تضجر منه، وما مد مرة يده الى كأس وراء ستار من التصون والتخفي، بل لعله استباح لنفسه في سبيلها كل الاماكن والمناسبات. . . التقيته مرارا في منزل صهري تاج الدين الخياط زوج اختي نجوى الراحلة. . . فتوطدت صداقتنا، على انني كنت أحاذره ، فقد حامت فوق رأسه شبهات كثيرة حول علاقة له بعبد الحميد السراج. واذا بالامر كان لا يتعدى الشبهات والاشاعات، الا انه في حبه للظهور بمظهرالقادر

على حل الامور لدى الضباط اصحاب العزم، والتحدث امام الناس باسمائهم، ما كان يؤكد تلك الشبهات والاشاعات، ولا كان ينفيها!

جاءني غسان الالشي الى «القبس» ذات صباح من صباحات آذار (مارس) ١٩٥٦ وعلى وجهه الدقيق الملامح ما شعرت انه يريد مفاتحتي به.

ما كدت اجيبه عن سؤاله عن حالي، [وفي اعتقادي انني اتحدث الى «الصديق» لا الى «المخبر» في غسان الالشي]، بالقول انني اشعر بالضيق، تحاصرني العيون المسنونة، تترصدني، تحصي علي تحركاتي، كيفما امضي واينما حللت... حتى انتفض من مقعده. وكمن كان يخاف ان يكون خلف باب المكتب من يحشر اذنيه فيه ليتنصت علينا، اخذني بيدي وقال: «تعال نكمل الحديث خارج هذا المكتب».

وأشار الي ونحن ننزل الى الشارع بان نركب سيارته «الفولكسفاغن» الطحينية اللون. فانصعت ولم أكن اعرف ما كان يدبره لي...

أغلقت باب السيارة وأدار المحرك. انطلق على طريق بيروت الموازي لنهر بردى. كان يكثر من التطلع في المرآة الصغيرة، ثم في المرآة الجانبية، كأنه كان يريد ان يوحي الي بأن هناك من يلاحقنا. مسح فمه باصابعه وقال بجدية:

- ما سمعته منك في المكتب يدل على انك لست سعيداً بالبقاء في دمشق... فلماذا لا تعود الى بيروت؟

اجبته باستخفاف: «عال.. ماذا تقترح يا استاذ؟»...

نشر على وجهه علامات الحذر، ورمقني، بعيني ذئب يتحين سنوح الفرص للانقضاض على فريسته وقال بتمهل:

- بيني وبينك... العيون محمرة عليك في الاركان العامة. وهذه المرة لن تسلم... لكني بحكم صداقتي لك ولصهرك وشقيقتك تدبرت الامر وسعيت جهدي لكي أحصل لك على اجازة تستطيع بها ان تعبر الحدود عائدا الى بيروت.

مد يده الى جيب سترته الداخلية، واخرج منها ورقة ظلت في يده وتابع:

- بهذه الورقة تأمن جانب الاستخبارات وترتاح من الذين يحصون عليك انفاسك وينتظرون الفرص لالقاء القبض عليك ورميك في المزة طعماً للجلادين.

غلفني كلامه بغشاوة سوداء، فما عدت ابصرت.. وتصارعت الافكار في رأسي: هل بدل راشد قطيني موقفه مني وعاد يطلبني الى التحقيق؟

كانت السيارة قد تجاوزت ساحة الامويين، ورحنا نمر في طريق شارع كيوان قبل ان نصل الى مفترق يذهب بنا مباشرة الى بيروت أو ندور يسارا لنتسلق هضبة تصل بنا في النهاية الى سجن المزة العسكري.

عند ذلك المفترق، خنق غسان الالشي صوت المحرك. استدار وتملاني برهة. بدأ يرجوني ان آخذ كلامه على محمل الجد، فاغادر دمشق الى بيروت. عرض علي ان يوصلني بسيارته الى الحدود، والا فسيضطر الى الصعود بي تلك الهضبة الى بوابات سجن المزة الرهيب.

تجمع غضب الدنيا في عيني، وانتفضت صائحا به:

- خذني الى حيث شئت. اني لن أغادر دمشق ولن أترك عملي.

وانهلت على الاستخبارات والضباط بالنعوت والشتائم. تركني اخرج ما فاض بي، وقد ذهله انفعالي، فقال وقد تغيرت ملامح وجهه من ذئب شرس الى حمل وديع:

- ما أشد غباوتك. خفف انفعالك. سأعود الى الاركان العامة. سأتحمل وزر تدبير الامور. كل شيء بعد أيام سيكون على ما يرام.

لم أعرف كيف صعدت درجات سلم بناية صحيفة «القبس» في شارع بور سعيد. بقيت ساعات في مكتبي، انتفض قهرا ومذلة واشمئزازا. كان اول ما فعلته ان اتصلت بخالتي راسمة الريس. اخبرتها بما حدث بايجاز ليقيني بأن خطوط هاتفي مراقبة [وقد عرفت فيما بعد ان كل مكالماتي كانت مسجلة... فلم يكن راشد قطيني يكذب عندما قال لي سنراقبك] فطلبت مني أن أمضي اليها في نهاية النهار.

مرت بي ساعات النهار، بطيئة، بقيت في حيرة من امري، كيف اكشف حقيقة ما قاله لي غسان الالشي، هل فعلا العيون محمرة عليّ...؟ فقررت ان اعرف الحقيقة من مصدرها. لمعت في خاطري فكرة استدراج مَلَكْ، التي كانت تصلني اشاعات تؤكد ريبتي وشكي بعلاقتها بعبدالحميد السراج، على الرغم من تمنعها ونكرانها الامر لي لما جاءت مع شقيقتها [زوجتي] تزورني في بيروت...

★★★

رحت أروي لهم ما حدث. كانوا يَصْغون الى كلامي وفي وجوههم تدور عيون مستغربة، مستفسرة، حائرة... والدي. والدتي. زوجتي. شقيقاتي.صهري تاج الدين الخياط وولديه زياد وصفوان...

كنت وأنا اروي لهم ما دار بيني وبين غسان الالشي، اتمهل في حبك الخدعة، فاستبدلت عودتي المبكرة من درب كيوان، ومفترق سجن المزة، الى القول بانه اخذني الى مركز الشرطة العسكرية في حي البرامكة، واني دخلت الى غرفة كان فيها عبدالحميد السراج، واكرم الديري وبرهان قصاب حسن... فسألوني عن

نشاطاتي وأعمالي. هددوني اذا ما تحركت يمنة او يسرة أو مارست نشاطاً، بأكثر من المزة . . .

قلت كلامي هذا ، وتـركـت على وجـوههم علامات الذعر والخوف والقلق. وانتظرت ردة فعل زوجتي على كلامي المبالغ فيه ، فقامت بسرعة الى الهاتف في الغرفة المقابلة، سمعناها تتحدث الى شقيقتها، تدعوها الى الحضور بسرعة.

بعد نصف ساعة دخلت مَلَكْ علينا، وما كادت تسأل عن أسباب استدعائها ، حتى تولت خالتي شرح تفاصيل ما رويت، وختمت كلامها قائلة: «هذا السراج ليخاف الله ويترك الناس تعيش بهدوء وامان».

ومـا خاب ظني. خرجت مَلَكْ مسرعة، وكنت باستثناء زوجتي، الوحيد الذي يعرف الى أين كانت ذاهبة.

★★★

قبل ان يسكت صهري هدير محرك سيارته الـ «تاونس» الالمانية، في طريق عودتنا من بيت خالتي في تلك الليلة، لمحت على بعد خمسين مترا سيارة الفورد البرتقالية اللون [المصادرة من جورج عبدالمسيح، التي تحولت الى سيارة مفرزة سامي جمعة]، تقف امام البيت. توجست شرا. حاولت ان لا أبدي اي انفعال. وما ان توقفت سيارتنا حتى داهمتنا سيارة أخرى قاطعة الطريق علينا . نزل منها سامي جمعة واربعة من عناصره . احاطوا بالسيارة، بينها تقدم جمعة باتجاهي طالبا مني فتح النافذة:

ـ ماذا تريدون منا في هذا الوقت من الليل؟

وصله صوتي حانقا. ابتسم كأنه يريد ان يزيل توجسي وريبتي قائلاً بصوت خفيض:

ـ المقدم يريد ان يحكي معك كلمتين!

لا هو قال ولا أنا كنت بحاجة الى طويل شرح لأفهم ان المقدم الذي يعنيه كان عبدالحميد السراج.

همست زوجتي في أذني: لا تخف فكل شيء مرتب.

ـ ٦ ـ

تمهـل سامي جمعـة. استـدرت لأرى سبب تطلعه المستمر في المرآة الصغيرة، فوجدت ان سيارة اخرى تلحق بنا وفي مقعدها الامامي، كان صهري تاج الدين الخياط. وعلى ما يبدو كان «ابو سمير» لا يريد ان تضيعنا السيارة فسائقها لم يكن يعرف الى اين نتجه.

لم يحاول ان يكلمني. كنت اتفرس في وجهه وأردد في بالي: «هذا هو اذن سامي جمعة [أبو سمير] الذي يرعب الناس ويقض مضاجعهم بلا هوادة». أحسست بألم يعتصر معدتي. لكن رحلتنا لم تطل، فمن شارع عبدالرحمن الشهبندر الى شارع الروضة. . . رمية حجر. . .

بسرعة اتجه سامي جمعة بالسيارة الى احدى البنايات، ألصقها بالجدار ساداً الباب علي. طلب مني النزول منها من الطرف الايسر، دافعا بي الى اجتياز الشارع والدخول الى بناية طالما وصلتنا اخبارها الى بيروت، وقرأت عنها في «صدى لبنان» و«النهار»، و«الحياة» للشهرة التي لحقت بأقبيتها ولحفلات التعذيب الطويلة التي مورست خلف جدرانها.

نزل سامي جمعة امامي. فاذا بقبوين مفتوحين امامنا. مقعدان خشبيان في وسطهما، ومنضدة خشبية نخرها السوس في الزاوية. جلسنا [صهري وأنا] على المقعد الخشبي. بدأتُ اتفحص المكان بعيني: حيطان عارية، وسخة، كلحت من الرطوبة. يصطدم الضوء الشحيح المنبعث من لمبة كهربائية بخيوط العنكبوت. تختلط روائح دخان السجائر مع روائح الرطوبة النتنة.

كان السكون يهدم الاعصاب. دقائق الانتظار تمر ممضة. احسست بحبات عرق بارد ترصع جبيني، مسحتها بحركة عصبية. لحظات، سمعنا صراخا متقطعا، ساد بعده صمت بليد. فجلبة. دعسات متسارعة، واحد نزل مسرعا ودخل القبو الايسر. وآخر كان يحمل سوطا يضربه على جزمته وهو يصعد السلم. دقائق ودخل سامي جمعة علينا: «تفضلا» قال بنبرة هادئة.

لحقنا به الى القبو المقابل. كنت الاول في الدخول. صهري خلفي. فاذا بي وجها لوجه، أمام عبدالحميد السراج الرجل الذي كنت رأيته مرتين: مرة في مطعم مطار المزة ومرة ثانية في فندق اكسيلسيور في بيروت.

مد لي يده مصافحاً. جلسنا قبالته، بالكاد نسمع صوته وهو يعتذر لنا على اسلوب احضارنا. «فظروف عمله ضاغطة»! ثم نظر اليّ وقال:

ـ ما هي قصتك مع غسان الالشي؟

رويتها له، كما حدثت. ولم آت على ذكر مقابلتي له ولاكرم الديري ولبرهان قصاب حسن في ثكنة الشرطة العسكرية في البرامكة. واعتقد انه فهم عليّ لأنه رمقني بابتسامة خبيثة وقال: اذن لم تقابلني في أي مكان ؟

ـ لا. . . و. . .

لم يدعني اكمل. فكر برهات. قطب ثم صاح: أ با سمير جئني بغسان الالشي.

كان الالشي في ذلـك الحـين يحضر جلسة المحكمة العسكرية التي تحاكم من اتهمهم السراج بتدبير محاولة انقلابية على الدولة السورية، بينهم النواب الدكتور منير عجلاني ، الدكتور عدنان الاتاسي، هايل سرور ، فضل الله جربوع ، اضافة الى الـدكتـور عدنـان العـائـدي شقيق المهنـدس المعـروف عثمان العـائـدي والصحـافي الـراحل سامي كباره صاحب جريدة «النضال» ومجموعة من الضباط القوميين الاجتماعيين وبعض شيوخ العشائر وفعاليات سياسية واقتصادية في المدن السورية الكبرى.

كان غسان الالشي في ذلك اليوم في عداد الذين تقاطروا لحضور سيرك الرعب وسط قاعة الجامعة السورية ، التي حولها السراج واعوانه من معهد للعلم والثقافة الى تياترو للقمع والارهاب والكذب والتآمر.

انتزعوه من بين الحضور. «فالسلطان» امر. وأمر «السلطان الاحمر» لا يرد.

كان السراج يذرع الغرفة جيئة ورواحاً. لا يتكلم. ترمقه عيوننا بقلق. لم يمض بنا الوقت، حتى سمعنا، جلبة، اعقبها صراخ رجل يتلوى ألماً، تدحرج على الدرج وارتطم رأسه بالجدار فشقه وحنّى الدم وجهه. حملته العناصر وهو يترنح ودفعوه الى وسط الغرفة، فارتمى على ظهره. تقدم منه السراج وضغط بقساوة على بطنه مزمجرا:

ـ يا قواد سأربي فيك القمـل والصيبـان، تأخـذ النـاس من مكاتبهم وتطالبهم بالهروب الى لبنان أو الصعود الى المزة؟ .

بعدها رفع رجله عن بطن غسان الالشي وأخذ يركله بخاصرته!

بعـدهـا أمسـك بشعـره ورفعـه عن الارض، وأخـذ ينهـال عليه باللكمات والصفعات. فصار غسان الالشي يتلوى ويصرخ مستغيثا: ياابا حمدو [هكذا كان السراج يلقب قبـل ان رزق مولـوده البكـر فراس] انـا داخل عليك. . . داخل عليك. . . طول بالك عليّ. . . دخيلك. . . .

وكلما زاد في الاستغاثة ، كلما انهال عبدالحميد السراج صفعا وركلا مرددا: قل لي من يحميك؟من يعطيك الاوامر من دون علمي؟. . . .

كأن السراج يشير الى أطراف أخرى لها تأثير ولها نفوذ ولها عناصر. ؟ هشام العظم مثلاً الذي كان يرأس الشرطة العسكرية ، والالشي محسوب عليه!

كان العـرق يتصبب من السراج، والـرجل الذي كان يحدثنا بهدوء وبمنتهى التهذيب تحول الى ذئب شرس لا يشبع من فريسته. لم أعد احتمل، فانتصبت رافعاً صوتي بمواجهته:

ـ كفى. . . كفى. . فليس لي من حق عنده. . اما من يعطيه الاوامر ليرعب

الناس ويهددهم فهذا شأنك أنت. . حاسبه ولكن ليس امامنا .

هدأ السراج. مسح يده من الدم بمنديل. جلس دقائق صامتاً. ثم صاح بسامي جمعة ان يأخذ غسان الالشي الى المزة. ووقف يعتذر منا: «عودا الى منزلكما، لن يزعجكما احد بعد اليوم».

لما دخلت البيت كانت مَلَكْ تنتظرني. نشرت على وجهها ابتسامة المنتصر. ابتسمت بدوري، فلقد تكشفت امامي الحقيقة فبينها وبين السراج. . . معرفة.



عبدالحميد السراج ونجله فراس

الفصل الرابع

بلاط السلطان



- ١ -

ما كدت أضع الابرة على اسطوانة سيمفونية سيرغي بروكييف الاولى، حتى طلع عليّ صوت زوجتي تقطع اسياب الموسيقى عني:

ـ ان عريساً يريد خطوبة مَلَكْ ويرغب في زيارتك لطلب يدها رسميا.

ضحكت: لماذا انا؟ لماذا لا يذهب يطلبها من أبيك الآغا او من اخوتك وعددهم اكثر من عدد اصابع اليدين والرجلين؟ [كان الآغا علي زلفو مزواجا. تزوج من اربع ورزق من زيجاته ١٨ ولدا وبنتاً].

قالت بشيء من اللوعة: تعرف جيدا ان والدي يقاطعنا وشقيقي أحنف لا يريد ان يسمع بنا، ولم يبق غيرك في العائلة ليتعاطى مع الشكليات.

وافهمتني بأن مَلَكْ قد اتفقت مع الشاب على الزواج، وما تبقى هو «الشكليات» التي عنتها.

سألتها بتبرم: من هو العريس ؟

حدقت في وجهي مليا وأجابت بصوت خفيض: عبدالحميد السراج.

اجتاحتني موجة من الغضب. شعرت بحاجة الى الزعيق. تصلبت شرايين رقبتي. احسست بالاختناق. صرخت في وجهها: هذا السفاح معتقل الاحرار والحرائر يصبح عديلي؟.

أزحت يدها عن فمي وتابعت صراخي: «ابدا... لن استقبله، ولا أريد ان تكون لي اية علاقة بالامر.

تركتني أهدأ ثم قالت: انها اختي وستتزوج السراج بك أو بدونك فلا توسع الخرق بيننا، انها مجرد زيارة ليس الا، وبعدها نرتب الامور ضمن العائلة.

لَمْلَمْتُ بأصابعي دمعة غدرتها فسالت على خدها... وعرفت ان لا خيار لي في الامر. وان ما كنت اعتقده وثبت لي ان علاقة الصداقة، كانت اكثر من ذلك. فلقد ساكنت مَلَكْ «السلطان الاحمر» في شقته القريبة من شارع ٢٩ ايار في منطقة عين الكرش، بعدما كان انهى بزمن علاقته بناديا مومس «بحسيتا».

كانت ايام شهر ايار (مايو) عام ١٩٥٦ على خواتيمها ، لما اخبرتني زوجتي ، أن السراج آت لزيارتنا للقيام بـ «الشكليات». اتذكر ليلتها، انني كنت جالسا الى ديوان في غرفة الاستقبال واعصابي مشدودة. كنت أرمي نظري على الباب بعصبية. حاولت ان أتمالك نفسي، فما أستطعت. هزني جرس الباب. فرأيت خلف زجاجه رجلا طويل القامة يرتدي بزة عسكرية ، فانتصبت، اغلي غضبا ، ورفست «أبا جور» الغرفة بقدمي وقفزت الى الحديقة [التي تسلقت سورها قبل عشرة أشهر هاربا] واستسلمت الى الشارع، استنشق الهواء الربيعي، فلم أكن استطيع قبول ذلك الرجل في بيتي وحياتي.

ولأنه كان حقودا، لم ينس رفضي استقباله في تلك الليلة. ابقاني خارج دائرة التعاطي المباشر معه، فامضيت فترة نسابتي له حتى شهر نيسان (ابريل) ١٩٦٣ أراه نادرا، احدثه نادرا، والتقيه نادرا.

بعد يومين كنت في زيارة لصديقي الراحل زهير لحام، وكان يدير «مكتب اعلانات سورية» حين دخل علينا نقيب الصحافة السورية، في هاتيك الايام، وصاحب جريدة «الايام» الاستاذ الراحل نصوح بابيل. وجرّ بنا الحديث، فذكرت لهما خبر خطوبة عبد الحميد السراج، الذي كان رفع الى رتبة مقدم، لشقيقة زوجتي وانني ـ لا فخر ـ صرت عديلا لـ «السلطان الاحمر».

لم أدر ان نقيب الصحافة الراحل سيعتبر من ذاك الخبر سبقا صحافيا ، فيهرع الى مكاتب جريدته. يكتب الخبر وينشره في الصفحة الاولى. وكأنه ـ رحمه الله ـ يحرر فلسطين او يستعيد القدس!

في صباح اليوم التالي، كاد المقدم طلعت صدقي [مساعد السراج] يستدعي نقيب الصحافة الى التحقيق بناء على طلب من السراج. فلقد ساء «السلطان الاحمر» ان يُنْشَر خبر خطوبته، وهو كان يريده ان يبقى سرا. وساءه اكثر انني كنت الذي اعطى نصوح بابيل الخبر.

ومثلما خطب السراج تزوج، بعيدا عن اعين الناس واعمدة الصحف. عاش متكتما، ومارس بطشه متكتما، وهو الآن يقبع في القاهرة متكتما. . .

- ٢ -

ألحت عليّ ، فكلمته. وجدت نجيب منهل عند سماعه الكلام لا يمانع. فاصطحبني بسيارته «الكاديلاك» الزرقاء. يقودها سائق اسمه جوزف [فاتني اسم عائلته] الى «بنك سورية ولبنان» المواجه لمبنى سينما العباسية [اصبح حاليا البنك التجاري السوري فرع رقم ٦] تركني والسائق. دخل البنك وعاد بعد عشر دقائق وقد حشر

في جيبيّ سترته مظروفين متخمين باوراق نقدية. ما ان أغلق باب السيارة حتى طلب من جوزف التوجه الى منزلي، حيث كانت مَلَكْ تنتظرنا. سلمها المظروفين. تحادثا على انفراد. وَعَدَتْهُ خيرا. انصرف مبتسما. لحقت به عائدا الى «القبس»!

في اليوم التالي، فاجأتني زوجتي بأنها دعت عبدالحميد السراج وزوجته مَلَكْ الى العشاء. فأوقعتني بحرج.

لم يبدر من مَلَكْ طوال السهرة اي كلام يدل على ان زوجها على علم بالمال الذي طلبته من نجيب منهل مقابل حصوله على رخصة الاستثمار.

تُرى هل كان عبدالحميد السراج يجهل فعلاً ما كان من اتفاق بين زوجته ونجيب منهل؟

بقي عبـدالحميد السراج طوال الوقت مصغيا الى أحاديثنا . شارد الذهن. لم يخطر ببالي لحظة واحدة انه في صباح اليوم التالي كان يحضّر لحادث آخر سيهز سورية من جديد . كما انـه لم يتبادر الى ذهني وهو ضيفي ، انه سيرسل في اليوم التالي عناصره يقتادونني شبه مخفور من مكتبي في «القبس». . . اليه.

- ٣ -

ابتلعت ما تبقى من فنجان القهوة مرة واحدة. كدت أحرق أصابعي وأنا أطحن السيكارة في صحن الدخان بعصبية. أحسست بانقباض عندما كانت حنجرة المذيع تتوسل الخطابة، وهو يفرغ في أذني خبر الكشف عن مؤامرة لبغداد أصابع فيها، للاطاحة بالنظام! وقبل ان تغدرني موسيقى المارشات العسكرية التي اعتاد عليها السوريون، وأصبحت نذير شؤم يحمل اليهم المزيد من القمع والتسلط والارهاب، أزحت إبرة الراديو، أفتش بها عن صوت آخر.

«مؤامـرة». . . «اطـاحة بالنظام»! كانت هذه الكلمات تطن في رأسي. تجمد وجهي على المرآة. بدت الدهشة في عيني وأنا أمرر أصابعي على عقدة ربطة العنق. استحضرت أمامي وجه عبدالحميد السراج الذي أمضى ليل البارحة عندي حتى منتصف الليل، لم أذكر ان ارتسمت على وجهه علامة قلق واحدة. . . او بدر منه ما يوحي بأن في البلد «مؤامرة». هل يعقل أن يمضي رئيس الاستخبارات وعين البلاد «الساهرة» الليل في بيتي والشام على كف نوري السعيد ومن قال المذيع انهم «عملاء» و«خونة» يريدون النيل من «سلامة سورية والوطن العربي»؟!

كل شيء كان عاديا في الشارع، الا الصحف. . . لم تعد المارشات العسكرية ولا الخناجر المسعورة الملتهبة، تهزّ الناس، تربكهم. فهم اعتادوا عليها، تعدهم بالخير والخبز والرفاه، فما نالوا منها غير الشر والجوع والارهاب. . . دارت نظراتي في الصحف المعلقـة في الاكشـاك، عنـاوينهـا النـافـرة كانت تطفح بالتنديد ببغداد وبـالعمـلاء ، وتـدل على الاسـماء: سعيد تقي الـدين. غسـان جديد. أديب

الشيشكلي. حسن الاطرش. زيد الاطرش. فضل الله ابو منصور. عدنان العائدي. صلاح الشيشكلي. منير العجلاني. محمد صفا. عادل العجلاني. عدنان الاتاسي. ميخائيل اليان. محمد معروف. بيبريس أنجوق. سامي كبارة. عبده وهبه. شوكت صفطلي. صبحي العمري. فيضي الاتاسي. . .

وتبارى الكتبة في كيل النعوت وتجميع الوقائع لا كما حدث انما كما وزعتها عليهم أجهزة السراج، وكما أوردها فيما بعد يوسف شقرا، قاضي التحقيق العرفي في دمشق، في قرار الاتهام بعد اطلاعه على ادعاء النيابة العامة العرفية الاولى في دمشق رقم ٣٠٧٧/٢٢٢٦ بتاريخ ١٩٥٦/١١/١٩. فذكرت الصحف ان «المتآمرين»، كانوا يحضرون لانقلاب يستهدف قلب نظام الحكم، واقصاء الشيوعيين والاشتراكيين عن السلطة وان النية كانت متجهة للقيام بالانقلاب قبل سفر الرئيس شكري القوتلي الى موسكو، الا ان «المتآمرين» آثروا تأخير الفعل. حتى يعود قوتلي ليسهل القاء القبض عليه، بينما يستطيع اذا ما تم الانقلاب في غيبته عن البلاد ان يلجأ الى القاهرة، ويفلت من الاعتقال ويظل يعتبر نفسه الرئيس الشرعي!

سبقني الى مكتبي، صوت ياسين نويلاتي، مدير تحرير «القبس»، يستعجلني الاتصال بعبدالحميد السراج للحصول منه على تفاصيل هذه «المؤامرة»، علّه يفوز بسبق صحافي، معتبراً ان «خصوصية العلاقة» بيني وبين «السلطان الاحمر» بحكم النسابة، ستمكنني من الحصول على تفاصيل وخفايا تنفرد «القبس» بنشرها، خصوصاً انها تصدر ظهر كل يوم. . .

تملكت الحماسة ياسين نويلاتي، سخا في حركاته العصبية لما رآني أتبالد في مجاراته حماسته. لم أشأ أن أكشف له ان بيني وبين «العديل» علاقة باردة، واننا لا نجتمع على رأي ولا تصرّف. . .

ضاق بي الحاحه، فأمسكت بسماعة الهاتف ادير القرص. ارسم أرقام «الاركان العامة» باصابع مترددة على الطرف الآخر، كان صوت الجندي المناوب على البدالة، رخيماً. أعطيته اسمي. سألت عن السراج، غاب عني الصوت ثوان معدودات. احتلني شعور غريب بالامتعاض والراحة في آن معا، لما قال لي: ان حضرة المقدم غير موجود.

لم تمض عشر دقائق، حتى دخل عليّ الحاجب يعلن ان شخصاً يريد مقابلتي. أومأت أن دعه يدخل. فاذا بسامي جمعة منتصبا امامي. احتويته بنظرة مستفسرة بدّدها بابتسامة عريضة:

ـ المقدم يريدك في مكتبه لبضع دقائق.

انفرجت أساريري، احسست انني على قاب قوسين من سبق صحافي. صحت بياسين نويلاتي وأنا آمر بمك ٠/: سأعود بما تريد. .

مدّ أصابعه الى علبة سكائره . حشر واحدة بين شفتيه الغليظتين وأخذ نفساً طويلا . حاول ان يجدل الحديث بيننا، ولما رآني لا أبالي، ضغط على زر الراديو في السيارة. سار بي الى حي الصالحية، حيث مبنى الاركان العامة. بلمح البصر. اشار الى المدخل الغربي للمبنى ، ومد خطواته وأنا خلفه في ممر طويل على طرفيه مكاتب ضباط «الشعبة الثانية» [الاستخبارات] . استغربت عدم شعوري بالانقباض وأنا أقرأ الاسماء على ابواب المكاتب المغلقة، وتذكرت يوم دخلت هذا المبنى مع عبدالكريم الدباح الدندشي . . .

توقف سامي جمعة أمام غرفة الى اليمين في آخر الممر. أشار اليّ أن أقف . دخل. فرقع كعب حذائه وهو يأخذ التحية ، ثم عاد يدعوني للدخول، فاذا بي أمام رجل كان مع برهان أدهم [ابو ابراهيم] مندسا بين القوميين في بيروت. المقدم طلعت صدقي . . . فاعتقدت للوهلة الاولى ان سامي جمعة قد ضلّ طريقه الى مكتب المقدم السراج، فأدخلني مكتب المقدم صدقي ، ولم يتبادر الى ذهني لحظتها انه لم يحدد لي أي «مقدم» يريدني في مكتبه لبضع دقائق!

تكلّف طلعت صدقي الابتسامة. ثم تغيرت ملامح وجهه المنبسطة وقال بنبرة تجمع فيها الغضب: ما الذي فعلته بمعلمنا ؟

نشرت على وجهي علامات الدهشة : «من هو معلمكم؟!»

ـ عديلك. . . عديلك.

خطف الكلمتين خطفا.

ـ المقدم عبدالحميد السراج؟ ألحقت كلامي بتعجب أزعجه فقال بغضب:

ـ كم عديلا عندك يا استاذ؟ . . .

نفرت في وجهه: هو عديلي نعم. . . ولكنني لم أفهم بعد ما علاقة ذلك بك وبما تتهمني بأنني سببته لمعلمك . . .

عدّل جلسته ولهجته:

ـ لقد طلب مني بمستطير الغضب ان استدعيك فنتحادث قبل أن يراك. لأفهم منك تفاصيل قضية تكاد تهزّ الاركان كلها .

ما كاد ينهي آخر كلمة حتى طلع صوت السراج عبر الانترفون: «طلعت هل وصل؟»

ـ نعم سيدي .

ـ هاتو . . .

كان مكتب عبدالحميد السراج مواجهاً لمكتب طلعت صدقي. نقر على الباب بهدوء. فتحه. واذا بي وسط غرفة صغيرة مظلمة. الستائر الغامقة اللون تتكمش في النافذة اليتيمة باحكام تمنع النور من التسلل من زواياها. النور الوحيد كان يأتي من

مصباح مكتب من النوع الذي يُطوى ويحنى، سلطه السراج على عينيه بحيث لا ترى في سواد الغرفة الا هما. على المكتب الخشبي، اصطفت اكثر من عشرين آلة هاتف وعلى الارض اربع آلات. . . تسليت في عدّها. وقفت دقيقة قبل ان جلست من دون استئذان، انتظر فراغه من التحدث بالهاتف بصوت خفيض لا يكاد يسمع. فما أن وضع سماعة الهاتف حتى صرخ في وجهي: وقاف . . .

هزني صوته، فوقفت مندهشا فقال: الآن . . . اجلس .

تجمدت عباراته على لسانه، فتح عينيه على اتساعهما يحتويني بنظرة حادة وقال هامسا:

ـ من أين جاءت الاموال الى جيبة سترتي الداخلية؟

رسمت على وجهي ابتسامة حملت كل براءة الدنيا:

ـ أموال . . . أية أموال؟ .

لم يتمالك نفسه. أحسست بلسع نظراته. امسك بدرج مكتبه ونتره الى الخلف. مد يده الى جوف الدرج، سحب مظروفا واحدا، عرفته على الفور بأنه واحد من اثنين كان نجيب منهل قد سلمهما الى مَلَكْ في بيتي . . .

ـ هذه الاموال يا استاذ .

ورمى المظروف في وجهي، فتطايرت منه ألوف الاوراق النقدية زرعت ارض الغرفة.

تركته يحكي. ما عدت سمعت ما يقول . . . غامت الاشياء في عيني. انشغل تفكيري لحظتها بالتفتيش عن سر وصول المظروف المنتفخ بالاوراق النقدية الى جيب سترته . . . ثم أين المظروف الثاني؟ أين أخفته مَلَكْ؟ وبدأت أفكر كيف أجيبه وانقذ نجيب منهل ومَلَكْ في آن معاً.

انتشلتني عباراته الاخيرة المتوعدة من غيبوبتي البنفسجية:

ـ ان لم تقل لي الحقيقة كاملة، سأرسلك الى «المزة» لتلحق بمن سبقك اليها من رفاقك.

تجمع الغضب في صوتي وحرّرت نفسي من سطوته، فانتصبت أمامه. ثم اقتربت من مكتبه. تناولت المصباح بعصبية مفرطة وصوّبته على كامل وجهه، فرفع رأسه وقد علت وجهه تكشيرة قلت:

ـ تهددني «بالمزة» تريد ان تملي عليّ رعبك . . . هذه الاموال هي تكاليف حملة صحافية اعلامية لمشروع نجيب منهل للتنقيب عن النفط في «قرتشوك» سَلْ زوجتي تخبرك.

أعاد تركيز المصباح على عينيه. تملأني بغضب. استمهل، ثم مد يده. انتزع سماعة الهاتف بهدوء. حديثه مع زوجتي بالكاد كنت اسمعه:

ـ أخبريني الحقيقة. . . حقيقة المال. . . المال.

ـ كفانا فضائح. . . خطوطي مراقبة. . . نعم عندي.

ومد يده يعطيني سماعة الهاتف، انتزعتها من يده وصرخت:

ـ أخبريه. . . أخبريه الحقيقة كاملة ، وما جاء نجيب منهل يفعله في بيتنا ومن قابل و. . .».

لم تدعني أكمل . جاءني صوتها مليئا بالغضب:

ـ اترك مكتبه واخرج حالا . . . والا سآتي الى الاركان والعن. . . . .

وانهالت على السراج وضباطه بالسباب. هدأت من روعها. وضعت السماعة.

أدرت له ظهري ومشيت نحو الباب. فانتصب حنقا وقال:

ـ عُدْ الي بكامل المبلغ. . . كامل المبلغ والا. . . .

لم أرد. رميت عليه نظرة ازدراء و. . . خرجت. فلقد عرفت لحظتها انه كان يبحث عن المظروف الثاني، وظن اني قاسمت مَلَكْ ، فاحتفظت به، في حين انها اخفته عن زوجها!

بعدي استدعى عبدالحميد السراج ، نجيب منهل الى مكتبه في الاركان العامة للتحقيق. فتولى العقيد جميل فياض والمقدم طلعت صدقي الترجمة، فانصبت اسئلة السراج على أسباب حصولي على المبلغ. فعلمت من نجيب منهل فيما بعد، انه لقن السراج درسا في حقوق الفرد وحرية تصرفه في المجتمع، وانه تبعا لذلك فهو حر في اعطاء ماله لمن يشاء. احتج على استدعائه. طالب الاتصال بالسفارة الاميركانية في دمشق. . .

وطبيعي انهم تركوه ، وطوي الملف . وما عاد السراج يأتي على ذكر مال نفط منهل. بقيت جاهلا مصير ذلك المال على مدى ثلاثة وثلاثين عاما، حتى اكتشفت عام ١٩٨٩ ، [نقلا عن جوان زلفو، شقيق زوجته]، ان بعض ذلك المال قد أنفقته مَلَكْ على تأثيث المنزل الفخم الذي انتقل اليه «السلطان الاحمر» في حي أبو رمانة الارستقراطي. أما بعضه الآخر، فقد اودع في حساب سري في أحد المصارف اللبنانية، ثم نقل الى سويسرة، وان كان هذا يصعب اثباته بوثيقة، فهو يسهل لو وقف عبدالحميد السراج امام قوس محكمة تحاسبه على ما ارتكبته يمناه وتسأله من أين لك هذا؟

كل المظاهر كانت تدل وتؤكد لكل من كان حول «السلطان» وحواليه من أصدقاء ومتزلفين، انه كان يعيش في بحبوحة لا يوفرها مرتبه الشهري في تلك الفترة من الزمن كرئيس للاستخبارات او كوزير للداخليه في حكومة «الاقليم الشمالي» للجمهورية العربية المتحدة أو حتى لما صار نائبا لجمال عبدالناصر، متحكما بملايين

السوريين لا في الشأن السياسي والاقتصادي وحسب بل في أدق أمور حياتهم الخاصة.

- ٤ -

- جواسيس . . . رعاع.

ابتلع عبارته مع ريقه لما تنبه لوجودي. اتجه نظري نحوه فرأيت بريقا غريبا، يملأ عينيه هو مزيج من التعالي والغضب.

اهتز حنقا في مقعده. أزاح عن عينيه جريدة «الرأي العام». رماها فوق الجرائد المكدسة امامه على منضدة السكاير، نظر اليّ يريد ان يسترعي انتباهي ثم أشار الى الصحف:

- كلهم يا استاذ جواسيس لجهة ما. . . كل من كتب حرفا في جريدة هو جاسوس.

استنفـرني كلامـه. طافت برأسي لحظة غضب ، أحسّت بها مَلَكْ فاطلقت ضحكة شعرت بها ثقيلة على صدرها وغيّرت الحديث، لتستشيرني في شأن تعليم اخوانها الصغار عامئذ، دريد [المهاجر في اوسترالية] وصفوان [المهاجر في كندة] وجوان [العقيد المتقاعد في الجيش المصري]. كنت أجيبها عن أسئلتها ونظري بين الحين والآخر يذهب اليه وهو يقلب صفحات الجرائد. يقطب ثم تنفرج تجاعيد جبينه. ثم يعود يرميها على الارض بجوار مقعده.

كان يعني كل كلمة قالها عن الصحافيين، فهو مثله مثل كل عسكري [أو اكثر العسكـريين العـرب] كان يخاف من الصحـافـة. على زمنـه بدأت النـظرة الى الصحافيين على أنهم عملاء وجواسيس ، فانتشرت في أوساط الرأي العام السوري الـرسمي ومنهـا انتقلت الى غيرها في الدول العربية. لذلك كان الجميع في نظر السراج موضع شبهة، فتساوى عنده أحمد عسه، الذي كان يرأس تحرير جريدة «الرأي العام» بسعيد فريحة عميد دار «الصياد» بنسيب المتني صاحب «التلغراف» الذي قتله في بداية «صيف الدم» عام ١٩٥٨ بوديع الصيداوي صاحب «النصر» ونصوح بابيل صاحب «الايام»، مع صحافيي الدرجة الثانية ومنهم نشأت تغلبي الذي كان قد عمل مراسلا لدار «أخبار اليوم» المصرية في دمشق، قبل ان يوصي به السراج خيرا لدى المشير عبدالحكيم عامر فعينه هذا الاخير مديرا لمكتبه الصحافي حتى يوم انتحاره بعد هزيمة عام ١٩٦٧.

كان السراج يعتقـد ان من يقبض منـه ليضرب بسيفـه ويطرز له المقـالات دفاعا عنه، فانه يستطيع ان يبيع قلمه لأول شارٍ يدفع اكثر. . . وربما الذي شجع «السلطان الاحمر» على هذا الاعتقاد تزلف الصحافيين له ووضع محابرهم واقلامهم

بتصرفه ورهن اشارة منه. فاستقوى لما استزلموا. وشكل منهم نقابة للصحافيين. أمـرهـم فانصاعوا. «فنصّب» عليهم بكري المرادي نقيبا، وكان صاحب ورئيس تحرير «الشام» التي صدرت [بأموال دفعها وزير الخارجية السورية الاسبق ميخائيل اليان] نصف شهـرية ، تعنى بالرياضة، فأستصدر لها اليان مرسوما وقعه رئيس الحكـومـة صبري العسـلي تحولت بعده الى جريدة سياسية تعبّرعن رأي «الحزب الوطني» الحاكم.

أذكر جيداً ان السراج يومها، افرط في ذم بكري المرادي وشتمه، وأوما الى رئيس حرسه فاروق [من سكان دير الزور]، ان يرمي جريدة «الشام» في «الزبالة» ونهره قائلا: لا أريد ان تدخل هذه الجريدة منزلي بعد اليوم.

بكري المرادي، صاحب «الشام»، التي رماها السراج في «الزبالة» أصبح بعد قيام «الـوحـدة» بين سورية ومصر، نقيبا للصحافيين السوريين. ومثلما استماله، استـمال عدداً آخـر من أبناء المهنة، الذين كان همهم الوحيد لا ارضاء ضمائرهم والاخذ بيد الشعب، انما التسبيح بحمد «السلطان» ولي نعمتهم المغمسة بدم الابرياء.

بعض هؤلاء يدعي اليوم «الوطنية». وبعضهم بقي متزلفا دنيئا يباع ويشرى. ومنهم من أصبح الانيس في مجالس الملوك والرؤساء.

ـ ٥ ـ

كان كسير القلب. تبيّنتُ وجهه وهو يسترد أنفاسه فاذا بالرجل الذي عرفته نائبا في البرلمان. نازه النفس خليقا بكل مَحْمَدة، يلوذ به كبراء زمانه، قد رسم التعب على وجهه أخاديد غيرت ملامحه، وما عادت عيناه تسطعان ببريق العزم فتعطي صورة عن الرجل الذي كانت له صولات وجولات على المنابر وفي اروقة السياسة. لقد هده سجن المزة هدا. تعرض فيه الى شتى أنواع العذاب. كان يستدعى من زنزانته الى التحقيق في أول الليل، فيتناوب عليه المحققون حتى ساعات الفجر الاولى. وما ان يعود الى زنزانته ، ظنا منه ان سيخلد للراحة بقية النهار حتى يستدعي الى التحقيق من جديد. ابقـوا النائب القومي الاجتماعي زكي نظام الدين على هذه الحال اسبوعا كاملا حتى انهار. ولم يشفع به غير شقيقه اللواء توفيق الذي خلف شوكت شقـير في رئـاسة الاركان العامة في الجيش، فطالب بالافراج عنه واضعا منصبه في الميزان.

حاول زكي نظام الدين ، بعد خروجه من المزة، وتجميد نشاطه الحزبي والسياسي ان يقـابـل السراج ليشكو له ظلامته من أخيه «الوزير» عبدالباقي نظام الدين، الذي استولى على بعض أراضيه الزراعية في القامشلي بقوة المنصب والنفوذ. فكان

السراج يرده على أعقابه.

كان أمل زكي نظام الدين بيّ كبيرا، وأنا «عديل السلطان»، بأن أحاول ترتيب موعد له، أو على الاقل تذكير السراج بطريقة أو بأخرى، بأفضال زكي عليه، يوم كان «السلطان» عين سورية «الساهرة» مرافقا لأديب الشيشكلي يسهر معه في مطعم نادي مطار المزة. فكان زكي نظام الدين كلما التقاه يدعوه الى مائدته ويغدق عليه ما تيسر بعيدا عن عيون الشيشكلي. فهكذا كان دأب زكي نظام الدين، برد الله ثراه،الاسراف والكرم.

حاولت ان أثنيه عن مقابلة السراج، فالرجل حاقد على القوميين وليس من طبعه ان يحفظ الجميل... لكنني وَجَدْت عنده اصرارا خُفت ان يفسّر تمنعي اعراضا عنه...

للحقيقة والتاريخ، كلمت قرينته مَلَكْ. طلبت. كدت أشفع طلبي بالتوسل. فردت عني وجهها مسالما واجابتني بحنق:

- كفاك توسطا للجواسيس، زكي نظام الدين، اقطاعي ابن اقطاعي وقومي اجتماعي أخاف على زوجي منه... ولن ادخله عتبة بيتي....

امتلأ رأسي بعباراتها، تحول اشمئزازي منها الى ضحك. فرحت أضحك بصوت عال. قفزت الى رأسي لحظتها افكار متلاطمة، فالاقطاعي ابن الاقطاعي... لم يمنع تلك المرأة وزوجها من مصاحبة ومزاورة غيره من الاقطاعيين. ألم يكن السلطان وزوجته من أعز اصدقاء محمود اليوسف [حفيد عبدالرحمن «باشا» اليوسف، امير الحج السوري ووالي دمشق على زمن الجنرال هنري غورو، فقتله الثوار السوريون مع علاء الدين الدروبي في قرية خربة الغزالة عام ١٩٢١] لأن زوجته الدكتورة ام الخير العظم التي عرفتها بنفسي على مَلَكْ، أصبحت طبيبة ابنتها جميلة وابنها فراس...

ألم يكن مأمون الطباع، رجل الاعمال السوري، المتنقل بين الكويت وأحد «مناضلي» حركة اقوميين العرب، مع رفيقه هاني الهندي والحكم دروزة من أصدقاء السراج وزوجة السراج؟

اما حاولت مَلَك ان تشكل لزوجها بلاطا خاصا من الاقطاعيين [ينتقل من دمشق متى انتهى فصل الشتاء الى بلودان في فصل الصيف] حاولت الكثيرات من سيدات الطبقة الارستقراطية والبورجوازية الانضمام اليه... والاسماء ان عددتها احتجت الى الصفحات الطويلة... بعض هؤلاء اخترمه الموت وبعضه الآخر بات اليوم في عداد الدياسبورا السورية المنتشرة في أنحاء العالم.

لقد تعزز بلاط السلطان بالمريدين والمتزلفين، بعدما أصدر، خلافا للدستور والقوانين، تعليمات بعدم السماح، لأي مواطن بمغادرة الاراضي السورية الا بعد

الحصول على «تأشيرة خروج» او اذن سفر، فحوّل البلاد الى سجن كبير. .

واتبع ذلك بممارسة سياسة اقتصادية موجهة، حددت الاستيراد، ومنعت الكثير من المواد الكمالية . فتفشت ظاهرة التهريب، من بيروت، التي كانت تحافظ على نظامها الاقتصادي الحر، في فترة كانت العساكر تنقض على الأنظمة، الامر الذي جذب الى بيروت رؤوس الاموال من الخارج سواء من البلدان العربية او من غيرها، فعم فيها بين ١٩٥٢ و١٩٥٨ ازدهار اقتصادي لا مثيل له.

وبدأت تتشكل عصابات تهريب منظمة، حماها بعض ضباط الاستخبارات بعلم ومعرفة «السلطان الاحمر» ، منهم عبدالوهاب الخطيب وشوقي الدقاق وعبده حكيم ومروان السباعي، فكان هؤلاء يمنحون تأشيرات الخروج وأذونات السفر لمجموعة من عناصر تلك العصابات مقابل أتاوات، فيذهب هؤلاء بسياراتهم الخاصة فارغة الى بيروت ويعودون من أسواقها محملين بخيراتها وبما عزّ الحصول عليه في دمشق السراجية.

وكم من سيدة ، كان يُدَلُّ عليها بالبنان لحسن سمعتها ووقارها، تحوّلت الى محظية، ترضي شهوة وطمع واستغلال ضباط السراج من اجل الحصول على تأشيرة خروج . . . .

كان كل ذلك يجري على مرأى ومسمع عبدالحميد السراج، الذي كان يقف في الناس داعيا الى حماية «الاقتصاد الوطني» ، يمنع عنهم الشراء والاستيراد من بيروت، وكتبته يروّجون لأفكاره في صحفهم المأجورة، كأن الاسواق اللبنانية هي اسواق غريبة، لا علاقة لها بدورة الحياة الاقتصادية السورية . . . بينما كان يسمح لنفسه، بان يرسل سيارة البويك الخمرية اللون [التي كان يضعها توفيق الحبوباتي صاحب نادي الشرق، بتصرفه] ، في ساعات الفجر الاولى الى بيروت لتعود مليئة بكل نفيس وثمين من «سوق الطويلة» ومخازنه الكبرى. . .

في تلك الاثناء حتى ربطة عنق «السلطان» كانت من بيروت. . .



عبد الحميد السراج حاملا ابنه فراس

الفصل الخامس

جواسيس السلطان



- ١ -

أمسكت وجهـه بعيني، لما رمى السـلام علينـا: منبسط الملامح وسيمها، عينان غريبتان تتحركان تحت حاجبين كثيفين، تحتار في بريقهما أهو ثقة أم مخادعة.

سحب كرسياً، وحشر نفسـه بيننـا، ثم دارت نظراته فينا حتى استقرت على وجهي. وكأنه شعر باستغرابي عندما أكمل سعدالله قنيزح أمامه الحديث عن الحاجة لوضع حد لتسلط عبدالحميد السراج، فحاول أن يمسح من عيني ما تبقى من حذر بافهامي انه «واحد منّا». وبدأ بمستطيل الكلام يذكر اسم غسان جديد، يروي عن خلافـه معه على الجبهة وكيف تصالحا فيها بعد... وأنه آتٍ لتوه من مكتب سعيد تقي الـدين في مبنى العـازارية. واتقدت عينا الضابط برهان أدهم ببريق الفرحة والتشفي، عندما وجدنا كلنا عيوناً عليه، فأفرط في الاعلان عن نقمته على النظام في الشام...

ما كان ينفض جمعنا الا على موعد، أصبح برهان أدهم يواظب عليه معنا. كانت كافيتـيريا «أليسـار» المقابلة لمدخل الجامعة الاميركانية في شارع بليس [أصبحت اليوم، كافيتـيريا زينـة] هي الموعد وفيها الملتقى، نصرف الساعات... فناجين القهوة تتراقص بين الاصابع في صعود الى الشفاه ونزول، والسجائر تنتحب قبل طحنها في صحون الدخان.

اياد موصـلي يأتينا بغلة أخبار العشية. بشير موصلي وصالح الكسم وسعدالله قنيزح بآخر أخبار السراج. موفق زهراء و«أبو غازي» الخوري [شقيق الدكتور سامي الخـوري] يعلقـان وبـرهـان أدهم مطرق السمـع، فلقد كان يجيد فن الاستماع والمخادعة في الصمت، فلا تشعر لحظة واحدة بأنه لم يعطك رأيا، أو لم يوافقك على نقمتـك، ولا يكيل معـك النعـوت لعصابة «الضباط العشرة» القابضة بالتسلط والارهاب والقمع على أعنة الحكم في الشام.

لم يدنس أذهاننا أي شك حيال برهان أدهم. وما خطر لنا أن ذلك الضابط الذي يشاركنا جلساتنا وتشردنا، يمالحنا ويغمس اللقمة معنا في طبق واحد، كان

من الذين يتاجرون بمسامير التوابيت، جلاداً من جلادي «السلطان الأحمر» . يلوّن لنـا الكـلام بالـدس والختل، يفاوضنا في النهار وفي هجيع الليل يكتب في حقنا التقارير وفي محاولاتنا التفاصيل.

ظننت أنه كان فعلاً من الضباط السوريين الذين التحقوا بالقوميين الاجتماعيين في بيروت، في محاولة لتثوير الناس في الشام بغية الاطاحة بالسراج وبنظامه الجائر. [كان بينهم محمد معروف . محمد صفا. صلاح الشيشكلي. حسين حكيم. عبده وهبه. محمود نعمة. أديب الشيشكلي. . .] حتى اكتشفت بعد وقت قصير، انه كما زرع القـوميون الاجتـماعيون في أجهـزة السراج حسيب أبو زكي وجميل العريان ومشهور دندش، فهتكوا ستر الأركان العامة، زرع بينهم صلّين: طلعت صدقي وبرهان أدهم.

- ٢ -

لولا أنه لما يتنحنح ، لما تذكرت فنجان القهوة على الطاولة أمامي . انشغلت عنه مقحماً عيني في جريدة «صدى لبنان»، أقرأ فيها رسالة الرقيب يونس عبدالرحيم [قاتل العقيد عدنان المالكي] الى غسان تويني، يدافع فيها عن حسين الشيخ مطلق النار على القاضي يوسف شربل الذي حاكم انطون سعادة في تموز (يوليو) ١٩٤٩ . كانت «صدى لبنان» قد نشرت رسالتين أخريين ليونس عبدالرحيم. الأولى وجهها الى اديب الشيشكـلي حذره فيها بأنه «سيعلك رقبته علكاً» اذا هو استمر في غيّه واضطهاده للقوميين. ورسالة ثانية قال فيها: «ان لدي موالاً سأغنيه وفي نفسي ظمأ للدم الشديد. الدم. الدم. الدم. تبارك الدم». كان قد كتبها قبل أيام من قتله المالكي في الملعب البلدي. وهذه الرسائل الثلاث تثبت تعطش يونس عبدالرحيم للدم، وتنفر منها للعين والذهن شخصيته وطبائعه الشرسة وتفرده في اتخاذ القرار وكتابة كلام لا يقره الحزب، اضافة الى ظاهرة الاعتداد بالرأي. لقد طرحت تلك الرسائل علامات استفهام كثيرة حول يونس عبدالرحيم في وقت كان الجدل قائماً ولم يحسم بعد حول مدى علاقة الحزب بمقتل المالكي . فلقد كان محمود نادل كافيتيريا «أليسار» يحاول ان يثير انتباهي الى أن شخصاً ارتاب به يسأل عني ، ففضل اعلامي بالأمر قبل أن يدلّه عليّ.

أزحت الجريدة عن وجهي، فاذا بي أمام شاب في مقتبل العمر، تقدم مني، اسرّ في أذني أن أحضر الى مكتب الصحافي كميل الجدع في شارع بليس قبالة السفارة التركية.

طويت الجريدة، دسستها تحت إبطي. مدّ الشاب الخطوة أمامي ولحقت به. رفع كميل الجدع رأسه المثقل. أغدق عليّ ابتسامة. محاها عن وجهه بسرعة.

وبدأ يقلب بعينيه واصابعه ملفاً أمامه.

لقد كان مثل كل المسؤولين القوميين الاجتماعيين في تلك الفترة، كثير الحذر والتيقظ. قال بهدوء عرف فيه:

ـ إستخباراتنا في دمشق، أرسلت لنا تقارير موشاة بالشك من أن برهان أدهم، الذي يجالسكم في كافيتيريا «أليسار»، هو عميل مزدوج دسه السراج بيننا...

امتلأت عينا كميل الجدع لحظتها بالغضب:

ـ سايروه. وفي الوقت نفسه راقبوه. احصوا عليه أنفاسه دقيقة بدقيقة...

تنبه الى ارتفاع صوته. أعاد ترتيب الاوراق. طوى الملف أمامه. فرك عينيه من التعب:

ـ أريد تقريراً يومياً عن تحركات هذا العميل المزدوج ...

كنت وأنا أسمع كلامه. استحضر وجه برهان أدهم أمامي. انتابتني موجة غضب. تكوم لساني في حلقي. شعرت انه اذا لم نسحقه أدركه الزهو وتمادى في الغواية...

انقذني كميل الجدع من أفكاري المتلاطمة وأعادني صوته من غفلتي عنه. تقدم مني ضغط على يدي. فتح باب مكتبه. تركني في ذهول.

توزّعنا الخبر. أصبحنا كلنا عيوناً مسنونة عليه. حركاته. تحركاته. حتى المومس التي كان يتردد عليها في شارع المتبني خلف ساحة الشهداء، صارت تشي به عندنا. لاحقناه حتى الى دور السينما. تارة في سينما «أمبير» وطوراً في «متروبول» وحيناً في «كـايرو» وآخـر في «غومون بالاس»، نحصي لقاءاته في مقهى «نغريتا» في شارع الحمـراء [الـذي راحت المقاهي تزدهر فيه في أواسط الخمسينات] مع الصحافي المصري محمود السعدني. ونلاحقه حتى بوابة السفارة المصرية في الرملة البيضاء. وفي نهاية كل يوم نرمي بالغلال على طاولة كميل الجدع.

لم نقصه عنا. أبقيناه في حلقتنا في كافيتيريا «أليسار»، وأصبحنا نفرط أمامه في تهجمنا على النظام في الشام. لم نفض اليه بسر. لم نبح بالأسماء. خدعناه بأسرار ملفقـة وبخطط قلنا اننا سمعناها من مصادرها عن محاولات لإغتيال عبدالحميد السراج عند خروجه من مكتبه في الاركان العامة... وعن استعدادات للعصيان المدني في حمص ... و... و... كنا نعرف انه كلما كان يتسلل الى دمشق خلسة كان يحمل معه الى السراج خطط الانقضاض على الحكم التي كنا نتفنن بتطريزها بألوان المبالغات والكذب.

لقد كان برهان أدهم [مثله مثل كثيرين] يعتقد ان مصرع المالكي، كان خطة ضلع فيهـا القوميون الاجتماعيون مع جهات أجنبية، قد تكون اميركانية واغلب

الظن بريطانية او. . . حتى اسرائيلية . لذلك حاول وعاود الكرة مرات ان يتأكد من ذلك سائلاً غسان جديد وسعيد تقي الدين عن الذي يحول دون طلب دعم الاميركان أو البريطانيين لقلب نظام الحكم في دمشق. فكان جوابهما دائماً، انهما يسعيان ، ولكن واشنطن لم تتجاوب بعد!!!

كانا يخادعانه في وقت اعتقد انه كان يخدعهما، حتى اذا ما رفع البرقع عن وجهه، بعدما كشفه القوميون، وعاد الى دمشق، وقف شاهداً ضدهم في المحكمة، يهتف في القاضي العرفي، يذيع الحقد والدس ويحيك الكذب الاسود حول المؤامرة التي سميت «المؤامرة العراقية» ، لضلوع الملحق العسكري العراقي في بيروت العقيد صالح مهدي السامرائي [وقد كان قبلاً يشغل المنصب نفسه في السفارة العراقية في دمشق] واللواء غازي الداغستاني معاون رئيس اركان الجيش العراقي، في تمويل وتذخير القوميين الاجتماعيين واعداد من المواطنين السوريين.

كانت «المؤامرة» عام ١٩٥٦ [التي زوّر حقائقها قرار الاتهام الذي رفعه قاضي التحقيق العرفي في دمشق يوسف شقرا] ثورة شعبية تساندها حركة عسكرية. ولم يكن الهدف منها استبدال ضابط بضابط آخر. انها استثارة غضب الشعب وتحريك وازع المسؤولية فيه ، بعدما كان استكان وألف الانقلابات التي توالت عليه منذ عام ١٩٤٩.

والذي أساء لعبدالحميد السراج واغضب اعوانه، فلفقوا التهم وزوروا الوقائع وبطشوا بالمتهمين ودفعوا أمام قوس المحكمة التي ترأسها عفيف البزري ، بشهود الزور، هو ان المخططين لـ «المؤامرة» وجدوا شرائح كبيرة من الشعب في حلب وحمص وقرى الغوطة ثم جبل حوران ، الى جانب العلويين والبدو، كانت مستاءة تخفي غضبها على النظام وتنتظر من ينكأ جراحها لتنزف وتثور.

اما دور نوري السعيد وعبد الاله، الذي التقاه سعيد تقي الدين وغسان جديد في يخته الراسي في ميناء بيروت، فكان دور المساند والضامن [بحكم علاقتهما وتحالفهما مع واشنطن ولندن] لعدم تحرك تركية و«اسرائيل». وخلافاً لما جاء في المحكمة ـ المهزلة ، لم يطالب العراقيون بعرش يتولاه عبد الاله. وما كان القوميون الاجتماعيون ، على ما كتب سعيد تقي الدين فيما بعد، «مغرمين بعبد الاله، وإن كنا نفضل أي عبد على ذلك العبد» [عبد الحميد السراج].

لقد كان للعراق في الشام حلفاء. «حزب الشعب» واحدهم. ولبغداد بين العشائر سواعد وحملة سلاح. فما احتاج المخططون لدعم جهة أجنبية. وكم كان زوراً وبهتاناً، قول عفيف البزري، ان المخططين كانوا على اتفاق مع الاجانب لمهاجمة دمشق، في وقت كانت مصر منشغلة بالعدوان الثلاثي البريطاني ـ الفرنسي الاسرائيلي عليها.

والحقيقة، ان العدوان الثلاثي الذي كشف هزال مصر العسكري ، هو الذي أوقف القوميين وحلفائهم عن الانقضاض على حكم السراج.
و. . . لولاه لكانوا فعلوا.

- ٣ -

لم يجارِ أحد برهان أدهم في الدس وصب جام الحقد على القوميين الاجتماعيين أمام قوس المحكمة العرفية ، مثل الصحافي المصري محمود السعدني . فلقد وهَبوا له مجال الدس والختل وأطالوا له الحبل فلجّ في الضلال والعمالة والافتراء والتزوير. أبرز للمحكمة صورة لسعيد تقي الدين كتب عليها الاديب بخط يده عبارة «المؤامرة ثورة فشلت»، فاعتبرتها اعترافات شهادة كافية بادانة سعيد تقي الدين وصحبه بالتآمر على «سلامة سورية». . .
والحقيقة ان تلك العبارة كانت عنوان مقال كتبه سعيد تقي الدين بخط يده للصحافي المصري ، الذي جاء مع رفيقين له، يطلبان حديثاً لجريدة «الجمهورية». فاستعاض سعيد عن الحديث بمقال يقع في ثلاث صفحات، فيه بحث علمي عن الثورات وفلسفتها، انهاه بأن كتب يقول:
«إن الذي اثبت ان الثورة السورية التي انتصرت بانقلاب حسني الزعيم ، ثم بانقلاب الحناوي وانقلابين اثنين قام بهما الشيشكلي، ثم الانقلاب الاخير على الشيشكلي، كلها كانت مؤامرات على الشعب السوري لأنها كثورات فشلت فكرة وتنفيذ مبادىء وتوجيهاً حكمياً. وان المؤامرة الكبرى اليوم في دمشق هو هذا الوضع القائم ، لأنه يمثل ثورة فشلت».
فما كان من محمود السعدني ، الا ان حوّل المقال الى حديث فيه أسئلة وأجوبة وهمية لا أساس لها من الصحة، نشرته جريدة «الجمهورية» في التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٧ ثم اقتطع عنوان المقال وحفره بالزنكوغراف على صورة سعيد تقي الدين ، منقلباً من «صحافي» الى «عميل» للاستخبارات السورية، فلما طلبته أجهزتها للشهادة وقف في قاعة المحكمة العرفية، زوّر التاريخ والحقائق، من دون تبكيت ضمير، فالذي يوظف قلمه للدنايا وينتحل صفة الصحافي وهو عميل لا نظن أن فيه أي ضمير حي. . .
لم تمر «سعدنة» السعدني من دون استنكار في الصحف اللبنانية، الا المأجورة منها، فقد أصدر صدر سعيد تقي الدين بياناً تحدى فيه جريدة «الجمهورية» القاهرية ان تنشر المقال كاملاً كما دوّنه بخط يده. وشكا الدساسين للرئيس جمال عبدالناصر في البرقية الآتية:

«سيادة الرئيس جمال عبدالناصر ـ القاهرة

ان احترامنا لكم وأنتم قائد دولة لا تريد بناء مجدها على (رقابة) ارفع لسيادتكم شكوى تدين مواطنا مصريا منتدبا من جريدة «الجمهورية» وهي لسان حال ثورتكم. جاءني محمود السعدني وأخذ مني حديثا لجريدته سطّرته بثلاث صفحات وعنوانه «المؤامرة هي ثورة فشلت». العنوان كتب على ورقة مستقلة للزنكوغراف. لم تنشر «الجمهورية» بعد هذا المقال. بل راح مندوبها يفتري بأن المقال اعتراف مني ليضلل الرأي العام في ادانة متهمين هم اشراف سورية وحراب جهادها. كل ما أرجوه من سيادتكم ان تأمروا هذا المفتري ان ينشر المقال بالزنكوغراف كما نشر عنوانه. فأنتم قائد دولة لا تريد بناء مجد أبنائها على...

سعيد تقي الدين

لا جمال عبدالناصر ردّ. ولا جريدة «الجمهورية» استجابت. محمود السعدني خرج من المحكمة العرفية... «بطلاً قومياً».

ـ ٤ ـ

الشهادة بالزور أمام المحكمة العرفية، جعلت برهان أدهم يحتل مكاناً قصياً في قلب «السلطان الاحمر» فأمن جانبه وائتمنه على «المكتب الخاص» للشؤون اللبنانية ومركزه في منطقة «الحواكير» تولاه «أبو ابراهيم» بدراية العارف بالوضع اللبناني وكفاية رجل الاستخبارات الحذق.

«المكتب الخاص»، كلف خزينة الدولة مئات الملايين، انفقها برهان أدهم بلا حسيب ولا رقيب، اشترى بها «عملاء» له في لبنان منهم النواب والوزراء وشيوخ العشائر والمخاتير ورعاع القوم... فرفع من قدرهم وأجرى عليهم جزيل الخير وأفلح في جعلهم مطية بين يديه، يطلب منهم فينفذون ويشير بالبنان فيلبون.

سميح عسيران، نائب صيدا الراحل، كان على صلة ببرهان أدهم وعبدالحميد السراج، كمال جنبلاط كان صديقاً للسراج مثله، ومثلهما كان سليمان فرنجية، رينيه معوض، صائب سلام، رشيد كرامي، عبدالله اليافي، صبري حمادة، عدنان الحكيم، شبلي العريان، خيري عوني الكعكي، وغيرهم كثرٌ. كانوا يحجون، الى دمشق في الشتاء وبلودان في الصيف، سعياً لكسب رضا «السلطان» وسؤال خاطره... ثم يمرون على محمود رياض السفير المصري في دمشق قبل ان يعودوا الى عبدالحميد غالب السفير المصري في بيروت. ليباحثوهم في العروبة والوطنية!!

اذكر مرة ان سيارة «مرسيدس» سوداء، توقفت امام «نادي الشرق». نزل منها

العميد انطون سعد [رئيس المكتب الثاني اللبناني عام ١٩٦١]، وأومأ الى سائق سيارته ، ففتح صندوقها وأخرج منه خروفا صغيرا، نادى توفيق الحبوباتي، صاحب «نادي الشرق»، الذي همّ باستقباله:

ـ يا أبا محمد هذا «قرقور» [خروف صغير] لبناني، اذبحه واشوه لنأكله مع أبي فراس.

يومها، كان انطون سعد ضيفا على مائدة «السلطان الاحمر».

طوال فترة توليه رئاسة «المكتب الخاص» للشؤون اللبنانية، جمع برهان أدهم من حوله عددا من الضباط المغاوير في الجيش، ابرزهم، الملازم اول اكرم الصفدي [يملك اليوم منتجعا سياحيا في مصر]، الذي كانت له يد في اغتيال غسان جديد [١٩٥٧]. ونسيب المتني [١٩٥٨]، والضابط الفلسطيني محمد خليفة [الذي كان مقيماً في الكويت] الذي يُعْرفُ من فجر «الترامويّ» في باب ادريس في بيروت فمات من مات وجرح من جرح. وَ. . . أريق الدم في صيف ١٩٥٨. لما تستر عبد الحميد السراج، لينهي القوميين، بشهوة كميل شمعون لتجديد ولايته وبسياسته الغربية الاتجاه، وتعاونه مع النظام الملكي العراقي ومع بريطانية وتأييده «حلف بغداد». فكان عبدالحميد السراج الاداة الطيعة المطواعة للمخطط المصري ـ الاميركاني ، لضرب النفوذ البريطاني الذي أخذ يتجمع ويتسع مع قيام «حلف بغداد»، ولنشر «التوجه الناصري» في سورية ، الذي كان يمنع ويتصدى لوحدة دمشق وبغداد ، تحت ذريعة ان اصابع بغداد مغمسة بالخيانة ومتعاملة مع «الاستعمار واعوان الاستعمار»، حسب نغمة عبدالناصر الدعائية، فيما كان الرئيس المصري ومجلس قيادة ثورته و«عصابة الضباط العشرة» السورية المتعاونة معهما، ينفذون بشكل أو بآخر مخطط الجنرال دوايت ايزنهاور لانهاء النفوذ البريطاني في الشرق القديم.

ما إن استنفر السراج العملاء الذين كانوا على لائحة مدفوعات «المكتب الخاص» حتى كان صيف الدم في لبنان، الذي اعقبت بداياته سقوط الملكية في العراق ١٤ تموز (يوليو) ١٩٥٨

★★★

طلعت صدقي ، كان الصل الثاني الذي دسه عبدالحميد السراج، فتسلل الى صفوف القوميين الاجتماعيين في لبنان. لكنه بعدما عاد الى دمشق وارتدى بزته العسكرية لم يشترك في حملات الاضطهاد والتعذيب التي مارسها برهان أدهم بحقهم. كذلك، لم يشترك طلعت صدقي بحملات الاعتقال الواسعة التي جُرِّدت على الشيوعيين اتباع خالد بكداش، عندما طلبت واشنطن من جمال عبدالناصر ان ينهي وجودهم في كل من الاقليم الشمالي والجنوبي للجمهورية العربية المتحدة. وبينما ظن «البكداشيون» انهم في مأمن من السراج وفي حماه، بعدما ساعدوه في

الحملة على القوميين في المجلس النيابي وخارجه، وجدوه يرتد عليهم، يغدر بهم وينكل، منصاعا لرغبات سيد مصر متلمسا رضاه.

في أثناء تواجده في الاركان العامة، كان طلعت صدقي قريبا من «حركة القوميين العرب»، التي كان منها الدكتور جورج حبش، وديع حداد. الحكم دروزة. هاني الهندي. مأمون الطباع. جهاد ضاحي. ثابت المهايني. وممدوح رحمون...

وعبره وعبر محمد خليفة تمكن «القوميون العرب» من تثبيت مواقع لهم نافذة في الجيش السوري ثم بعد ذلك في الاوساط اللبنانية.

لم يمض على طلعت صدقي كثير وقت، حتى كان عبدالحميد السراج يُلحقه بالسفارة المصرية في العراق، مساعداً للملحق العسكري عبدالمجيد فريد [رئيس مكتب الدراسات العربية في لندن حالياً] فيشترك معه في التآمر على نظام عبدالكريم قاسم، وفي الاتصالات مع الضباط رفعت الحاج سري [مدير الاستخبارات في وزارة الدفاع العراقية] والعقيد طاهر يحيى والعقيد عبداللطيف الدراجي والرائد محمـود عزيز [ضابط ركن في اللواء الخامس الذي كان يقوده العقيد عبدالوهاب الشواف زعيم حركة الموصل الانقلابية] والعميد الركن ناظم الطبقجلي، قائد الفرقة الثانية في كركوك.

وقد اسفرت تلك الاتصالات عن سفر الرائد محمود عزيز الى دمشق مرات عدة فاجتمع ببرهان أدهم وبعبدالحميد السراج [وكان وقتها وزيراً للداخلية]، كما التقى النقيب شكر محمود الحنكاوي، ساعات طويلة بالسراج الذي وعد بمساعدة الثورة ومد الثوار باذاعة وأسلحة خفيفة ومتطوعين!

لكن العميد الركن ناظم الطبقجلي، لم يكن يثق بوعود عبدالحميد السراج، ولم يخف أمام عبدالوهاب الشواف تخوفه من مراوغة «السلطان الاحمر»، فعاد يختبره بأن أرسل ضابط ركنه المقدم الركن عزيز احمد شهاب لتأكيد العون العسكري، فالتقى السراج في اواخر شباط (فبراير) ١٩٥٩ في حلب، فوعده بالرد على طلب المساعدة بعد ثلاثة ايام.

في الثالث من آذار (مارس) ١٩٥٩ وصل محمود عزيز متخفيا الى دمشق، التقاه السراج مجددا وحمله تأكيداً بأن دمشق ستجهز الثوار بمحطة اذاعة وبثلاثمائة متطوع من مغـاوير الجيش السوري. بكامل سلاحهم، اضافة الى شحنة من الاسلحة الخفيفة كي توزع على قبيلة «شمر» المنتشرة على جانبي الحدود العراقية ـ السورية.

فلقد نجح عبدالوهاب الشواف في اقناع شيخ مشايخ شمر احمد عجيل الياور بتجهيز خمسمائـة مقاتل وارسالهم الى ضواحي الموصل. وتفاهم مع الشيخ دهام الهادي، شيخ شمر السوري و«باشا» قبيلة علي ليعينا عبدالوهاب الشواف اذا ما اقتضى الموقف سؤال العون...

ولم يكتف السراج بالوعد بارسال السلاح الخفيف، انما بسرب من «الطائرات» اذا اقتضى الامر حماية قاعدة انطلاق الثورة في الموصل!!

«الاذاعة»، سلمها برهان أدهم عند مخفر «تل كوجك» العراقي، وكانت من النوع المتنقل لا يزيد حجمها عن متر مكعب واحد تذيع على الموجة القصيرة، لم يتمكن المهندس يوسف ابو شاهين الذي صحبه ادهم معه حتى من تشغيلها.

«السلاح» وصل ولم يستعمل. أما «المتطوعون» فلم يصلوا و«الطائرات» كانت خدعة...

عبدالوهاب الشواف قتل بعد غارة جوية على قيادته في الموصل. وفشلت «الثورة» وانتصب قوس محكمة فاضل عباس المهداوي الشهيرة...

لعل عبدالناصر كان يسعى من دعمه لتلك الثورة الفاشلة الى ضرب الضباط العراقيين بعضهم ببعض. لعله وجد أن عبدالحميد السراج افضل من يقوم بهذا العمل.

وكان «السلطان الاحمر» عند حسن ظن «الريّس».

ـ ٥ ـ

عبدالحميد غالب!

يكفي لفظ هذا الاسم امام اللبنانيين، حتى تشرئب في ذاكرتهم التلاعبات السياسية والمؤامرات التي شغلت لبنان سنوات وعانى اللبنانيون منها الأمرين. التي أجج نارها عبدالحميد غالب، فتصرف كأنه مفوض سام لمصر في لبنان. زرع الشر. تلاعب بالساسة. باع واشترى من كانوا يواطئونه سرا على كميل شمعون.

وقع لبنان ضحية بين «عبدالحميدين» واحد في بيروت وآخر في دمشق. توزعا المهام سرا في التعاطي مع المتعاملين والعملاء من ساسة ورجال صحافة و«فكر» ومأجورين مغموزي النسب. حتى اشكل الامر على هؤلاء بين السراجية والناصرية.

فكان السراج يوظف تقارير هؤلاء لحساب جهاز أمنه في الوقت الذي كانت صلاتهم اكثر من جدية مع السفير عبدالحميد غالب، يتقاضون منه مخصصات شهرية وجعالات للقيام باعمال يوكل اليهم امر تنفيذها.

عدنان سلطاني، الذي اغتال كامل مروة ناشر ورئيس تحرير «الحياة» البيروتية ومساعده ابراهيم قليلات كانا من هؤلاء. فاروق شهاب الدين الذي نشرت عناصره [فيما سمي بالمقاومة الشعبية]، القتل والتخريب في أزقة بيروت خلال صيف الدم عام ١٩٥٨، كان أيضا من الذين ينتظرون على باب عبدالحميد غالب ليقبض جزاء عمله. ومثله... غير رئيس حكومة ووزير ونائب وزعيم حزب يدعي

«الوطنية» كانوا يوالون جمال عبدالناصر سياسيا وماليا فيما يرفعون تقاريرهم ودسهم وتجسسهم الى والي الشام الحاكم بأمره «السلطان الاحمر».

فرج الله الحلو، القائد الشيوعي اللبناني، الذي انتهى في الشام مذوباً بالاسيد في مغطس حمام مكتب عبدالوهاب الخطيب ، احد جلادي السراج المقربين له، في شارع بغداد، كان ضحية من ضحايا تعاون المأجورين والمرتزقة اللبنانيين مع أجهزة الاستخبارات السورية.

لا أدعي معرفة بالشرك الذي نصبه له احد هؤلاء العملاء فانجر اليه مغمض العينين فلاقى حتفه فيه. ولكنني وجدت بين اوراقي ما كنت لململته، من فم وجيه انطكلي منفذ قتل فرج الله الحلو، لما التقيته في سجن القلعة في دمشق يوم التاسع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٦٨، وكان قد مر عليه خلف القضبان سبع سنوات من الحكم المؤبد، بعدما كان مَثُلَ أمام محكمة القاضي العسكري الفرد عمر الفدا.

اقتادوه الى مروان النسباعي، مسؤول الاستخبارات في حمص، ادخلوه الى غرفة صغيرة مظلمة. بقي فيها ساعات. ثم سلطوا على عينيه ضوءا حادا، لم يعد بعدها يبصر من كان يتناوب عليه بالضرب بسياط مجدولة من اسلاك حديدية. لم يستطع الاحتمال. خرّ على ركبتيه. نزعوا حذاءه من رجله اليسرى واخذوا يشققون كعب رجله بآلة حادة.

كان الليل قد انتصف عندما جروه، الى سيارة، فلم يكن يستطيع ان يضغط بكعب رجله على الارض. كان طوال الطريق من حمص الى دمشق ينزف دما. ولما وصلوا به الى شارع بغداد، حيث مقر عبدالوهاب الخطيب، كان الاعياء قد اخذ منه مأخذا.

رموه في الزنزانة. سمحوا له بشرب كوب ماء واحد. قبل ان يبدأ عبدالوهاب الخطيب التحقيق معه. وكلما تأنى فرج الله الحلو في الرد، كان الخطيب يهوى عليه صفعا.

تعب منه بعد ساعات طويلة من التحقيق. صرخ يدعو وجيه انطكلي.

فدخل الزنزانة رجل ربعة في القامة. دميم الوجه. افطس الأنف. بارز الحاجبين تغور تحتهما عينان بياضهما أحمر. تناول فرج الله الحلو من رقبته ودفعه، فالتطم رأسه بقضبان الحديد فشقته وحنّى الدم وجهه وصدره.

وبدأ وجيه انطكلي يتفنن في إيلام فرج الله الحلو، الذي كان يكتفي بالانين والتوسل ان يريحه لحظات من اللكم والركل وان يخفف من نزول السوط على ظهره، فقد تشقق جلده وأصبح السوط ينزل على اللحم والعظم.

فَقَدَ وجيه انطكلي السيطرة على شهوته الغريزية للدم. اصبح يخور مثل ثور مذبوح.

لم يعد فرج الله الحلو يتحمل الألم. سقط بين جلاده مغميا عليه. حاول رفعه عن الارض، فاذا به يتلاشى. جسد بلا حراك. فظن ان الروح قد فارقت الجسد المشقق يغسله الدم. فرماه ارضا وهرول مسرعا الى مكتب عبدالوهاب الخطيب.

لم يعرف كيف فتح الباب. كيف تجرأ على الوقوف أمامه. كان على قساوة قلبه يرتجف. تلعثم. ضيّع الكلام. بالكاد افلتت من بين شفتيه الغليظتين كلمة «مات» وانتبه فألحقها بكلمة «سيدي».

أعاد الكلمتين.. ظن ان عبدالوهاب الخطيب لم يفهمهما.

لو ان صاعقة نزلت عليه لما بهت ضابط الاستخبارات بهتته عند سماعه كلام وجيه انطكلي. اصطنع عدم الاهتمام. عائد قلقا تشبث في ملامح وجهه الحادة. أمر وجيه انطكلي بالخروج وانتظار الاوامر.

سمعه وجيه انطكلي، يدير قرص الهاتف. يحكي. لم يعرف من كان على الطرف الآخر.

ما ان وضع سماعة الهاتف حتى صرخ يناديه:

ـ لا نستطيع تسليم الجثة. تخلص منها. لا أريد أي أثر لها. احرقها. لا... لا... أذبها بالاسيد في مغطس الحمام.

حمل وجيه انطكلي جسد فرج الله الحلو الى الحمام. كان ما يزال مغميا عليه. حاول ان يضعه في المغطس فوجد انه لا يسعه. حاول تحريك الجسد في كل الاتجاهات والوضعيات. فلم يتمكن. خرج الى غرفة مجاورة. استل منشارا حديديا، وبدأ ينشر الرجلين عند الركبتين.

اول ما لمست اسنان المنشار رجل فرج الله الحلو. صحا من غيبوبته من الوجع. صرخ متوسلا. انتابت وجيه انطكلي رعدة ذعر. بدأ يصرخ بدوره وبحركة لا شعورية انهال بالمنشار على رأس فرج الله الحلو حتى فجّه. وتابع بعدما تيقن انه مات هذه المرة، نشر الرجلين. ثم صبّ الاسيد على الجسد المقطع، وجلس يأخذ نفساً طويلاً من سيجارة كانت تتلوى بين شفتيه الغليظتين.

اختفاء فرج الله الحلو، هز الصحف البيروتية. وتحركت آلة الشيوعيين الاعلامية. تؤكد سفره الى دمشق وتطالب السراج بالافراج عنه اذا كان معتقلا وبالكشف عن مكان خطفه وتسليم الخاطفين الى العدالة!

قابل عبدالحميد السراج الحملة الاعلامية بصمت أطبق عليه وعلى الصحف الدمشقية. كأن الامر لا يعنيه... أو كأن فرج الله الحلو لم يقطع الحدود اللبنانية الى الحدود السورية.

ووصل الامر الى موسكو. فوجه نيكيتا خروتشوف نداء علنيا للرئيس جمال عبدالناصر، يطالبه فيه الكشف عن مكان وجود المناضل الشيوعي اللبناني..

ورد جمال عبدالناصر على نيكيتا خروتشوف من ميدان التحرير في القاهرة، لما وقف في الصمريين خطيبا. منكراً ان يكون فرج الله الحلو قد دخل الاراضي السورية من لبنان لا برا ولا بحرا ولا جوا.

عبدالوهاب الخطيب، جلاد السراج المقرب، هو الآن في مصر. هرب اليها بعد الانفصال، ومن المؤكد ان الشخص الذي كلمه بالهاتف قبل نصف ساعة فقط من تذويب جسد الحلو، لحق به...

وجيه انطكلي اعترف. حوكم ومات في السجن.

ولو كان جمال عبدالناصر ما يزال حيا... لكان أنكر مرة ثانية و... إدّعى.

الفصل السادس

في مملكة الحسين



- ١ -

غمرني شعور بالراحة لما دخلت فندق «الكَنْدَرَة» في جدة.

تمدد التعب في جسدي بعد يوم طويل من اللقاءات والتجوال تحت شمس لا تعترف بالفصول، ولا ترتاح حبال أشعتها من التوهج، تلملم الفيء بلسانها الممدود. تطوقك. تشعر انها تتحرش بك. تندس فيك. تخترقك الى العظم و. . . تلسع.

كنت أول مرة استسلم لشمس جدة. وصلتها في أيار (مايو) ١٩٥٧ ملبيا دعوة وزير الداخلية الامير عبدالله الفيصل، ومدير عام وزارة الاعلام عبدالله بلخير.

تسللت الى جسدي برودة شعرت بدبيبها في مفاصلي، كانت منبعثة من مكيف الهواء المتمسك بحائط في زاوية الردهة الكبيرة في الفندق. . . كانت تهون علينا ثرثرته المتواصلة وهديره المتقطع، نلوذ ونعوذ به من الحر اللافح. . .

سحب مني موظف الاستعلامات نشوتي بالبرودة، وعاد صوته يشد اعصابي المتراخية وهو ينادي عليّ. سقطت عيناي على البرقية:

«في الاردن حركة في الجيش. الملك في أزمة. مطلوب سفرك الى عمان».

كانت البرقية من عباس الحامض، نقيب المحررين السوريين ورئيس تحرير «القبس». طويت الورقة بأصابعي. دارت في رأسي افكار متلاطمة، حاولت ترتيبها. وجدت نفسي أرتقي سلم الطابق الاول بدعسات متسارعة. جلست على حافة السرير في الغرفة. فبدأت تتجمع صور طافت في ذهني. وبدأت أجد تفسيراً لانهماك عبدالله بلخير، يومها، ومحاولته الغمز، ونحن نتجاذب أطراف الحديث، من أن تطورات كثيرة قد تحدث في مقبل الاسابيع. ظننته يقصد ما كان يدور حول «حلف بغداد» ونوري السعيد، والخلاف السوري ـ العراقي. . . ومحاولة هزهزة الحكم العسكري في دمشق. ولم يتبادر الى ذهني لحظة واحدة، انه كان يقصد هبوب عاصفة الانقلابات على مملكة الحسين بن طلال.

أدرت قرص الهاتف. سألت المناوب على البدالة أن يوصلني بوزارة الاعلام. وما كاد يأتيني صوت عبدالله بلخير، حتى بدأت أجمع في صوتي كل نبرات الاعتذار الاضطراري: قطع الزيارة وابلاغ الامير بذلك. وقبل ان أشرح له أسباب مغادرتي

المبكرة للسعودية وايام زيارتي لمّا تنته بعد ، وجدته يلملم عني باقي الكلام:
نعرف يا أخ غسان ان الاخبار داخلين في عمان وليست في جدة . . .
وأرسل ضحكة، تسللت عبر الاسلاك الى أذني، فبادلته بمثلها.
رميت نظرة أخيرة على الغرفة. وانا اضغط على قفل الحقيبة الجلدية. حملتها ومشيت.

سلك السائق رأس الشارع المؤدي الى مطار جدة. نزهت عيني في الاشياء المتراكضة من أمامنا، لترتمي خلفنا بسرعة انسيابية. كان تفكيري يتجمع في عمان. لا أعرف ماذا ينتظرني فيها بعد ساعات. وما اذا كنت سأصلها لأرى الملك على دبابة عسكرية يعلن قيام «الجمهورية» وخلفه تزعق من مكبرات الصوت موسيقى المارشات العسكرية ، فيعتاد الشعب الاردني عليها كما فعل السوريون منذ عام ١٩٤٩.

أحسست بانقباض. هززت رأسي كأني أرمي منه هذه الصور المتلاحقة. لمعت في عيني انوار مطار جدة.

سجى الليل. سخت على جدة ريح بليل أذابت في مفاصلها برودة. من نافذة الطائرة كانت أضواء المنازل مثل عيون غول تلمع في العتمة، اختفت لمّا غرست الطائرة رأسها في الغيم الاسود.

- ٢ -

ساح تفكيري على زجاج نافذة الطائرة. ارتسمت في السواد أمامي المشاهد: دبابات العسكر تطوق المطار. تتهالك أنامل العناصر على الحقائب. تهبط على مهل على الاجساد تفتشها. تقرأ العيون في جوازات السفر. تحصي الوجوه. تمرق على التفاصيل. أسئلة وأجوبة: من أين والى اين؟ تحمر العيون، تتغرغر الحناجر بالتعجب: «صحافي»! تذكرت عبدالحميد السراج. «يا استاذ. . . كل صحافي مشبوه وكل من كتب حرفا جاسوس». . . أخفيت أشلاء ابتسامة في زاوية فمي.

كنت على شبه يقين بأن للسراج علاقة بما يجري في عمان. فحاولت ان استعرض بسرعة مواقف المليك الهاشمي الشاب حيال العديد من القضايا السياسية التي كانت موضع أخذ ورد بين الشام والعراق ومصر. فكل الاسباب كانت متوفرة لـ «السلطان الاحمر» ليغدر بالعرش وبالمليك، بغية تطويق العراق، الذي بات يزعج جمال عبدالناصر. وسنوح الفرص هو رهان السراج، وكنت أعرف جيدا انه ليس من النوع الذي يرمي النرد قبل ان يملك الرهان. فعلى من تراه راهن في الجيش الاردني لقلب العرش؟

أعادني صوت قائد الطائرة الى صوابي. حاولت والطائرة تقضم بعجلاتها أرض

المدرج السنجابي، ان استطلع بعيني ما يدور في المطار. لم أعرف كيف هبطت سلم الطائرة. دارت نظراتي في زوايا المبنى، افتش عن دبابة عن شاحنة عسكرية. داخل ردهات المطار، لم يكن هناك ما ينبىء ان في البلاد حالة طوارىء. تيقنت من ان الحسين سحق العساكر المتمردة على عرشه.

تهالك جسدي المتعب على المقعد. أرخيت رأسي على المسند الخلفي وتركت السائق ينساب في الشوارع والازقة الى فندق «فيلادلفيا».

فتشت باصابعي وانا لما أزل مغمض العينين عن الساعة بين اغراضي المبعثرة على طاولة صغيرة قرب السرير، فاذا بعقاربها تميل الى السابعة صباحا. شعرت بالنور يقتحم الغرفة متسللا من خلف الستائر، أزحتها بلهفة. مررت بعيني على الشارع الحركة عادية. لا ظواهر لحركة مسلحة.

ترددت في الضغط على ازرار الراديو. تذكرت وصية حفظتها من زمن: لا تسمع اذاعة البلد الذي تزوره ولا تقرأ صحفه فهي تكذب عليك بالسمع والبصر.

اتصلت بالسفارة السورية. كان السفير فؤاد قضماني [نقيب المحامين السوريين قبل دخوله السلك الدبلوماسي] يؤثرني بمكانة في قلبه، لأنني كنت صديقا لنجله وليد. كان يجهل تماما مدى سوء علاقتي مع السراج. اعلمته بوجودي في عمان. رحّب. لكنه كان مقتضبا في الكلام، فاستشفيت منه حرج التحدث عبر الاسلاك المراقبة. ضرب لي موعدا في مكتبه فالتقينا.

عرفت من السفير قضماني خفايا ما كان يدور، وعلى الرغم من كرهه «لعصابة الضباط العشرة» الحاكمة في دمشق، تجنب بدبلوماسيته المعهودة ذكر الاسماء. الا انه تركني أفهم بأن حركة اللواء علي ابو نوار كان لها من يؤازرها في «الخارج» و«الجوار».

و«الخارج» و«الجوار»، كان الدس والتآمر الذي ضلع فيه عبدالحميد السراج. فبعدما بث جواسيسه الى بيروت، وركز فيها عملاء ومرتزقة، متى سأل أجابوا ومتى طلب نفذوا. أدار وجهه صوب الاردن، وبدأ ينفث فيه النار. وكانت الشرارة الاولى تفجير مبنى رئاسة الحكومة في عمان، وقت كان هزاع المجالي فيه، فقضى نحبه تحت الانقاض ومعه عشرات من الموظفين والمعاونين[1]. ومد السراج يده الى الجيش الاردني. أوغر صدر قادته يواطئهم ضد الحسين. ودفع باللواء علي أبو نوار الى التمرد ورفع الصوت ضد المليك والعرش، محركا دباباته باتجاه القصر. الا ان الحسين تمكن من وأد التمرد والقاء القبض على قادته.

اقترح عليّ السفير فؤاد القضماني بأن أزور «دولة الباشا»! لملم من وجهي علامة التعجب واستدرك: «دولة الباشا» بهجت التلهوني، رئيس الديوان الملكي... سأرتب لك موعدا على الارجح يوم غد».

- ٣ -

رنّ جرس الهاتف في الغرفة.

طلع عليّ صوت موظف الاستعلامات يطلب مني النزول الى ردهة الاستقبال، فان شخصا يسأل عني ويود مقابلتي.

توجست من مخبوء. تحايلت على اضطرابي وأنا أسوي عقد ربطة العنق. زار ذهني ظن، ان حملة بدأت على الصحافيين، الذين كانوا قد بدأوا يتجمعون في عمان لتغطية اخبارها، وكنت قد التقيت اثنين سوريين وصحافيا لبنانيا في بهو الفندق.

رمى السلام وانحنى قليلا. ربعة في القامة. يزين وجهه الأسمر شاربان رفيعان تحت انف دقيق. تملاّني بسرعة. وقال بصوت خفيض: دولة الباشا في انتظاركم في المقر.

شعرت بزهو غريب. رسمت على فمي ابتسامة الرغبة والقبول. أفسح لي الطريق ومشى خلفي. فاذا بسائق سيارة الباشا، لما رآنا، يفتح الباب الخلفي، جلست. بينما جلس الشاب في المقعد الامامي.

ومن يستطيع الا ان يفسح الطريق لسيارة «دولة الباشا»؟ كنت أشعر بأعين المارة تلتصق على زجاج شبابيك السيارة مستفسرة عن الجالس فيها. والرؤوس تدور معها، والاصابع تدل عليها. قضمت السيارة الطريق الى المقر، أي قصر بسمان، بسرعة. على باب القصر حراس من الشركس ينتصبون برماحهم الطويلة. وعساكر بزي القتال تحرس مداخله. تسابق خادمان على فتح الباب. وما ان دخلت الرتاج، حتى تقدم مني أحد موظفي المراسيم مرحباً مبتسماً:

ـ دولة الباشا سيكون معك بعد دقائق».

مد خطواته امامي في الردهة الكبرى. ثم انعطف يمينا في ممر طويل. تركني في غرفة الانتظار الانيقة انتظر «دولة الباشا».

دارت نظراتي في أرجاء الغرفة. تنزلق من الحيطان الملبسة بالمخمل الى اللوحات الزيتية الكبيرة، لتستقر على المنافذ الرخامية وتتعلق في السجاد العجمي المشكل والمعجوق بالالوان...

ـ أهلا... اهلا أستاذ غسان كيف حال عبدالحميد بك؟

لفني الصوت بالانقباض. تسرب الى ملامح وجهي. ارتسم في عيني استغراب حاول بهجت تلهوني ان يحتويه، يزيله بابتسامة عريضة. ضغط على يدي:

ـ سعادة السفير، أبلغني رغبتك في مقابلة جلالة الملك...

كان يقول كلامه هذا وهو يسير بي الى مكتبه:

ـ ستقابله بعد نصف ساعة.

نزل كلامه برداً عليّ. تمدد الاطمئنان في اعصابي المشدودة وبقي شعور بالحيرة

والامتعاض يطوف في مخيلتي يلاطم الاسئلة : كيف عرف انني عديل السراج؟ فلقد كنت اكره ان يكتشف الناس نسابتي له. ثم كيف أدخل قصر الحسين و«العديل» وراء التآمر على صاحب القصر والعرش؟ أي حرج أنا فيه؟

كان بهجت تلهوني يحدثني ، بينما تدور هذه لافكار في رأسي ، شعر بالغضب والحرج. . . كنت أراه يتكلم وما كنت اسمع الا صوت افكاري المتلاطمة. رنين جرس الهاتف اعادني الى صوابي. وقف بهجت تلهوني ، احكم تبكيل ازرار سترته :

ـ جلالة الملك سيستقبلك الآن.

ـ ٤ ـ

دخلت عليه. كان واقفا خلف مكتبه . مشى نحوي. قدمني بهجت التلهوني. رسم الملك على وجهه ابتسامة مترددة. تركنا رئيس الديوان وحدنا. انتظرت الى ان جلس على مَقعد قبَالتي، فجلست.

كان يتكلم بهدوء . نظره الثاقب الحاد كان يلسع وجهي. شعرت بأنه كان يخفي مرارة وهو يكلمني عن «الاخوة» و«الجيرة» ملمحا ما أمكنه لذلك الى عدم احترام الاخوة الكرام في دمشق لحسن الجيرة والجوار.

وتكلف الحسين عدم الغضب، الذي كنت أراه يخفيه في زوايا عينيه وهو يكلمني عن «أشباه الرجال» الذين يريدون تلقينه درسا بالوطنية متناسين ما للبيت الهاشمي من مواقف وطنية على كر العصور. تنبه الى أن صوته علا. . . فعاد الى توازن النبرات.

اعطاني الامان والكلام. حاولت بها أوتيت أن أُفهمه بأنني أعرف تاريخ البيت الهاشمي . وعددت له المواقف والتواريخ. وعدت أسأله، كأي صحافي في حضرة ملك كاد عرشه يهتز، عن حركة أبي نوار وملابساتها. أحسست من اجاباته ، التي كانت تحور وتدور وتلامس بديبلوماسية أطراف «المؤامرة» وملابساتها، أنه كان يشعر أنه ليس أمام صحافي يلهث وراء سبق في حديث بقدر شعوره بأنه أمام «عديل» من كان وراء التـآمر عليه. وان هذا «العديل» الصحافي لا بد انه جاء عمان للملمة أخبارها وحشرها في «تقرير» يرفعه الى نسيبه!

تكمش هذا الاحساس في نفسي، لما اخذ الحسين يبث في مجرى كلامه اشارات معينة حول عبدالحميد السراج. كأنه يريدني ان أبثها بدوري الى «السلطان» متى عدت الى دمشق! [اترك تفاصيلها فهي أصبحت للزمان].

استمرت المقابلة ما يزيد على الساعة، انهاها الحسين بلباقة. وقف على الباب يودعني. احتوى وداعي له بنظرة مشت على وجهي بسرعة واكتفى بابتسامة : «بأمان الله» . . .

تولاني شعور بالامتعاض. سيطر عليّ غضب مقيم. تهت في الممرات المتشابهة بحثاً عن مكتب بهجت التلهوني. عرفته في آخر الممر من مسكة بابه المذهبة. دخلت عليه. فاذا بي أجد اللواء محمد رسول الكيلاني [رئيس الاستخبارات] جالساً اليه. قدمني رئيس الديوان الملكي. تغلبت على ترددي في الكلام:

دولة الباشا، لقد وددت مقابلة جلالة الملك من أجل حديث صحافي حول حركة التمرد، فاذا بي أشعر من خلال حديث جلالته . انه يريد تحميلي كلاما معينا لشخص لاود بيني وبينه، فضلا عن ان خلافاتنا السياسية باعدت بيننا. فأرجو ان تبلغ جلالة الملك ذلك. لقد دخلت عليه وأنا صحافي وخرجت منه وأنا لا أزال صحافيا.

كان بهجت التلهوني يلتقط كلامي بتنبه. يهز برأسه كأنه يوافقني على ما كان يسمع. رمقني بنظرة جمع فيها ما استطاع من تحبب:

ـ نلتقي الليلة على العشاء... السيارة ستكون على باب فندق فيلادلفيا السابعة مساء.

★★★

بيته كان على ربوة، تنام تحتها عمان. جلسنا بعد العشاء على شرفة المنزل. كانت عينا بهجت تلهوني تسرح في المدى بين الحين والآخر وهو يزيل من مخيلتي ما علق بها حول نسابتي للسراج، وأفهمني أن السفير القضماني أبلغه أنني صحافي بالدرجة الاولى، وأنني مدير «القبس». ثم اتبع ذلك بأنني «عديل» السراج، ظناً منه ان ذلك قد يسهل عليّ الامر، من دون ان يسهب السفير بتفاصيل علاقتي «بالعديل».

اشعرني بهجت التلهوني انه يعرف أدق التفاصيل عن علاقتي بالسلطان الاحمر. وليزيدني وثوقا من ذلك راح يحكي لي عن تفاصيل تآمر اللواء على ابو نوار وصحبه. ومدى علاقة عبدالحميد السراج واعوانه به. وتركني اسجل كلامه حرفا... حرفا.

امتد بنا الكلام وكذلك الليل حتى بعد منتصفه. سألني ان ابقي ثلاثة ايام أخرى بضيافة المملكة. وضع بتصرفي سيارة ومرافقا وبرامج مشبعة بالتجوال. قادتني الى القدس الشرقية ومنها الى الخليل وبيت لحم ومررت برام الله صعودا الى نابلس فجنين وطول كرم مدن المثلث...

و... في اليوم الثالث استأذنته بالسفر.

ـ ٥ ـ

ما عرفت أننا وصلنا الى مخفر درعا الا عندما نشر الجندي الواقف على الحدود السورية ـ الاردنية لكنته الحلبية، طارحاً السؤال السخيف: من أين جئتنا. هم كذا خفر الحدود يحبون الاسئلة السخيفة.

طوال الرحلة في السيارة كنت منشغل البال، أحار كيف انشر ما قاله لي الملك وما استفاض رئيس ديوانه بشرحه عن علاقة السراج بالتآمر على الحسين وتحريك نفر من الجيش ضده.

مع ان التعب هدني هدأ ولم أنم. صرفت الليل اعد خطواتي، تتسابق أناملي على علبة السجائر، امتص الواحدة بعد الاخرى.

حاولت ان اغرس القلم على الورق الابيض أمامي، فكان يردني عنه تلبك افكاري. كنت كمن يريد ان يفرغ كل جعبته في كلمة واحدة. في سطر واحد. ولا يجد تلك ا لكلمة ولا يعرف مبتدأ السطر من خبره.

وعدت اركز القلم على الورق من جديد. وبدأ الكلام يولد من حبره ويسيل على البياض. ما طلع الفجر الا كنت انهيت تحقيقا احتل مكانا على صفحة «القبس» الاولى، ذكرت فيه ان الانتصار الجزئي الذي حققه الحسين بن طلال على حركة علي ابو نوار. لم يقض على نزعة التآمر التي حاكتها أيدي مجربة داخل القوات المسلحة. وذكرت في المقال ان الاجهزة الاردنية ترصد تمردا آخر جد قريب في الجيش... وتركت الامر مشكولا. ونسبت الكلام الاخير الى الملك. وكنت مصيبا في تحليلي، فلم يمض وقت طويل حتى كان اللواء علي الحياري يحرك دباباته في معسكرات الزرقاء وكاد يقضي على العرش الهاشمي، لولا ان الحسين أخذ المبادرة اولا، فاقتحم قاعة الضباط المتآمرين وخاطبهم قائلا:

«اذا اردتم روحي فخذوها الآن وأنا بين أيديكم. لكن... انقذوا البلاد والمملكة من سفك الدماء»[٢].

واروي هنا للتاريخ. انني حملت ما قاله لي بهجت التلهوني الى نصوح بابيل نقيب الصحافيين ورئيس تحرير جريدة «الايام»، واخبرته جانبا من لقائي بالحسين بن طلال. وشكوت له حيرتي وسألته رأيا في كيفية التصرف بالمعلومات الخطيرة التي ذكر بعضها الملك وبعضها الآخر قاله لي بهجت التلهوني.

استولت النشوة على نصوح بابيل، الذي كان يعتمر في قلبه الغضب ضد السراج، الذي حاول اكثر من مرة استمالته فأعرض ورفض كل الاغراءات التي وضعها السلطان في دربه لاجتذابه، فما نزل الى درك رؤساء التحرير الآخرين، الذين استزلموا وداهنوا ومالقوا السلطان وأصبحوا خدماً في بلاطه.

لقد وجد نصوح بابيل في تلك المعلومات ما يشفي غليله. فطلب مني كتابة ما قاله التلهوني، فأخذه، وصاغه في تحقيق صحافي ذكر فيه الاسماء والتواريخ كاشفا دور السراج واعوانه وأجهزته وجواسيسه في الاردن، أعدنا قراءته عشرات المرات. وكانت الخطة تسريب التحقيق الى جريدة «الحياة» البيروتية، فلقد كانت لرئيس تحريرها كامل مروة، رحمه الله مكانة في البيت الهاشمي ومنزلة. وبعد نشر التحقيق

بأربع وعشرين ساعة تنقله «الايام» عن «الحياة» في الصباح و«القبس» عن «الايام» بعدالظهر.

أرسلنا التحقيق المطول. نشرته جريدة «الحياة» على صفحتها الأولى.

وبعد أربع وعشرين ساعة كانت جريدة «الأيام» تصبّح الشام بعناوين التحقيق النافرة و«القبس» تمسيها به.

اعادة النشر عن «الحياة» لم تكن كاملة. اضطررنا بدافع الخوف من التعقبات والملاحقات والارهاب والقمع و. . . «المزة». ان نشطب اسم عبدالحميد السراج، حيثما ورد في التحقيق والاستعاضة عنه بهلالين كبيرين وبينهما ثلاث نقط. . .

★★★

كان يجلس ساهما شارد الذهن، يغلّف وجهه بالامتعاض. لم يفاجئني حضوره وزوجته مَلَك، لما دخلت البيت عند المساء فلقد اعتدت منهما على مثل تلك الزيارات المفاجئة في العشايا.

ما كدت ارتاح على المقعد، حتى بادرني مبتسماً:

ـ من أين جاءتكم معلومات محاولة الانقلاب في الاردن؟

تكلفت الدهشة واجبت ببراءة:

نقلناها عن جريدة «الايام».

ـ جريدة «الأيام»، من أين نقلتها؟.

تصنعت عدم المعرفة وقلبت شفتي السفلى ولم أرد.

وبهدوء ثعلب يهمّ بالانقضاض، على فريسته، سحب من حقيبة جلدية صغيرة جريدة «الحياة» البيروتية ووضعها على المنضدة. تناولتها. قلبتها بأصابعي. نظرت اليه على اتساع عيني وقلت:

ـ عجيب. . . والله عجيب . . .

واتبعت كلامي بابتسامة خبيثة.

ـ عجيب كيف ينقل الصحافيون من بعضهم البعض. لقد نقلنا عن «الايام» و«الايام» جاءتها معلومات من مراسلها في عمان، الذي على ما يبدو يكاتب «الحياة» البيروتية في آن معا. وهذا يحدث كثيرا. فلا تستطيع ان تضبط مراسليك في عواصم العالم. . . فتقع في مثل هذه الاشكالات.

ورميت «الحياة» بعصبية المستاء من تصرف شاذ. . . فأنقذني صوت زوجتي، يدعونا الى العشاء من حديث كان يمكن ان يمتد ويتوسع ويؤجج الخلاف بيني وبين السلطان، الذي كان وقتها ضرب طوقا على الصحف واوعز الى فؤاد الشايب، مدير الانباء في حينه ان يفرض على أخبار تنقلاته وتحركاته ونشاطاته رقابة صارمة، بحيث

تصدر الجرائد خلوا من الحديث عنه ، فلقد كان السطان الاحمر يبتعد عن الاضواء ليتسنى له في الظلمة حبك الدسائس والمؤامرات ثم . . . الانقضاض على فريسته .

- ٦ -

إن أنت ضيعت عزيز عباد، النائب والسياسي، تجده مع زوجته جهينة في بلاط السلطان. ذلك ان الست مَلَكْ كانت تأنس لجهينة، والسلطان كان يحب الاصغاء للنائب، الذي كان يفرغ في أذنيه حكايا ما يدور في الاروقة ووراء الكواليس.

عزيز عباد، وصل الى البرلمان عام ١٩٥٤ بأصوات القوميين الاجتماعيين، وأصوات آل سلمان المرشد [الذي اعدمه شكري القوتلي في الاربعينات] . . .

قبيل ما سمي بـ «المؤامرة» السعودية التي سنأتي على تفاصيلها فيما بعد، استماله عبدالحميد السراج، كما استمال واحتوى غيره من السياسيين والنواب، ومنهم من كان ثريا او اقطاعيا او ابن حسب ونسب وعائلة يقف السراج امام أصولها حاقدا ناقما.

في وضح النهار، كان السلطان يخطب في الناس داعيا الى «الاشتراكية» ويدعي حرصا على «الاقتصاد الوطني» فيجرد الحملات لمطاردة المهربين، الذين كانوا ينقلون على ظهور البغال، السلع الكمالية من الاسواق اللبنانية، وفي العشايا كانت موائده تزخر بأطايب بيروت وجبلها وربطات عنقه من أفخم محالها. . .

يشن حربا على الاقطاعيين ويحالف خالد العظم، سليل أكبر عائلة اقطاعية في سورية وتصبح زوجته مَلَكْ صديقة ليلى العظم الحميمة. ولا يخلو مجلس مَلَكْ من قرينة واصف كامل [ابنة عائلة الشيشكلي المعروفة في دوما]. ومن النادر ان تزورها ولا تجد عندها قرينة عزت الطرابلسي حاكم مصرف سورية المركزي. . . غير ان بين هؤلاء جميعا كان عزيز وجهينة عباد الأقرب والأعز. . .

ومثلما كان السراج على تقلب في الرأي وتحول، كانت مَلَكْ تجاريه الطبع والطباع. فاعترى الجفاء فجأة علاقتهما بعزيز وجهينة عباد، تحولا بين ليلة وضحاها من صديقين حميمين الى عدوين لدودين. وانتشرت شائعات مثل الوشم تطرز أحاديث زوار بلاط السلطان، من ان النائب عزيز عباد، أخذ يستغل قربه من عبدالحميد السراج ليحقق مكاسب مالية ونفوذا يوصله الى مآربه واطماعه.

ولا يمضي كثير وقت، حتى تعود ترى عزيز عباد في مجلس السلطان الاحمر وزوجته. كأن شيئا لم يكن. وكأن الجفاء كان غمامة صيف انقشعت. . . الى ان كانت «المؤامرة» السعودية التي وظفها عبدالحميد السراج ليشدد قبضته على سورية والسوريين ويستثمرها لدى الرئيس جمال عبدالناصر ، ليقبض ثمنها مناصب نقلته من وزارة الداخلية الى رئاسة المجلس التنفيذي [رئيس الحكومة] الى نيابة رئيس

الجمهـورية فما نافسه في اللقب الاخير غير الماريشال [المشير] عبدالحكيم عامر، الذي صار واليا على سورية في أواخر عهد «الوحدة» بين الكيانين المصري والسوري.

لم يعرف عن عزيز عباد الثراء، الا بعد انكشاف «المؤامرة» السعودية. قيل يومها انه اغتنى من مبلغ المليوني دولار الذي حصل عليه «هدية» نتيجة تعاونه في الكشف عن تلك «المؤامرة» المزعومة.

و... قيل يومها أيضا، ان الملك سعود بن عبدالعزيز وفر اكثر من مليوني دولار للاطاحة بـ «الوحدة» بين دمشق والقاهرة[3].

الرئيس جمال عبدالناصر تحدث من على شرفة قصر الضيافة في ساحة التحرير في دمشق، قال، ان العـاهـل السعودي دفع عشرين مليون دولار للاطاحة «بحلم القومية العربية»، حسبما قال...

... واذا كان عزيز عباد قد جنى من «المؤامرة» مليوني دولار... فأين اذن ذهبت الملايين الثمانية عشرة الباقية؟

---

(١) كشف لي أحد الاصدقاء فيما بعد بأن الانفجار الذي أطاح بهزّاع المجالي، رئيس الحكومة الاردنية، وبعدد كبير من معاونيه وكبار موظفيه كان واحدا من انفجارين، قام بهما مستخدم في رئاسة الوزراء بمساعدة رفيق له دخل المبنى خلسة. زرعا المتفجرة الاولى لتقتل المجالي ومن معه، حتى اذا ما انتفض الحسين بن طلال المعـروف بحميته وشهامته واندفاعه لزيارة مكان الانفجار والاطلاع على الدمار والخراب، تنفجر بعد أربعين دقيقة عبوة ثانية لتقتله وصحبه. الا ان حرسه الخاص منعوه وهو على بعد امتار من المبنى المدمر عن الاقتراب من الاطلال، بل ان أحد كبار ضباطه وكان شركسيا هدده بالقتل اذا ما أصر على الدخول قائلا:

«يا سيدنا أنت المقصود وليس هزّاع المجالي». جرت هذه الحادثة في أواخر عام ١٩٥٨.

(٢) صحّح لي أحدهم وهو على دراية بمرحلة الاضطرابات في مملكة الحسين ان الكلمة التي ألقاها الحسين بن طلال في ضباطه في معسكر «الزرقاء» لم تكن اثناء محاولة اللواء علي الحياري لقلب نظام حكمه، بل ان الحسين قال هذا الكلام بعد فشل اللواء علي ابو نوار في حركته وعصيانه التي سبقت حركة رفيقه بالسلاح بحوالى ثلاثة اسابيع فقط...

(٣) يعرف صديق كان يعمل في بنك سورية المركزي خلال شهر آذار (مارس) ١٩٥٨، ان المصارف السورية التي كانت تعمل حرة قبل تأميمها ودمجها في مصرف يسمى «البنك التجاري السوري»، كان يتوجب عليها ان تقدم كشفا بموجوداتها من النقد الاجنبي.

«البنك العـربي» الذي ما زال عبدالمجيد شومان يترأس مجلس ادارته في عمّان، وكان يدير فرعه واصف كمال، [جار عبدالحميد السراج في مبنى سكنه في شارع الجاحظ من حي ابو رمانة]، قدم الى البنك المركزي بيانا في شهر شباط (فبراير) ١٩٥٨ اكد فيه توفر مليوني جنيه استرليني في خزانته في مطلع نيسان (ابريل) ١٩٥٨. بعدها نقص المبلغ ١٠٠ ألف جنيه استرليني، اعطي النائب عزيز عباد من ذاك الحساب الذي كان مفتوحا باسم «ع. س» التي عنت الحروف الاولى من اسم السراج، والتي كانت تساوي في ذلك العام مليون ليرة سورية.

سألنا صديقنا: لكن اين جواب سؤالنا عن مصير بقية الملايين قال:

للحقيقة والتاريخ، هذا ما دخل حساب عبدالحميد السراج في «البنك العربي» الذي كشف لمصرف سورية المركزي. وللحقيقة عزيز عباد لم يقبض اكثر من المائة الف جنيه، اما اذا كانت هناك دفعات اخرى ذهبت مباشرة الى عبد الحميد السراج، عبر اقنية اخرى فلم احط بهاعلماً وأنا الذي كنت مسؤولا عن حسابات النقد الاجنبي في المصرف المركزي لكل المصارف العاملة في الجمهورية السورية فهذا امر لا استغربه . . . فالمعروف ان أجهزة الاستخبارات في العالم تدخل الى صناديقها اموالا و«تبرعات» كالتي تبرع بها مثلا نجيب منهل (الفصل الرابع)، لا يلتزم بأي حال من الاحوال رئيس جهاز الاستخبارات بتقديم اي كشف عنها لاي سلطة في الدولة. فاذا فعل ففي حدود جد ضيقة. وقد تكون المبالغ التي اشرتم اليها في الحديث عن ما سمي بـ «المؤامرة السعودية» تدخل في هذا السياق.

★ في ١٥ من ايلول (سبتمبر) ١٩٩١ توفي اللواء علي ابو نوار في لندن عن ٦٦ عاما. بعد اعتقاله على اثر محاولة الانقلاب على الحسين اعفي من منصبه الا ان العاهل الاردني أعاد اليه اعتباره وعيّنه ممثلا شخصيا له ومن ثم سفيرا للاردن لدى قصر الاليزيه. كما شغل أبو نوار مناصب رفيعة عدة. وهو عضو في مجلس الاعيان الاردني.



الفصل السّابع

تركيب الصحافة



- ١ -

ما كاد شارع نوري باشا في منطقة الجسر الابيض، ينفض عنه الليل وتندس في مفاصله أشعة شمس ربيعية بليدة تستحثه على الحركة، حتى سدّت منافذه شاحنة عسكرية ، قفز الجند منها. نشروا الرعب بدعساتهم المتسارعة. توزعوا الابنية. تتـدحـرج أعينهم المسنونـة على الطوابق. تستقر على الشبابيك والمداخل متلهفة لالتقـاط حركة غريبة. زنروا احدى البنايات في وسط الشارع بالبواريد. هتكت عري الشارع سيارة «فورد» برتقالية اللون، نشر هدير محركها ذعرا بين الجند. حشر سائقها فمها في مدخل تلك البناية فسده. ترجل منها ثلاثة كان بينهم سامي جمعة [ابو سمير] رئيس مفرزة الاعتقالات والتعذيب في أوكار وأقبية عبدالحميد السراج.

شقّت الباب قليلا مستفسرة بصوتها عمن يكون الطارق في مثل تلك الساعة المبكرة. فأزاح سامي جمعة الباب بعصبية وترك نبرات صوته الخشن تدبّ في أرجاء البيت توقظ من فيه.

«نريد النقيب المالكي». زمجر بحنق، وأومأ الى أحد العناصر بالدخول فانتصب على الباب.

ـ أنا هو. . . .

خلف الصـوت وقف شاب طويل القامة، جسيمها، متناسب الوجه يتجمع العزم في قسمات وجهه، لامع الشعر براق العينين أسودهما، تدوران خلف نظارة طبية تزيد من ملاح الوجه ثقة وتشي بوسع مدارك صاحبها.

ضم أمه الى صدره ، فانتزعه سامي جمعة عنها ودفعه الى العنصر فتلقفه بصفعة على وجهه ثم بحركة سريعة لَوَى العنصر ذراع النقيب خلف ظهره وجره الى الخارج وسط عويل الام واعـتراض شقيقيه هشام ورياض على اقتحام سامي جمعة عنوة لمنزلهم وتعرضه المشين لضابط في الجيش كان قدوة في الانضباط والبسالة.

تركه العنصر يتدحرج على السلم، بعدما فقد توازنه على أثر ركلة نزلت وسط

ظهره، صرخ لها النقيب المالكي من الالم. وما أن وصل الى كعب السلم عند مدخل البناية، حتى كان سامي جمعة قد سبقه اليه، فرفعه من شعره عن الارض. دفع به الى سيارة الـ «فورد» البرتقالية، ارتمى النقيب على مقعدها الخلفي يتلوّى ألما. عاد محرك السيارة يهدر في الشارع. لملم الجند بواريدهم. حشروا اجسادهم في الشاحنة فأدارت ظهرها لشارع نوري باشا الذي عادت تدب فيه الحركة. يدور الهمس بين المارة، يدلون بأعينهم على البناية، فهم اعتادوا على مثل تلك المشاهد، فالقمع كان بعضا من حياتهم اليومية.

اقتادوه الى مقر الشرطة العسكرية في حي البرامكة. رموه في غرفة التحقيق، التي زارها قبله الالوف. مارسوا عليه صنوف التعذيب النفساني. اتهموه بالاشتراك في الانقلاب على حكم «السلطان الاحمر» فيما عرف بـ «المؤامرة العراقية» [١٩٥٦]. اقتلعوا منه الكلام. كل كلمة مع ظفر من أظفاره. مع عنين السوط الذي يضرب الهواء قبل ان ينزل على جسده الممزق بالجراح. كان كلما أغمي عليه رشوا الماء على وجهه، فلا يستفيق الا والاكف تنزل على وجهه، والركلات من أحذية مطرزة بالمسامير النافرة المسننة تنغرس في ظهره...

بعدما أثخنوه بالجراح. انتظروا الى ان يبس الدم على قميصه فسلخوها عن جسده ومعها جلده. ثم... نقلوه مخفورا الى شاحنة صعدت به الى سجن «المزة» الرهيب، فتوارى في سراديبه المظلمة التي تفوح منها روائح القيح والدم، ولا يسمع فيها غير الانين والصراخ بعد حفلات التعذيب المتواصلة التي كان أعوان عبدالحميد السراج يتفننون بها...

لقد كان النقيب مصطفى كمال المالكي، خريج مدرسة «سان سير» العسكرية الفرنسية المعروفة. رفيع القدر عالي الصيت بين أترابه، واسع المدارك على درجة عالية من الثقافة، يتحدث الفرنسية والانكليزية بطلاقة، على صدره أوسمة عدة تشهد على بلائه وتفوقه.

قبل ثلاثة أيام من اصدار عبدالحميد السراج أمرا بالقاء القبض عليه لينضم الى مئات الذين اتهموا بمؤامرة ١٩٥٦، كان النقيب المالكي مع خطيبته هيفاء دياب في محلات «النحلاوي» للمفروشات الواقعة في شارع العابد الذي يصل شارع الشهداء بساحة السبع بحرات، يتفقدان ما كانا اوصيا عليه من أثاث لبيتهما الزوجي، فلقد كان عرسهما وشيكا.

لم تنفع الشفاعات والوساطات لمعرفة مصير النقيب مصطفى كمال المالكي. مثله مثل الذين اعتقلوا على أثر انكشاف أمر محاولة عام ١٩٥٦ منعوا من الاتصال بأحد

أو الاعـلام عن أمـاكن اعتقالهم. لم يكن يحق للمعتقل حتى توكيل محام يحضر التحقيق، فلقـد ألغى السراج كل ما كان جاريا مفعوله من قبل عند توقيف اي معتقـل سياسي. حتى انـه عمم منعا على القضاة باطلاق سراح أي متهم يمثل أمـامهم بكفـالة مالية. . . كان المعتقل يقضي في غياهب السجن رهن التحقيق العرفي، الذي لا يطاله قانون ولا تمنعه شرعة، قبل ان يحال الى محكمة يجلس على قوسها قاض مغمور الصيت والضمير، يدخل القاعة وفي جيب سترته الداخلية نص الحكم سلفا. . .

- ٢ -

دمشق. قبل عبدالحميد السراج، نامت سنوات على ضيم القمع. . . الا ان «السلطان الاحمر» كان له المرعى الاكبر في حصيدها.

حسني الزعيم على مدى الاشهر الاربعة التي حكم فيها جمهورية الخمسة ملايين في حينه، مارس القمع.

رمى في «المزة» طوال فترة حكمه النائب فيصل العسلي، زعيم «الحزب التعاوني الاشتراكي»، الذي كان يحاول قبل واحد وأربعين سنة ان يقيم نظاما ديكتاتوريا، جامعا من حوله عددا من الضباط وبعض المثقفين والمحامين والصحافيين من أمثال سيف الـدين المـأمـون ومنير الريس صاحب جريدة «بردى». فخلبهم بشعاراته الدينية وبالعنف الذي مارسته عناصر حزبه في حي المهاجرين، وفي احياء دمشق الجبلية. ولكن، ما مد عسكري يده ولا أنزل سوطا على جسد فيصل العسلي، وما جرّع الـذل والاهـانة، وما ذاق صنوف التعذيب، وما منع عنه حسني الزعيم زيارات المناصرين والمحازبين الذين كانوا يحملون اليه الاطعمة من «نادي الشرق». . .

واذكـر فيما أذكر على عهد حسني الزعيم، انه في التاسع والعشرين من آذار (مارس) ١٩٤٩ ترك نجيب الريس رئيس تحرير «القبس»، منزله في شارع عمر المختار المجاور للمدرسة الايطالية في دمشق الى منزل والدي في الرقم ٢ من الشارع نفسـه، حذرا من الاعتقال لانتمائه الى «الحزب الوطني»، الذي كان فيه الرئيس شكري القوتلي الذي انقلب حسني الزعيم عليه واعتقله مع رئيس حكومته خالد العظم. فلقد جاء من أسر في أذنيّ نجيب الريس ان حسني الزعيم بات يضيق ذرعا بافتتاحياته في «القبس»، التي كان يتعرض فيها للفوضى السياسية وحجم الفساد وكميات الرشاوى والمداخلات التي كان يقوم بها الاثرياء والانساب والاصهار في

المؤسسات والشركات والاسواق المالية والمصارف. . . وكان أشد ما أزعج ـ
الزعيم ما كتبه نجيب الريس عن العسكر وتدخلهم في السياسة. فلقد كان
الله ثراه، يرى ان موقع العسكر ليس في القصور والسرايا، انما في الثكن و الخ
والمتاريس على جبهات النزال للذود عن حياض الوطن وصون استقلاله، فيما
الشرطة ورجال الامن العام والدرك، ينحصر في حماية أمن الدولة في الداخل و
النظام. . .

أمضى نجيب الريس ثلاث ساعات، في حوار سياسي مع والدي، أعد
العدة لما سيكون إن هو سيق للاعتقال. ثم قام الى الهاتف، أدار قرصه بهدوء.
الطرف الآخر كان ابراهيم الحسيني، رئيس الشرطة العسكرية.

ـ عرفت انكم بتم في إثري تطلبون التحقيق معي.

أخذ نجيب الريس نفسا طويلا، أصغى هنيهة ثم قال بثقة:

ـ أنا يا سيدي في انتظاركم في منزل عديلي وصفي زكريا الذي تعرفون ع
جيدا.

لم تمض ساعة، حتى أقتيد نجيب الريس من منزل والدي بسيارة من
«دودج» رصاصية اللون. غاب أربع ساعات، ليعيدوه بالسيارة نفسها
مكرما، بعدما قابله حسني الزعيم، وتخلل حديثهما عتاب حول مقالات الريّس
ناصر فيها النواب والاحزاب في مواجهة تحركات عسكرية كان الزعيم الاش
اكرم الحوراني، يستقطبها ويزرعها لتثمر فيما بعد، ثمرات ذاق السوريون مره

واذا كان سامي الحناوي لم يسمح له قدره المخبوء ان يبقى طويلا في ا
فيمارس القهر والقمع، فان اديب الشيشكلي افاض واستفاض. على عهده ا
سجن «الشيخ حسن» القائم فوق احدى اكبر مقابر الشرق القديم المسماة «
الباب الصغير» في جنوبي دمشق، التي تضم رفاة الملوك الأمويين معاوية الاول
يزيد وحفيده معاوية الثاني وعبدالملك بن مروان وغيرهم. . . من القادة، الذين
آخرهم جميل مردم بك وبعده شكري القوتلي الذي على عهده تحقق الط
المصري في التحكم بسورية فامتد سلطان القاهرة الى حوض دجلة والفرات.

في سراديب «الشيخ حسن» مارس نظام اديب الشيشكلي انواعا من التع
والقهر لم تكن معروفة حتى أيام الانتداب الفرنسي. لكنها انتهت بزوال ـ
وغيابه عن الساح والميدان. ولم يكن اديب الشيشكلي قد غادر الحدود الشامية
انقض مئات المتظاهرين على سجن «الشيخ حسن» يدكون حيطانه بالمعاول و
الفولاذية بالمطارق الحديدية كأنه كان «الباستيل» الذي اقتحمه الثوار الفرنسيو
نهاية القرن الثامن عشر.

عبدالحميد السراج، اعاد الاعتبار لـ «الشيخ حسن». بناه من جديد، وقام أعوانه بترتيب الزنزانات والسراديب، واستجلب له ولسجن «المزة» العسكري خبراء في فن التعـذيب من الاتحاد السوفياتي والمانية الشرقية وتشيكوسلوفاكية ، فقدموا ومعهم وسائلهم من بطاريات كهربائية ودواليب يوضع فيها المعتقل اثناء حفلات الجلد الـطويلة. تدرج اعـوان السراج على اسـاليبهم في التعذيب وفاقوهم قدرة وشراسة في الابتكار، من مثل استعمال البراميل المثلجة التي كان يوضع المعتقل فيها ساعات طويلة حتى يتجمد الدم في عروقه وتنشل مفاصله، ليعود يغمر في براميل المازوت، وبعدها يعلق من يديه في السقف فيتدلى جسده في فراغ الغرفة المظلمة ويترك أياما بلا نوم ولا أكل ولا شرب. . . او يعلق من رجليه فيتمرجح وسط حلقة من الجلادين الذين يتناوبون بأسواطهم المصنوعة من الاسلاك الغليظة على ضربه، حتى يتشقق جلده وينغرس السوط باللحم الحي والعظم. . .

ليس من الـذين مروا قبله على حكم دمشق من يجاريه في ارتكـاب المعـاصي والفظائع والتنكيل والمؤامرات، فلقد كان عبدالحميد السراج يعتبر من كبار الظالمين المحترفين.

- ٣ -

امتلأ رأس مَلَكْ بصوت نصّوح النحلاوي، وهو يقول لها: قطع الاثاث هذه ياسيدتي ليست للبيع، فقد أوصى عليها النقيب مصطفى كمال المالكي ليوم زفافه لكنه لسوء الحظ اعتقل مع غيره . . .

خفت عليه ان يكمـل فيتبـع كلامه بالنعوت. فلم يكن يعرف ان المرأة التي دخلتْ معها الى محلاته، كانت زوجة «السلطان الاحمر» صاحب الدولة والامر والنهي. . .

كانت منهمكة في تأثيث الشقة التي «أخذها» زوجها من التاجر البهبهاني، الثري الكويتي، في شارع الجاحظ. فلقد كانت تتعجّل الانتقال من الشقة المتواضعة في أحد زواريب منطقة عين الكرش المتفرعة من شارع «٢٩ أيار». فالشقة لم تعد تليق بالمقام بعدما أصبح زوجها من أصحاب العزم في الدولة.

لم تترك زاوية في محلات النحلاوي، الا ونقلت نظرها في ما احتوته وغلا ثمنه، فلقد كانت تلك المحلات الاغلى والاشهر في دمشق، آنذاك، الا انها كانت تعود الى الركن الذي اصطفت فيه قطع أثاث محفورة من خشب الجوز بأيدي مهرة توارثوا الابـداع في الخشب كابرا عن كابر. سألت عن سعر تلك القطع على الرغم من معاودة نصوح النحلاوي كلامه بأنها ليست للبيع.

تملاها على مهل. شعرتْ بنظرة استخفاف تتجمع في زوايا عينيه وقال لها بشيء من الهزء:

ـ انها في حدود الثمانين الف ليرة سورية [كانت تعادل ثروة في تلك الايام].

نشرت مَلَكْ علامات الدهشة على وجهها. شهقت:

ـ ولو. . . خشب ؟!.

لم يتكلف حتى عناء الرد على تعجبها. طاف بعينيه على وجهها لحظات، ثم انشغل عنها في ترتيب بعض المناضد، فهو لم يسترعه فيها أي شيء لافت: امرأة عادية، ترتدي فستانا أقل من عادي، وتشهق من هول السعر. الامر الذي لم يتعوده من الزبائن الذين يدخلون محلاته المعروفة بأسعارها وبتميز ما تعرض.

ضايقها استخفافه بها وعدم اهتمامه حتى بترغيبها في أثاث آخر أرخص ثمنا. رفعت رأسها بحركة غريبة، علقت نظرة امتعاض على وجهه وقالت بنبرة تجمع فيها تشاوف ظاهر وتوق شديد لرد الاعتبار:

ـ يبدو ان غسان لم يقل لك من أكون . . .

رمى نصوح النحلاوي نظرة عجلى على وجهي. بانت علامات استفهام حائرة على قسماته بددتها بسرعة:

ـ السيدة زوجة المقدم عبدالحميد السراج . . .

شحب وجه نصوح النحلاوي . بلع ريقا تجمد في فمه. فطن أنه في حضرة زوجة «سيد البلاد». ارتعدت أوصاله. غيّر نبرة صوته. انحنى قليلا وهو يجمع كلامه بتلعثم أظهر مدى ارتباكه:

ـ يا سيدتي المحل كله على حسابك . . . اذا كانت هذه المفروشات قد اعجبتك فنحن على استعداد لنصنع مثلها لصاحبها متى عاد من السجن يطلبها لعرسه.

شعرت مَلَكْ بالزهو. انتشت بكلامه. ادارت له ظهرها ومشت وهو خلفها يفرك بيديه.

ـ سأعود غدا. . .

قالت مَلَكْ وتركت نصوح النحلاوي يفتح لها باب السيارة.

بعد يومين كان أثاث عرس النقيب مصطفى كمال المالكي في منزل عبدالحميد السراج. فقد قدمته «محلات النحلاوي» للسلطان الاحمر. . . هدية !

ـ ٤ ـ

ترتفع الهضاب عند مبنى فندق بلودان الكبير، الرابض بتشاوف فوقها. ومصدر تشاوفه وتكبّره على ما عداه من الفنادق في الشام، ليس هندسته المميزة وغرفه الوسيعة ومسبحه الكبير وقاعات الحفلات المتعددة، انما ماضي ايامه التي شهدت

مباهج الطبقة الارستقراطية والبورجوازية السورية منذ بنائه عام ١٩٣١ حتى وصول عبدالحميد السراج الى سدة الحكم عام ١٩٥٨ .

لما صار وزيرا للداخلية فيما سمي بالمجلس التنفيذي للاقليم الشمالي . . . اصبح عبد الحميد السراج «يصطاف»!

قبل اعتلائه ذلك المنصب، كان «الاصطياف» من المفردات الغريبة على قاموس حياة «السلطان الاحمر»، ليس لعدم الرغبة في الهرب من حر دمشق اللاسع ايام الصيف، انما لضيق ذات اليد، وهو الآتي من محيط معدم . . . فما كان يجنيه في سلك الدرك ثم في الجيش بالكاد يأتيه بالكفاف . . .

وفي حين كان يتحدث عن «الشعب الكادح» و«أماني الشعب وحقوقه»، فانه يوم زينت له زوجته مَلَكْ اهمية ان يقال «سيادة الوزير يصطاف» . . . لم يختر مصايف «الشعب الكادح»، في قريتي «بقين» و«مضايا» مثلا . . . ولا حتى مدينة «الزبداني» التي كانت مصيف الطبقة الارستقراطية والشعبية في آن . . . انما اختار بلودان وفندقها الكبير بالذات، الذي كان يدخله مرافقا عسكريا لحسني الزعيم ومن بعده لاديب الشيشكلي .

سبقه اليه حرسه . عشرون مغوارا بثيابهم المدنية كانوا يندسون بين النزلاء . ينشرون اعينهم اينما كان . يتحرشون بها بكل الناس . يتباهون بالمسدسات المشكوكة في خواصرهم . يمشون خلف ظل «السلطان الاحمر» . يتجاسرون إن ارتسم الشك في أعينهم، على تفتيش حقائب النزلاء وغرفهم والتنصت على المكالمات الهاتفية . . . على رأس هؤلاء رجل هبّار، حاد الملامح، تدور في وجهه الدميم عينان واسعتان يخرج منهما شرر يرتاب الناظر اليه ويستفيد من شر مستطير، كان اسمه فاروق وهو من مدينة دير الزور في شمال شرق سورية .

لم يطل الامر بالنزلاء حتى ضجوا من تصرفات حرس السلطان . فما كان من توفيق الحبوباتي [صاحب «نادي الشرق» ومستثمر فندق بلودان الكبير، الذي صادق كل رؤساء الوزراء السوريين من ايام الاستقلال عام ١٩٤٥ الى يوم وفاته عام ١٩٨٥]، الا ان سعى جاهدا لتوفير منزل لائق ليس برئيس المجلس التنفيذي ووزير الداخلية فقط، انما بعسكري يملك سلطة مطلقة، لم تعرف لا دستورا ولا ضوابط حقوقية . فانتقل عبدالحميد السراج وعائلته وخدمه من فندق بلودان الى منزل وسيع تحول الى بلاط يقدم فيه علية القوم فرائض الطاعة لسلطان البلاد وسيدها الذي لا يشق له غبار .

لم أعد أذكر لمن كان المنزل في الاصل . . . وكيف تمكن توفيق الحبوباتي من وضعه بتصرف السراج وعائلته التي كانت مؤلفة، ، منه، من ابنة واحدة وخادمتين مصرية

وسورية وثلاثة من أشقاء مَلَكْ كانت تتولى رعايتهم والانفاق على تعليمهم . . .

كنت في تلك الفترة اعجب لحجم الانفاق الكبير الذي كان يترتب على السراج ويتعدى عشرات الآلاف من الليرات السورية، فلقد كان ملزماً بسداد ايجار منزله في دمشق المؤلف من طابقين في شارع الجاحظ، ودفع ايجار منزله الصيفي في بلودان، وكسوة عائلته واطعامها والانفاق على دعوات العشاء للذين كان يفسح لهم المطارح في بلاطه من الاتباع وأشباه الأنداد. فكيف كان يتدبر أمره، وأنّى له بمثل هذه المبالغ وهو يعيش على معاشه؟

اعترف . . . انني بثقة ما مسها في الظن ظن آثم، اعتبرت ان كل هذه النفقات اما مغطاة بمخصصات من الدولة او انها «هدايا» و«هبات» من أصحابها لتلمس رضى السلطان . . . الى ان جاءني، بعد حوالى ثلاثة عقود، عقيد الجيش المصري المتقاعد جوان زلفو [شقيق مَلَكْ] الى لندن زائرا، فهتك ستر زهد وطهر سمعة صهره، سلطان سورية الاحمر، المالية وحكى لي ما كنت اجهله عن جشع وطمع واستغلال وحب السراج للمال، فمزق غشاوة ظلت ما ينيف عن عقود ثلاثة تحجب عن عيني حقيقة حياة البذخ والرفاهية التي عاشها ذاك الذي دخل الحكم حاقدا فقيرا معدما كثير الشر قليل الخير، فتستر بالطهر وعفة النفس والزهد بالمال ليخرج من الحكم ويهرب من سورية ثريا منعما.

ـ ٥ ـ

في الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة، ايام الوحدة غير الطبيعية وغير العلمية، التي زوجت دمشق للقاهرة، بارادة بعض ضباط الجيش السوري من عبدة الحكم والمناصب والنفوذ والابهة والمال، الذين استغلوا «رومانسية» عربية خلبت القلوب فأعمتها، وهوىً أهوج «لوحدة» ضاعت حدودها بعد ميسلون، فما عاد أصحاب ذلك الحب يعرفون ان كانت الوحدة والتوحد يحدهما طوروس في الشمال وزغروس في الشرق وقوس الصحراء في الجنوب والبحر في الغرب، أم انها وحدة فخري البارودي «بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان ومن مصر الى يمن ومن نجد فتطوان»!

في تلك الايام، استمرت الصحافة السورية تتنازعها العواصم الكبرى ، بين محافظة وليبرالية، يمينية ويسارية، رجعية وتقدمية، اشتراكية وشيوعية وقومية . تتمتع بحرية الجهر والنقد. فان تمادت صحيفة ما فانها كانت تحال على محكمة المطبوعات. تعطل اسبوعا او يدفع ناشرها غرامة مادية بسيطة، لتعود فتصدر من جديد . . .

وليس لمن يعرف مدى حقد وكره وخوف السراج من الصحافة والصحافيين، ان

يتعجب مما بدا منه، يوم أوغر صدر جمال عبدالناصر على صحافة دمشق، فكان السراج يكرر أمامي وأمام غيري انها من «بقايا النظام الرجعي القديم» ولا يجوز ان لا يمسها قانون يعيدها الى صوابها. . .

منذ البداية استجار السراج بالفكر الماركسي الاحمر والفكر الاشتراكي المتمركس. فاحتواه الرباعي صلاح الدين البيطار وميشال عفلق واكرم الحوراني وخالد بكداش.

قرّب منه الصحافي احمد عسه ، بعدما اصدر مع نزيه الحكيم جريدة «الرأي العام» [كان نزيه الحكيم قد اشترك مع قدري قلعجي في وضع دستور نظام اديب الشيشكلي] التي كان يوجه سياستها الرباعي الماركسي - الاشتراكي ويناصرها ويسهم فيها لفيف من المحامين والاطباء والمهندسين الذين ساروا خلف ذلك التكتل اليساري، الذي كان بدأ يتحكم بالشارع السوري في مواجهة حكم يميني كان يسعى وراء المكاسب العائلية والعشائرية وحدها.

ولسبب ما تمكن عبدالحميد السراج من فض شراكة احمد عسه ونزيه الحكيم. فغادر هذا الاخير دمشق الى المهاجر البعيدة وما زال. . . فتفرد أحمد عسه، بـ «الرأي العام». وسّع انتشارها . صارت الصحيفة الاولى في دمشق، لا لجدارة ومضاء قلم رئيس تحريرها، انما لتوطد العلاقة بينه وبين «السلطان الاحمر» . فكان أحمد عسه يغمس قلمه بمحبرة السراج ويلويه على الورق صاغرا لارادة السلطان، ينفث في افتتاحياته سموم ولي نعمته وينفخ في الكلام الاحقاد بحق من عادوه واعترضوا على تصرفاته وجوره. فسماه عباس الحامض [نقيب المحررين السوريين ورئيس تحرير «القبس»] بـ «صاحب مدرسة الخيانة» وفضح في غير افتتاحية له في «القبس» علاقات احمد عسه المشبوهة بالقدس المحتلة.

فما تحرج أحمد عسه عن الاثم وكف بل أخذ يمرغ قلمه بالختل والدس والافتراء على الناس مرضاة للحاكم بأمره. فلم يتورع عن نشر الافتراءات والاضاليل حول السوريين القوميين الاجتماعيين الذين كانوا يجلدون في سراديب السراج واقبيته، وقد بلغت الصفاقة باحمد عسه ان نشر في «الرأي العام» بتاريخ التاسع والعشرين من تشرين الاول ١٩٥٥ رسالة «قيل» انها موجهة من والدة العقيد عدنان المالكي الى السيدة جوليات المير [عقيلة الزعيم انطون سعاده] تتهمها فيها بكلام قاس وجارح، بأنها شاركت ووقفت وراء مصرع ابنها. ولقد سوّل عسه لنفسه تزوير وتسخير شعور ام مفجوعة بولدها لاذكاء نار الحقد والبغض ضد القوميين الاجتماعيين.

لقد كنت واحدا من الذين عرفوا والدة عدنان المالكي، كما عرفت انجالها الثلاثة

وابنتها. . . فما عرفت فيها قدرة على الكتابة والغوص في المعاني والمباني ولا يوما وقفت منها خلال العديد من اللقاءات معها على المامها بالشؤون السياسية.

كان احمد عسه ، يجني ثمن الختل والدس والكذب الاسود، انفراده بمعلومات كان يتزود بها في جلساته الطويلة مع السراج، حتى شبه كثيرون صاحب «الرأي العام» بمحمد حسنين هيكل سورية لقربه من سلطان الشام فيما كان الآخر مقربا من قيصر مصر.

وراح عبدالحميد السراج يعد العدة للقضاء على الصحافة السورية. فأعد مشروعا عام ١٩٥٤ تضمن دمج العدد الضخم من الصحف اليومية الصادرة في دمشق وحلب واللاذقية وحمص. فلا يبقى في دمشق من صحفها الاربعين الا اربع صحف. في حلب صحيفتان وواحدة لكل من اللاذقية وحمص. فوافقه جمال عبدالناصر وطاوعه، وهو الذي ما طاق في الاصل ان يكون في مصر صحافة حرة تتجرأ على الكتابة من موقع النقد، فما سمح الا بما يمتدح «انجازات الثورة». . . فمضى السراج في غيه ينفذ بحقد مشروعه للقضاء على الصحافة. . .

وعمت الفوضى . وما أن سمع عبدالناصر بما جر عليه قرار عبدالحميد السراج من عداوة أصحاب الاقلام في الشام. حتى تحرى من رجال استخباراته عن حقيقة الامر، وبعث يستأجل «السلطان الاحمر» في المضي بتنفيذ تأميمه ودمجه الصحف الى أن يصل وزير الاعلام في الحكومة المركزية عبد القادر حاتم. فأرجأ السراج الأمر.

- ٦ -

انشغل قصر الضيافة الابيض به. حول المكتب الذي خرج منه اديب الشيشكلي الى المنفى، الى قاعة اجتماعات لناشري ورؤساء تحرير الصحف في سورية. فقد جاء عبدالقادر حاتم الى دمشق ليحاور هؤلاء وليقنعهم بمشروع السراج وليخدرهم بالوعد الرجراج بأن مبالغ مالية ضخمة ستنفق لتعويضهم عن الجهد الصحافي الذي بذلوه عبر السنوات الثلاثين الماضية.

وقف. مشى من خلف مكتبه الى وسط الردهة الفسيحة ، لما رأى راسمة الريس [صاحبة «القبس» التي ورثتها عن زوجها نجيب الريس]. بانت ملامح وجهه المتناسقة لما اقترب مني ضاغطا على يدي مرحبا. تلمع في وجهه عينان تخفيان خلف بريقهما نظرات رجل قادر على الفتك بمحنك. الا ان الابتسامة التي لا تفارق شفتيه كانت تجعل المتحدث اليه يضيع في تحديد شخصية ذلك الرجل، وتزداد الحيرة مع طلاوة لسانه وهدوء نبرات صوته.

كان وهو يتحدث يلهو بين الحين والآخر، بربطة عنقه، حاول ان ينتقي كلماته، يتأنق في لفظ مخارجها. أفهمنا [خالتي وأنا] بأن لا رجعة عن قرار الرئيس جمال

عبدالناصر . في «تنظيم» الصحافة السورية التي اتعبته وارهقته ، كما اتعبت وارهقت «المسؤولين» في الاقليم الشمالي! و«نصحنا» ان نقبل ، اسوة بمن سبقنا واجتمع به ، بتعويض مالي «سخي» يعوض آل الريس عن كل الجهد الذي بذله الصحافي والنائب نجيب الريس منذ ان اشترى «القبس» من محمد وعادل كردعلي عام ١٩٢٧ .

ابتسم . وكأن ابتسامته ضرورية ليشعر بشيء من الراحة بعد مستطيل الكلام . وانتظر رد راسمة الريس فجاءه لاسعا :

ماذا لو رفضنا نصحك لنا يا سيادة الوزير ؟

ثقلت ضحكة على صدره . حاول ان يكتم غضبا فما اسعفه نظره الثاقب الحاد كثيرا . تنبه لحركة يده العصبية وهي تفتح ملفا أمامه ، فجمدها فوق الاوراق . استجمع هدوءه . مسح فمه بأصابعه :

ـ يا أفندم . . . لا أظنك ترغبين بمصاعب ومتاعب أمنية مع الحكومة هنا .

رمى كلامه علينا وسكت . امتقع وجهي . تلاقت نظراتي بنظرات خالتي . بسرعة تلاطمت في مخيلتي مجموعة من الصور المفزعة . شعرت ان رعدة ذعر تكمشت في وجه خالتي . حولت نظري عن وجهها ورميته على وجه عبد القادر حاتم . استجمعت في صدري نفسا طويلا وقلت :

ـ تحدثت عن تعويض مالي سخي . . . هل لنا ان نعرف قيمته في حال موافقتنا على الاجراءات الجديدة لتنظيم الصحافة ؟

تملكه الزهو . ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة نشوانة بالانتصار الذي حققه .

ـ أوي يا أفندم . . . الاستاذ فؤاد الشايب [وكان مديرا للانباء وقتها] سيعطيكما الرقم بالتفصيل . . .

انتظر . انتشى بنصره . حقق ما أراد . وقف . سوّى من ربطة عنقه . احكم تبكيل سترته . ابتسم . صافحنا باليمنى وأغلق باليسرى الملف الذي كتب عليه بالحبر الاحمر وبخط نافر غليظ «جريدة القبس» . ووضعه جانبا . ومع اغلاق الملف في ذلك الصباح من صباحات ايلول (سبتمبر) ١٩٥٨ اغلقت «القبس» وسنواتها الثلاثون. أصبحت تاريخا بشحطة قلم ، والتعويض «السخي» كان ٢٨ الف ليرة سورية بالكاد سدد تعويضات عمال المطابع فيما بقي المحررون والكتاب والمراسلون والاداريون بلا تعويضات . . .



الذين بقوا هم الذين أسلسوا القياد . بطريقة أو بأخرى . . .

نصوح بابيل، صاحب «الايام»، استجار بعبد الحكيم عامر من جور عبدالحميد السراج، احتمى به فحماه.

وديع الصيداوي صاحب «النصر» سلّم أمره للسراج فسَلِمَ وبقيت جريدته. فلم يبخل الصيداوي في تأييد «السلطان الاحمر» ولا كان مقلا في تطريز المقالات لدعم سياسة السراج في الداخل والخارج على الرغم من كل الجور والعسف الذي مارسه في دمشق والتآمر والدس الذي برع فيه في الخارج. وتوطدت علاقة وديع الصيداوي بالسراج الى درجة ان زوجته اوغوستين أصبحت من نديهات مَلْك.

عزت حصرية، صاحب «العلم»، كان لا بالعير ولا بالنفير، جريدته محدودة الانتشار تركها السراج مرضاة لطبقة «الشعب الكادح» التي كانت تنشر فيها...

اما منير الريس فقد أبقى جريدته «بردى» في مأمن فسلم مفاتيحها واستبلم للسراج، بعدما كان طويلا يدافع عن مبادىء حزب فيصل العسلي الرجعية.

ولـ «الانباء» وصاحبها نذير فنصة عديل حسني الزعيم، الذي حاول السراج اغتياله، حكاية أخرى سنعود اليه واليها.

بين تلك الصحف وغيرها... بقيت «الرأي العام» محصنة. لم يطلها قرار الضم. يصول صاحبها في امبراطورية السراج ويجول. تنشر ما لا ينشر وتكتب ما لا يكتب. لا يزور مكاتبها زوار الفجر ولايداهم رجال الشرطة مطابعها فيصادرون ويحطمون ويحرقون...

الا ان احمد عسه لم يكن وحيدا في تزلفه للسلطان، فلقد التف من حوله وحواليه العديد من الصحافيين الناشئين، يتوسلون لقمة عيش هينة ولو كانت مغمسة بالدس والكذب الاسود. في مقدمتهم بكري المرادي الذي صار ايام الاتحادالقومي نقيبا للصحافة، وهو الذي كان مشبوها على زمن الحكم الديمقراطي اليميني السابق لحكم السراج و«عصابة الضباط العشرة» البوليسي.

ومن هؤلاء الصحافيين المتزلفين واحد احتفظ باسمه للزمان. كان يعمل في وكالة أنباء عربية، يزودها يوميا بنشاطات الاشتراكيين والشيوعيين، وفي الوقت نفسه كان يعمل مخبرا بمرتب زهيد جدا في جهاز أمن عبدالحميد السراج، كان ينقل اليه ما كانت تلوكه الالسن عن نظامه. يندس بين الصحافيين يجاري كل من تسوّل له نفسه الخروج عن الصمت فيتناول جور السلطان وعسفه بمستطيل الكلام، فكان الصحافي المخبر يدبجه في تقارير يأنس لمثلها عبدالحميد السراج، فيبطش وينكل ويرمي في السجون.

في طائرة الـ DC6 التي أقلت الوفد الرسمي السوري الى القاهرة للاجتماع. بجمال عبدالناصر، المنتشي بـ«النصر» في حرب السويس [الذي ما كان تحقق لولا

وقوف الجنرال دوايت ايزنهاور ونيكولاي بولغانين ضد الغزاة الثلاثة: بريطانية وفرنسة و«اسرائيل»] جلست خلف ميشال عفلق وكان في عداد الوفد الذي ترأسه وزير الخارجية صلاح الدين البيطار وضم بعض كبار معاونيه الى جانب احمد الشقيري، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية حينذاك. . .

كنت الصحافي الوحيد على الطائرة. لم يكن هدفي من زيارة القاهرة تغطية اجتماعات الوفد السوري بالمسؤولين المصريين بقدر ما كان للكتابة عن معاناة مصر خلال فترة العدوان الثلاثي.

في فندق «شيبرد» التقيت عباس الحامض وعبدالغني العطري صاحب مجلة «الدنيا». أمضينا اياما نحاول جهدا صحافيا فأعرض المصريون عنا. فلقد كنا برأيهم ورأي استخباراتهم وتقارير عدلي حشاد [الملحق الصحافي في السفارة المصرية في دمشق] مجموعة من «الصحافيين اليمينيين الرجعيين غير الثوريين»!!! فعلقوا عيون استخباراتهم علينا. كنت أشعر أنني مراقب. اينما حللت كانت العيون ترصدني. كان يتملكني الانقباض كلما خرجت من الفندق، فحرصت على ابلاغ عباس الحامض ببرنامج تنقلي اليومي من خوف ان تخطفني «الاشباح» التي كانت تمشي خلف ظلي «فأختفي» من شوارع القاهرة كما اختفى عشرات، بقوا زمنذاك، خارج عناوين الصحف وأخبارها. . .

على مدخل قصر «القبة» الذي كانت تنعقد فيه اجتماعات المصريين والسوريين كنت مع جمع من الصحافيين ننتظر ان يطل علينا أحد المسؤولين ليعطينا زادنا اليومي من اخبار مايدور في الاجتماعات وما يريدوننا ان نكتبه بالطبع. . . فاذا بيد تربت على كتفي. فانتفضت مذعورا. استدرت بسرعة، فاذا بعبدالحميد السراج ينتصب امامي. لملم الانقباض من وجهي بابتسامة مستحية. استغرب وجودي في القاهرة. . . ثم سألني عن موعد عودتي الى دمشق فاجبته انني سأغادر بعد يومين. . . فانفرجت اساريره كأنه وجد شيئا كان يفتش عنه. استمهلني. دخل قصر «القبة». غاب دقائق. ثم مد خطواته نحوي. شدني من ذراعي الى زاوية قصية. سحب من جيب سترته الداخلية مظروفا ابيض صغيرا وطلب مني همسا نقله الى «صديقنا» الصحافي في وكالة الانباء في دمشق.

كان في داخل المظروف صك بمئتي ليرة سورية، مرتب ذلك الصحافي «الوطني» الذي كان يعمل مخبرا مزدوجا عند عبدالحميد السراج والمصريين. . .



عبد الحميد السراج ومرافق فرنسي
حين كان في بعثة دراسية في باريس
أوائل الخمسينات!

الفصل الثامن

المؤامرة السعودية



- ١ -

لا تدري، وأنت تنزه عينيك في وجهه أنك أمام رجل اذا عُدِّدت الرجال في قومه عُدّ بالقوم جميعاً، فلقد كان في السياسة أبرعهم وفي الدبلوماسية أكثرهم حنكة ودهاء. . . فلا تنبىء ملامحه عما في نواياه وما يضمر. ترامى به العمر. مشى بتوءدة على وجهه الدقيق. ترك تحت عينيه الزئبقيتين تعب السنين. تجاعيد بدأت تظهر ترسم على الجلد عند زاويتي الفم خطوطا تشي بالكبر. في أعلى ظهره تحدب بسيط أحنى له رأسه قليلا، مشيته المتمهلة كانت تزيد من مظهر العجز في مفاصله. يستر رأسه بكوفية تخفي ما بقي من شعر تربع المشيب في خصلاته وتمدد الى بعض شعيرات تحت الانف والذقن. طرزت الوجه بالوقار. لا يرسل الكلام على رسله. يتمهل فيه يتأنّق في مخارجه التي تطلع من صوت خفيض ونبرات هادئة. هكذا كان يوسف ياسين، ثعلب الدبلوماسية السعودية في الخمسينات و. . . اكثر.

تمايل على الكرسي، يحاول أن يقف يساعده ابن عمه عبدالفتاح ياسين، لما دنا منهما الصحافي السوري عدنان عناية [برد الله ثراه فقد توفاه الله في مغتربه القسري في كندة] ليشاركهما الجلسة في باحة فندق «برنتانيا» في برمانا [أحد مصايف الطبقة اللبنانية الميسورة آنذاك].

كان يوسف ياسين، يعرف عن عدنان عناية ميوله العروبية وصلاته القريبة والوثقى ببعض قيادات «حركة القوميين العرب»، التي كانت تتشكل، وقتها، من شباب الجامعة الاميركانية في بيروت، بعضه كان تخرج وبعضه كان في خواتيم سنوات التخرج. دار الكلام يتجول بين السياسة والسياسيين حتى استقر حول أحوال دمشق التي كانت تنوءوتتلوى، تدميها قبضة عبدالحميد السراج الذي استمرأ الأبهة والمناصب، وتشد على خناقها هجمة الماركسيين والاشتراكيين الذين كانوا يقفون خلف «السلطان الاحمر»، فتمادى في غيّه وجموحه نحو التطرف الماركسي والشيوعية العالمية. . .

بقي يوسف ياسين مطرق السمع يرمي بين الحين والآخر، بذؤابة كوفيته الى

الوراء، تستهويه حمية الصحافي وهو يشرح بمستطيل الكلام و«برومانسية» عرف فيها، عن العرب والعروبة والحاجة الى التفاهم لدرء الاخطار التي تتهددهم، بينما كان عبدالفتاح ياسين يرمي نظرة عجلى على الصحف اللبنانية التي كانت حبلى بأخبار الشام وبجور «عصابة الضباط العشرة» القابعة مع «السلطان الاحمر» على أعنّة الحكم في الجمهورية الفتية.

الدبلوماسيان السعوديان والصحافي السوري، كانوا مثل عشرات غيرهم من رجال السياسة والفكر والمكانة، اعتبروا ان معركة الحركة السورية القومية الاجتماعية مع عبدالحميد السراج هي «شأن خاص» بها وبه، فما صدقوا انه وقد أطبق السلطان عليها بعد مقتل العقيد عدنان المالكي [١٩٥٥] سيرتد عليهم وهم كانوا من شد على يده، يعمل السياط في ظهورهم، يكيل لهم التهم والنعوت، يرمي بهم في غياهب سجونه المرعبة، يشتتهم تحت كل كوكب باسم «الوحدة» و«العروبة».

حكّ يوسف ياسين رأسه كأنه يحرك ويخلط الكلام فيه. نقل نظره من أحضان حرش الصنوبر المترامي أمامه، وركزه على وجه عدنان عناية وقال بهدوء:

ـ ما رأيك لو وعدنا عبدالحميد [السراج] بالوصول الى رأس السلطة في سورية كما فعلنا مع أديب الشيشكلي قبل خمسة أعوام؟.

تهالكت علامات التعجب على وجه عدنان عناية. كتم سؤالا كاد يقفز من بين شفتيه اكتفى باشارات مستفهمة رسمها في عينيه، جمع الشيخ يوسف ياسين كل حيرة عدنان عناية بابتسامة تركها باهتة على شفتيه، وكأنه لم يبال لتعجب عدنان عناية ودهشته عاد ينتقي كلماته بهدوء:

ـ نحن في الرياض لن نطلب شيئا. لن نرسم له سياسة. لن نمنع عنه أي أمر. نغض الطرف ونسد السمع إن هو وجد في شتمنا والتعرض الينا في العلن ما يخدم تفاهمنا في الخفاء. لن نقف عائقا امامه ان هو استحسن انتهاج سياسة اقتصادية ضارة بنا... ليتصرف داخل سورية كما يشاء مقابل ان يحقق لنا شرطا واحدا.

وسكت يوسف ياسين ولم يزح نظره عن وجه الصحافي، كأنه كان يريد ان يلملم وقع الكلام عليه. مرّر يده المعروقة المدبوغة على كوفيته، يسوي من وضعها على رأسه. انهمك عدنان عناية في سحب لفافة من علبة السكاير. أشعلها. أخذ نفسا طويلا. ارتبك. تكلف الابتسام. غدره الكلام:

ـ ما هو هذا الشرط اليتيم؟.

مشط شعيرات ذقنه بابهامه وسبّابته. تملّى عدنان عناية للحظات. فتح فمه وأفرج عن الكلام:

ـ شرطنا ان يحافظ على «الكيانية» السورية. ان يبقي سورية في حدودها الحالية.

لا ان يتوسع شرقا أو جنوبا أو غربا. ان لا يقفز فوق فلسطين المحتلة الى مصر. ان لا يعقد حلفا دفاعيا او هجوميا مع العراق، بمعنى آخر ان لا يتوحد مع اي «كيان» عربي. . . هذا هو شرطنا. . . ان نفذ فله السلطة والحكم ودعمنا الكامل. . .

عرف أنه مسّ فكر عدنان عناية الذي كان يتغنى بحلم «الوحدة». فاستدرك الشيخ بدهاء:

ـ ان الوحدة والاتحادية والتوحد اذا شئت. . . أملنا جميعا كعرب.

امتلأت عينا عدنان عناية بشيء من التعجب. فَسَخَا الشيخ يوسف ياسين في كلامه:

ـ لكن. . . يا صديقنا إن قيام الوحدة بين أي بلدين في الوقت الحاضر، سيسيء الى القضية العربية لذلك نرى، انه من الاجدى الحفاظ على الامر الواقع (ستاتوكو) لكل بلد مستقل حاليا حتى اذا ما تم استقلال الجميع يبدأ التعاون الاقليمي الذي لا بد انه عاجلا أم آجلا سيوصلنا الى الوحدة والتوحد.

في هاتيك الايام، قبل عام ونيف على الزواج غير الشرعي بين دمشق والقاهرة، كان بين السعودية ومصر عداوة خفية لا تموهها التصريحات. فالسعودية لا تريد وصلا وتقاربا مع الدول الشيوعية، وغير راضية عن موقف جمال عبدالناصر من السوفيات بعد الغزوة الثلاثية عام ١٩٥٦، فانعكس هذا الخلف المستحكم بين البلدين على دمشق، حيث تجلى الصراع السعودي ـ المصري في مواقف عديدة حاولت الرياض خلالها التخفيف من النفوذ المصري، الذي كان يتغلغل خلف الشيوعيين والبعثيين الاشتراكيين الى مجموعة نافذة من العسكر على رأسها عبدالحميد السراج. وما حاوله الشيخ يوسف ياسين بدهاء وحنكة وبراعة في حديثه الى عدنان عناية، [الذي عرف انه سيحمل العرض الى صاحبه]، هو ان يغري «السلطان الاحمر» ليستميله فيفض شراكته مع الشيوعيين والاشتراكيين ويبتعد بالتالي عن ركب الناصرية فيبطل مجاراته لصاحب مصر، الذي كان انتشى بعد انكفاء الغزاة عن السويس، بتهليل العرب له، فبات يظن انه الناطق وحده باسم العالم العربي، يترسمل به ليقارع ويناكف الانظمة التي لا تقر له بالزعامة ولا تواليه وتجاريه في سياسته.

وكان أول الليل. لسع برمانا نسيم بارد. لفَّ الشيخ يوسف ياسين عباءته حول جسده وقام يتقي البرد. مشت عينا عدنان عناية خلفه. في تلك اللحظات كانت الافكار تتلاطم في رأسه حيرى. استرجع بسرعة كلمات شيخ الدبلوماسية السعودية وما عرضه على السراج فتأرجحت الظنون في مخيلته وتركته أرقا تلك الليلة.

- ٢ -

قفز أمام عيني عدنان عناية فجأه وجه يوسف ياسين وهو يدير قرص الهاتف يجمع رقم منزل هاني الهندي. فلقد فكر ان يكون الهندي اول من يسمع منه تفاصيل العرض السعودي، فالرجل كان أحد قادة «حركة القوميين العرب»، رفيع القدر فيها ولرأيه عند عدنان عناية بالذات منزلة. فضلا عن ان السراج قد يسمع منه قولة الشيخ السعودي بأذن أقوى على السمع منها اذا تولى عدنان عناية نقل الكلام للسلطان بنفسه.

في تلك الفترة كان الامر يختلط على الرائي والسامع حول علاقة «السلطان الاحمر» بالقوميين العرب. فمن كان يحاول الافادة من الآخر؟ هل كان القوميون العرب يحاولون استغلال عبدالحميد السراج لطموحاتهم «الوطنية» والتنفيذية، أم ان العسكري القابض بيد من حديد على مقدرات جمهورية الخمسة ملايين، يحاول ان يستفيد من تواجدهم الهامشي على الساحات السورية واللبنانية والفلسطينية... ليمدد نفوذه ويستقوي بما عندهم عليهم وعلى غيرهم؟

تواعدا. ومن خوف على دسيسة يوقعها بهما الجواسيس الذين بثهم عبدالحميد السراج بين الناس يرصدون ويتنصتون ويشون، قررا ان يكون لقاءهما مستترا.

قاد عدنان عناية سيارته «الكاديلاك» الحمراء، والى جانبه هاني الهندي، على طريق وادي بردى ومتفرعات انهرها السبعة. إجتازا «كيوان» الى «الربوة» و«دمّر» صعودا الى «الهامة» ومنها الى صحراء «الديماس».

ما ان أخرس محرك السيارة حتى بدأ عدنان عناية بالكلام شارحا لهاني الهندي ما أتاه من حديث الشيخ يوسف ياسين ونسيبه عبدالفتاح ياسين.

كان هاني الهندي يصغي بانتباه لما ذكر له عدنان عناية ان العرض لا يتناول عبدالحميد السراج ووصوله الى قمة السلطة في البلاد فقط، انما في العرض ايضا ما يهم «حركة القوميين العرب»، فالرياض تعرض ان تدعم تلك الحركة ماديا بغية ايجاد روابط وصلات بينها وبين الحكومة السعودية!

شعر هاني الهندي بالاغتباط وان كان استمهل صديقه الصحافي للتفكير بمن سيقوم بمطارحة عبدالحميد السراج بالعرض السعودي. فاتجهت أفكار هاني الهندي نحو طلعت صدقي، فالرجل مقرب من السراج الذي يأمن له ويثق به ويؤثره بمكان قصي في قلبه... وهو على ذلك الاصح والاجدر بأن ينقل العرض بشقيه الى «السلطان الاحمر»... فضلا عن ان طلعت صدقي على صلة بعبدالفتاح ياسين وصداقة، تجعله يرتاح له، يطمئن الى كلامه وعروضه واقتراحاته، خصوصا اذا ما كانت مظللة بحضور «ريشيليو» المملكة العربية السعودية الشيخ يوسف ياسين...

تملكت عدنان عناية الراحة وهو يسمع كلام هاني الهندي. فلقد وجد ان صديقه قد أصاب باختياره طلعت صدقي لتمرير العرض الى السلطان، لكن خاطرا اشتعل في باله، فان باح طلعت صدقي بأنه هو الذي حمل العرض قد يستاء عبدالحميد السراج، الذي بات معتدا بنفسه، وقد تفوت الفرصة على القوميين العرب في التحكم بالسلطة من وراء السراج، لذلك يجب على صدقي الا يذكر المصدر الذي أوصل العرض اليه، وان تمادى عبدالحميد السراج في الشك والريبة ملحا على الاستفسار، فان على طلعت صدقي ان ينفي صلة عدنان عناية وهاني الهندي بالامر. . .

وافق هاني الهندي صديقه عدنان عناية على ما كان يجول في خاطره. أدار عدنان محرك «الكاديلاك» الحمراء. رقصت ابتسامة زهو على شفتيه وهو يعود أدراجه الى دمشق. . . ترك هاني الهندي عند باب منزله وعاد يطوف بسيارته في الشوارع.

تبيّن عدنان عناية، وهو يسترد أنفاسه، ان وجه طلعت صدقي قد تغيرت ملامحه وهو يبدي اهتماما بكل كلمة. فشجعه ذلك على الاستفاضة في شرح ما قاله يوسف ياسين، خصوصا ما يتعلق بالتعاون مع القوميين العرب. . . فلقد كان طلعت صدقي من المقربين منهم ومن المناصرين لحركتهم داخل الجيش.

وعاد وعاد عدنان عناية يطلب من طلعت صدقي ان لا يبوح للسراج باسمه او باسم هاني الهندي وأن يكتفي بنقل العرض عن لسان الشيخ يوسف ياسين. . .

الا ان طلعت صدقي نكث بالوعد. أخبر السراج بتفاصيل العرض السعودي وأتبعه بذكر اسم الصحافي وصديقه هاني الهندي. فاهتز «السلطان الاحمر»، حنقا عند سماعه اسم الصحافي، وانه هو ناقل العرض من فم شيخ الدبلوماسية السعودية فلقد كان يفضل التعامل مع هاني الهندي[1] على الارتباط مع عدنان عناية! لعله كان يعرف من يومها، سريرة الهندي ودخيلته التي تكشفت فيما بعد. . .

- ٣ -

سَكِرَ عبدالحميد السراج بكلام طلعت صدقي. قام من خلف المكتب وبدأ يتمشى أمامه في الغرفة المظلمة. . . بدا له يوسف ياسين كساحر انتشله من ماضيه المعدم الوضيع. نشر كلام «ريشيليو» السعودية في عروقه نشوة أحس معها للحظات انه أصبح تحت دوائر الاضواء العربية والعالمية. وبخيلاء راح يرى نفسه الحاكم الذي لا يشق له غبار ولا يرد له أمر. استيقظت في نفسه شهوة الحكم. ضجت في راسه الافكار: ان ترضى عنه الرياض يعني ان واشنطن راضية عنه ومعها كل الغرب الاوروبي كله، فرضى الرياض من رضى واشنطن ورضى اوروبة من رضى الاثنين معا. . .

تجمع الحقد في عينيه. تذكر الحي الفقير الذي تربى فيه في حماه. ضغط على اسنانه لما تذكر كيف كان أولاد الاقطاعيين ينعمون بالثروة والمكانة والجاه، وهو يرفل في الفقر المدقع، يعيّره أترابه بأن والده يسُرج الحمير ليعتاش. تملكته لحظة انتقام. ضرب الحائط بقبضته. طارد الوجوه المتلاحقة من مخيلته. لا يريد أن يقفز الماضي من خلف حجب الايام فيحرمه نشوته بالحاضر. فجأة استولى عليه الارتباك. عصره خوف مقيم من أن تفلت فرصة التمسك بالحكم. اطرق مفكرا. أحس بانقباض. ماجت الافكار في رأسه. شعر بالحاجة الى رجل يسر له بها أتاه وبها يفكر به. وهو على استبداده برأيه وتشبثه بتنفيذ أوامره لجأ الى مشورة رجل مجرّب حكيم. متبصر. محنك. عركته السياسة فعاركها عقودا، فهالآنَ حتى كسرته في النهاية.

وجد السراج نفسه يختلي بصلاح الدين البيطار، يسأله النصح والمشورة بعدما نقل اليه تفاصيل العرض السعودي. فأوغر رئيس الوزراء السوري الاسبق صدر «السلطان الاحمر» ضد السعودية، غير ناصح له بالتعاون مع حكومتها محذرا من دهاء «ريشيليو» السعودية يوسف ياسين. مصورا له مضار «التبعية» لنظام على شاكلة النظام السعودي. ولعله وقتها، افضى اليه بمحاسن «التبعية» لنظام على شاكلة نظام جمال عبدالناصر. . . .

في قرارة نفسه ، كان عبدالحميد السراج يعلم علم اليقين انه أسير «عصابة الضباط العشرة» وانه مهما دفعت به أيادي السعوديين الى القمة، ومهما سخروا من أموال لذلك. . . فان أمرا لن يتحقق له أو لغيره لا يرضى عنه «الضباط العشرة» الذين كانوا معه يسيطرون على القطاعات العسكرية الضاربة، المحيطة بدمشق والمدن السورية الكبرى فلولا هؤلاء الضباط لما كان بقي هو في دمشق يتربع على عرش جهاز الرعب والقمع والارهاب والتسلط.

فلقد أصدر اللواء توفيق نظام الدين، [كان وقتها رئيسا للاركان العامة]، قرارا بتعيين عبدالحميد السراج ملحقا عسكريا في السفارة السورية في باريس. فتنادى الضباط الى منع تنفيذ القرار فحرك طعمة العودة الله [الذي مات مقتولا في القاهرة] فوج دبابته فحاصر مبنى الاركان العامة وهدد اللواء توفيق نظام الدين بدكه على رأسه ورأس ضباط أركانه ان هو لم يُلْغِ القرار بنقل السراج الى باريس. وقبل انتهاء انذار طعمة العودة الله بساعة، أصدَر اللواء توفيق نظام الدين ، [الذي كان خَلَفَ شوكت شقير في رئاسة الاكان العامة للجيش السوري] قرارا ثانيا ألغى مفعول الاول وثبّت عبدالحميد السراج على رأس المكتب الثاني [الاستخبارات].

هذه الحادثة سمعتها من فم طعمة العودة الله. ففي صيف عام ١٩٥٩ دعانا، زوجتي وأنا،للانضمام الى السراج وزوجته لتناول العشاء في مطعم «اشبيليه» في

«دمّر». كانت«البيرة» قد دارت في رأسه، فتولاه الزهو والاعتداد بالنفس، فتح عينيه على اتساعهما وصاح بعبدالحميد السراج:
ـ أتذكر أبا حمدو كيف أنقذتك من النفي الى باريس، حين هددت اللواء توفيق نظام الدين وأركان حربه بدك المبنى على رؤوسهم ان لم يلغ قرار نقلك؟.
علقت نظري في وجه السراج، فاذا بالامتعاض يسرى في ملامحه. حاول ان يهرب من توتر علق في زوايا عينيه فمد على شفتيه ابتسامة حاولت بخفر ان تطرد عبسة استقرت على حاجبيه، وقال بصوت خفيض:
ـ أذكر. . . أذكر تماما. لكن هل نسيت يا طعمة انني عينتك وزيرا للشؤون البلدية والقروية؟.

ـ ٤ ـ

حامت أفكار السراج حول طلعت صدقي. فلقد ساءه ان يكون معاونه الاول على دراية بالعرض السعودي. وعلى الرغم من ثقته به، خاف وهو الغدار، ان يغدر طلعت صدقي به فيستجير بالقوميين العرب فيواطئونه سرا عند الشيخ يوسف ياسين يجرون معه تفاوضا مستترا يفضي به خارج السلطة والبلاد.

وبدأ يفكر بالتخلص من طلعت صدقي.

رفعه من رتبة مقدم الى رتبة عقيد، بعدما ندبه الى دورة أركان حرب في محاولة لابعاده عن الانغماس بالعمل السياسي اليومي. وبعدما أيقن ان انشغال طلعت صدقي في العمل العسكري لم يبعده عن التواصل مع «حركة القوميين العرب» صمم على ابعاده عن دمشق، فعينه معاونا للملحق العسكري المصري عبدالمجيد فريد في بغداد. واستبدله ببرهان أدهم [ابو ابراهيم] الذي كان على علاقة حميمة بالنائب عزيز عباد وعائلته.

كانت صالونات عدد من العائلات الارستقراطية في دمشق وحلب وغيرها من المدن السورية، تفتح صدرها للضابط برهان أدهم، فلقد كان لين العريكة والمعشر والمعاشرة، يعرف كيف يوظف طلاوة لسانه ووسامته لكسب ثقة من يندس فيهم. ناقلا عنهم الاخبار مُعداً التقارير، حتى اذا ما غرر بالمناصب، وكان من المولعين بها ومن عبدتها، استشرس وتحول الى جلاد قُدَّ قلبه من حجر.

بث «السلطان الاحمر» ضابطه المطيع برهان أدهم في صالون عزيز عباد. فلقد كان بيت النائب الاسبق يجمع من كان يهم السراج، خلال طرحه أسئلة حول العرض السعودي، ان يعرف الاجوبة عن تساؤلاته منهم. وأنّى له أطوع واقدر على التجسس من أبي ابراهيم الذي كان رب البيت وزوجته يوسعان له المطارح ويفسحان له الصدارة؟

من رواد صالون عزيز عباد، كانت السيدة أم خالد بن سعود بن عبدالعزيز ، [احدى الزوجات المفضلات لدى المليك السعودي الراحل سعود بن عبدالعزيز] لنسابة جمعتها بالنائب السوري الاسبق. فيه التقاها برهان أدهم غير مرة ومرة، ولا أجـزم أن عبـدالحميد السراج وزوجـه مَلَكْ هناك أيضا، لكن محمد خليفة [ابو عبدالله] أحد أعوان «السلطان الاحمر» ومن مناضلي «حركة القوميين العرب» [الذي قام بتفجـير ترامـواي في باب ادريس في بيروت خلال صيف الدم في لبنان عام ١٩٥٨] تلقى من مدير مصرف عربي في الرياض كان ينتمي ـ مثله ـ الى حركة القوميين العرب، إشعاراً بمبلغ مليوني جنيه استرليني كتمويل لما سمي بـ «المؤامرة السعودية» والذي نال عزيز عباد منه «نسبة مئوية»!

كان برهان أدهم عند حسن ظن عبدالحميد السراج، فما نقله محمد خليفة عن لسان مدير البنك ، أكده ابو ابراهيم الذي استغلّ ثقة عزيز عباد وزوجته فوشى بهما عنـد «السلطان الاحمر»، فتم بينه وبين النائب الاسبق «تفاهم» حول كيفية التصرّف بالمال. . .

لما تيقّن عبدالحميد السراج من حقيقة الدور السعودي، استغله عند عبدالناصر الى أقصى مدى مصوّرا لـ «الريّس» ان في الامر «مؤامرة» تستهدف «الوحدة» وانه قد كشفها! فجازاه صاحب مصر بأن عينه نائبا له في الاقليم الشمالي. فلقد وجد جمال عبدالناصر فيما قاله السراج ذريعة للانقضاض على السعودية.



في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) ١٩٥٨ قامت «الوحدة».

في أوائل آذار (مارس) ١٩٥٨ حطت طائرة جمال عبدالناصر رئيس «الجمهورية العربية المتحدة» فجأة في مطار «المزة» في أول زيارة له لسورية التي يجهلها.

يومهـا كان السراج، [وزير الـداخلية في الاقليم الشمالي]، يندفع وعناصره، يحمي معهـا سيارة «الـريّس» فيدهش السـوريين لرؤيتـه وهو الوزير يمارس دور الحارس Body Guard المصري، فيما أعوانه يسترون بأجسادهم حديد السيارة من الامـام والخلف وعيونهم تتوزع على وجوه الآلاف الذين زرعوا الشوارع طوعا او بالاكراه لرؤية جمال عبدالناصر، الذي ترسمل بتأييد العالم العربي بأكثر مما يستلح بها في مصر من قوة ذاتية.

مدَّ صوته في «الجماهير» الذي كان يتقن فن تهييجها، ينغّم الكلمات على عادته يستثير الهتاف الغوغائي الذي يطرب به. يتمدد صوته من شرفة قصر الضيافة في ساحة الجلاء على آذان الآلاف ، كاشفا مـا سـمـي بـ «المؤامرة السعودية» ، مسوّقا عبدالحميد السراج للسوريين ، ومؤكدا لهم نزاهة السلطان واخلاصه وايمانه

بـ «القـومية» العـربية وبـ «العـروبـة الاصيلة». . . شارحا بكلام فيه الكثير من الاعتداد كيف رفض «السلطان الاحمر» ان يوافق الملك سعود بن عبدالعزيز على حكم سورية بدلا عن «الوحدة» مع مصر مقابل الصك اياه. . . المعطى للضابط «ع. س» [عبد الحميد السراج] الذي صار الشارع الدمشقي يتندر به هزءا وسخرية.

بين ضبـاط عبدالحميد السراج الذين سمعوا قولة «الريّس» في السوريين عن «المؤامـرة السعـودية» كان طلعت صدقي ، فبانت الدهشة على ملامحه، فأسرع يبحث عن السراج. شده من ذراعه وانتحى به جانبا:

ـ مؤامرة. . . أية مؤامرة؟ هل هناك ما لا أعرفه؟ هل تسمي ما جاء يوسف ياسين يعرضه عليك مؤامرة. اذكر يا ابا فراس انني يوم نقلت اليك العرض لم تبد رأيا. فلا عارضت وما رحبت . طلبت وقتا للتفكير.

احتواه عبدالحميد السراج بنظرة عجلى. ربت على كتفه وقال هامسا:

ـ يومها لم يكن وقتها قد حان. . .

قال كلامه و. . . مشى من جديد الى الشرفة ووقف خلف الرئيس جمال عبدالناصر.

---

(١) الشهيد باسل الكبيسي ،كان أحد قادة «القوميين العرب». قدم اطروحة لنيل الدكتوراه عنوانها «حركة القوميين العرب»، فيها نقرأ عن بداية العلاقة بين عبدالحميد السراج وهاني الهندي وحركة القوميين العرب. في الصفحة ٣٦ من الأطروحة ويقول باسل الكبيسي:

«لقاء عبد الحميد السراج بهاني (الهندي) تم في مكتبه وتعدد وأصبح روتينياً، لقد أدى نشاط حركة القوميين العرب في الاردن وخاصة مقاومتها العنيدة للحكومة في اعقاب اقالة حكومة النابلسي التي أكسبها قطاعات واسعة في صفوف الجماهير. في حين لفتت اعمالها البطولية انظار السلطات المصرية والسورية.

ولقد اهتمت سورية اهتماما خاصا بنشاط القوميين العرب، فقام عبدالحميد السراج ـرجل سورية القوي حينئذ ـ بتدريب اعضاء من الحركة من سورية ولبنان والاردن والعراق، ومدهم بالسلاح، من أجل النضال في صفوف الحركة السرية ضد الحكم الهاشمي في الاردن(. . .).

زواج عبـدالحميـد السراج بالقوميين العرب، الذي عقد بينه وبين هاني الهندي، لم يكن زواجا مسيحيا او مصـالـح مشـتركة ابدية، عبدالحميد السراج كان يبحث عن قاعدة يدعي الانتماء اليها والسيطرة على توجيهها ويحمل هويتها لجمال عبدالناصر. والقوميون العرب، حسب رأي هاني الهندي كانوا يتطلّعون الى وجود سريع وانتشار في العالم العربي يحدُّ من امتداد «البعث»(. . .).

* راجع كتاب «عبد الناصر وتجربة الوحدة» لصلاح نصر



عبدالحميد السراج مرافقا عبدالسلام عارف الى درج قصر الضيافة في اول زيارة للاخير الى دمشق بعد الاطاحة بالعرش الهاشمي في بغداد [١٤/٧/١٩٥٨] وقتل الملك والوصي على العرش ورئيس حكومة نوري السعيد

الفصل التاسع

موت البرلمان



ما كان لعبد الحميد السراج أن يحكم ويتحكم في الشام على مدى سنوات ست طويلة بفظائعها ومرارتها وقساوتها، لو لم يقض على الحياة الديمقراطية في البلاد. ولو لم ينشب أظفاره في جلود الاحزاب يمزقها ويقطع اوصالها إربا، يخرس بعض قادتها ويشتت من رفض المبايعة والعمالة له تحت كل كوكب.

وما كان عبد الحميد السراج قد قدر على ارتكاب التلاعبات السياسية الخرقاء التي شغلت الشام وتمددت بشرها تؤجج النار في الجوار، لو لم يلغ وسائل فضحه ومنها الصحافة.

تسلل الى البرلمان، الذي كان حتى عشية قبضه على أعنة الحكم وتحكمه بالقرار، يحاسب ويناقش ويراقب. امامه انحنت هامات العسكر. حسني الزعيم لم يجرؤ على المساس بالمجلس النيابي. في اليوم الأول للانقلاب، زار بنفسه رئيس المجلس فارس الخوري في منزله وأطلعه على ان ما كان يهدف إليه من الانقلاب هو اقامة «حكم ديمقراطي صحيح». . . وبينما كان حسني الزعيم في منزل فارس الخوري، كان جمع من السياسيين وقادة الاحزاب يتشاورون في العلن في فندق «أوريان بالاس». ولم يحل حسني الزعيم المجلس النيابي إلا بعدما اخفق فارس الخوري في جمع النواب والوزراء والاحزاب على كلمة سواء للخروج من المأزق الدستوري.

أديب الشيشكلي، أبقى اللعبة البرلمانية التقليدية، وان كان تلاعب بالانتخابات واوصل من يريد الى الندوة البرلمانية، لكنه نزل عند رغبة النواب، لما قصده النائب زكي نظام الدين يطلب اليه التنحي باسم النواب والشعب. وما كان سامي الحناوي قبله، لو قدر له ان يطول به الحكم، ان يهتك بالحياة النيابية والبرلمانية. كما فعل عبد الحميد السراج الذي نحرها برعونة وحقد وتسلط من الوريد الى الوريد.

- ١ -

أمسك نذير فنصة وجه عبد الحميد السراج بنظرة مستفسرة، لما أطرق الضابط رأسه بالارض وهو يفتح باب السيارة الخلفي عند مدخل فندق «بلودان الكبير»

ليخرج منها حسني الزعيم وهو يضع «المونوكل» [عدسة واحدة توضع على احدى العينين] مقطبا يسكب على وجهه وقارا وعلى مظهره مهابة وفي مشيته المتمهلة عظمة مقلدا الجنرالات البروسيين، يدخل بين صفين من المستقبلين الى قاعة الفندق الكبرى، حيث كان الليل لا يتعب من السهر والرقص مع الاجساد المترنحة على انغام الموسيقى الحالمة.

لقد اعتاد نذير فنصة منذ ان اصبح سكرتير عديله حسني الزعيم [تزوج حسني الزعيم من نوران كريمة احمد باقي وكان يكبرها بثلاث وعشرين سنة] يكلفه بمهام سياسية ودبلوماسية تاركا جريدة «الانباء» التي كان يرأس تحريرها لشقيقه بشير، ان يرى الضابط رياض الكيلاني يرافق عديله. وقد استغرب ان يستبدله حسني الزعيم بضابط خجول لا تبدو على محياه امارات العزم والقوة. وهو الذي أمن جانب الكيلاني وكلفه بمهام سياسية كثيرة احداها يوم اوفده الى منزل رئيس مجلس النواب فارس الخوري ليسلمه رسالة حل المجلس.

لكن مودة حسني الزعيم لمرافقه الجديد بدّدت استغراب نذير فنصة. فلقد كان الزعيم يؤثر السراج بمنزلة خاصة في نفسه! لم يخفها عن احد. وبالمقابل لم يظهر عبد الحميد السراج خلال مرافقته لحسني الزعيم ما يستثير الشكوك حول ما كان يخفيه ويضمره. فما بدا منه أي طموح وما تصرف بغير الطاعة للأوامر. صامت. متواضع. لين هين مطواع.

ولم يكن يبدر الى ذهن من عرفه في تلك الفترة انه كان ذئبا استنعج.

★★★

ويصبح الشرق الادنى محط تجاذب بين فرنسة وبريطانية والولايات المتحدة الاميركية. ويكثر الحديث وقتها، عن مؤتمر للشرق الادنى يضم الدول الثلاث للنظر في قيام نوع من «الشراكة» فيما بينها على النفوذ في المنطقة.

حكومة «حزب العمال» في بريطانية، كانت ترى انكفاء الجنيه الاسترليني امام الدولار، فعادت تعيد خلط أوراقها السياسية في المنطقة؛ تجمع في قبضة نفوذها رجال الحكم في العراق والاردن ومصر، بينما افلتت سورية منها وعصت بعدما وقف حسني الزعيم معارضا للمشاريع البريطانية والهاشمية في المنطقة التي يتزعمها مليك الاردن عبد الله وتسانده المملكة العراقية. فبدأت بريطانية تنتظر سنوح الفرص لازاحة حسني الزعيم الذي كان يحابي الاميركان ويميل إليهم.

في ظل هذه الاجواء، استدعى حسني الزعيم الدكتور محسن البرازي، وطلب منه تشكيل الحكومة [١٩٤٩/٦/٢٦] فشكلها. واصدر قرارا فور تسلمه مهامه الدستورية بتنحية الدكتور أسعد طلس [عديل اللواء سامي الحناوي] عن جميع مناصبه في الخارجية والدفاع الوطني واعاده الى سلك التعليم.

شعر أسعد طلس بالغبن يلحق به. فأوغر صدر عديله اللواء سامي الحناوي ضد حسني الزعيم ومحسن البرازي. ولقد كانت للدكتور طلس صلات قربى بعائلة الالوسي في العراق الواسعة النفوذ والمؤيدة والحامية لحكم نوري «باشا» السعيد، فاستعمل تلك الصلات للوصول الى «الباشا» وتقديمه الى «اللواء». فبدأ الاعداد للانقلاب العسكري الثاني الذي عرفته سورية.

سارع نوري السعيد الى التفاهم مع اللواء سامي الحنّاوي بايعاز من بريطانية، وأخذ يغذي ويستغل العداوات والمناكفات الداخلية في سورية لتأجيج نار تحرق بها نظام حسني الزعيم وتقضي على النفوذ الاميركاني الذي كان قد بدأ يتوطد في دمشق.

الثالثة والربع من فجر الرابع عشر من آب (اغسطس) ١٩٤٩ سدد الضباط عصام مريود وحسين الحكيم وفضل الله ابو منصور (وجميعهم آلمهم اعدام انطون سعاده مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي). نيران أسلحتهم على حسني الزعيم ومحسن البرازي. صار اللواء سامي الحناوي سيد الشام.

بعد خمسة أشهر عثر على جثة حسني الزعيم مدفونة في تابوت خشبي تحت حجارة في منطقة أم الشراطيط بالقرب من النهر الاعوج في السهل الذي يفصل سفوح جبل حرمون عن حوران...

★★★

ارتاحت ملامح عبد الحميد السراج لما تكاف المقدم محمد معروف رفع رأسه عن الاوراق المبعثرة على المكتب. فرمى على الضابط الواقف أمامه تأهباً نظرة متثاقلة سالت على قسمات وجهه.

كان محمد معروف، بعد نجاح الانقلاب يرابط في مبنى الشرطة العسكرية في يده مفاتيح الحكم والامان. ولقد جاءه السراج متوددا، غاسلا ذنوبه كونه كان مرافقا لحسني الزعيم، مبتغيا رضى الانقلابيين الجدد. فلقد تملكت «السلطان الاحمر» شراهته في التزلف يريد عبره ان يصل الى المناصب، يستبيح من اجلها كل المحرمات ويهتك كل الاسرار. خاف من دسيسة يوقعها به احدهم فيوغر صدور الانقلابيين ضده، على انه كاتم اسرار الزعيم. فعرض على المقدم محمد معروف ان يفضي إليه بكل ما يعرفه عن حسني الزعيم وبكل ما إئتمنه عليه وما سمعه منه، وكل ما كان كشفه اثناء تنصته على مكالمات الزعيم من اتصالات بشخصيات سياسية سورية وعربية ودولية.

كتم السراج غيظا كان تسلل الى عينيه فثقلت عباراته الهامسة، لما وقف محمد معروف من خلف مكتبه ومشى الى الباب يفتحه ولما يكن قد أنهى بعد كلامه.

لملم السراج بعينيه حركة يد محمد معروف التي أشارت الى الباب:

- أخذنا علما بما قلته.

لسعته نبرات محمد معروف الحادة. أوشك ان يقول كلمة أخيرة، فاستبدلها بابتسامة بالكاد أفسح لها مجالا على شفتيه. تنبّه وهو يحاول الخروج انه نسي ان يرفع يده بالتحية فاستدار. كان محمد معروف قد ردّ الباب خلفه.

- ٢ -

أخذوا نذير فنصة بجريرة عديله. رموه في سجن المزة. بقي ستة اشهر يعدها على أصابعه: ليخرج مسلوب الحول. بعد سنة من اشتغاله مع يوسف سالم [وزير الخارجية اللبنانية آنذاك] في اعمال تجارية حرة. عاد الى الصحافة التي كان هجرها طوال فترة حكم حسني الزعيم. فأسس مع حسني البرازي جريدة «الناس» وترأس تحريرها وادارتها.

يوم مقتل عدنان المالكي، كتب حسني البرازي، في غفلة من نذير فنصة [الذي كان تغيب عن مكاتب الجريدة ليلتها] مقال «الناس» الافتتاحي، فما استنكر فيه القتل بلغة كان عبد الحميد السراج يمليها على الصحافيين لتأجيج الغضب في صدور السوريين، وما ساير النقمة التي انصبت على القوميين، ليس بداعي مناصرتهم والميول الى عقيدتهم وفكرهم بقدر ما كان يرى ان شيئا مبيتا قد ظهر من الهجمة المتسرعة عليهم التي استبقت التحقيق العسكري وخالفت كل الاعراف.

مدّ رجل ربعة في القامة بدينها، الخطى امام نذير فنصة في ممر طويل اصطفت على جانبيه مكاتب ضباط «الشعبة الثانية» [الاستخبارات]، وقف امام آخر مكتب. بالكاد دق على بابه حتى دخل ثم اومأ إلى نذير فنصة فإذا به امام عبد الحميد السراج.

تحركت كلمة على شفتي نذير فنصة. استرجعها لما بادره عبد الحميد السراج:

- هل انت راض عن «الناس» يا استاذ نذير؟.

إختفى بريق كان قد مر على عيني السراج. تجمع الامتعاض في حاجبيه فقطبهما. طافت الظنون في رأس نذير فنصة. سقطت نظراته على يد السراج وهو يمسك جريدة «الناس»:

- كيف تكتب مثل هذا المقال؟

قرأ عنوانه بغضب. ثم رمى الجريدة على المكتب. هدأت ملامح نذير فنصة.

- لقد قرأته مثلك هذا الصباح!.

تنبّه الى تغير في ملامح وجه السراج!

- ليلة البارحة لم اكن في الجريدة ولا علم لي بما نشر فيها.

شعر عبد الحميد السراج بالامتنان لنذير فنصة. غابت عن وجهه علامات

الامتعـاض. أخذ نفساً طويلا وبدأ بهدوء يدعو نذير فنصة الى فض شراكته مع حسني البرازي، وان يعاودِ نشر جريدة «الانباء» واخذ بمديح الكلام مغدقاً على فنصة الوعود الرجراجة إن هو اقدم على ما يطلبه منه.

تولاه الزهو لما لم يبدِ نذير فنصة اعتراضا. ظن ان قلم صاحب «الانباء» اصبح في جيب سترته الداخلية. يومىء فيلبي ويأمر فيكتب.

وعادت «الانباء» الى الصدور. طلب السراج من صبري العسلي رئيس الحكومة ووزير الخارجية، التوقيع على امتياز جديد للجريدة. وانتظر «السلطان الاحمر» ان تصـطف «الانبـاء» الى جانب «الـرأي العـام» و«بردى» و«النصر» فتنقش صدور صفحاتها الاولى بالعناوين التي تحابيه وتتزلف، تسلس القياد له، حبرها من حبره وكلامها من فمه. . إلا ان نذير فنصة كان يميني الهوى والنزعات، حوّل «الانباء» للغمز من قناة الرباعي صلاح الدين البيطار وميشال عفلق واكرم الحوراني وخالد بكداش الذي كان السراج يستجير به ليوطد حكمه وتسلطه.

وبدأت «الأنباء» تضايق «السلطان الاحمر» فبدأ يعد العدة للتخلص منها ومن صاحبها.

وحـدث ان استدعى الرئيس شكري القوتلي، صاحب «الأنباء» الى القصر. طلب منه بحضور اللواء توفيق نظام الدين، القيام بمهمة «سرية» الى الولايات المتحدة الاميركية. فلقد توطدت علاقات نذير فنصة مع جون فوستر دالاس خلال عهـد حسني الـزعيم وتمـددت الى ما بعـده حتى اصبح له عند الاميركان كلمة مسموعة. الا ان نذير فنصة توجس من شر مخبوء فلم يخف امام شكري القوتلي خشيته من عبد الحميد السراج ، وحاول الاستفسار، إن كان رئيس المكتب الثاني [الاستخبارات] على دراية بتفاصيل هذه المهمة. فرّد الرئيس القوتلي بأن لا علم للاستخبارات بما طلبه منه وانه هو سيتدبر امر السراج.

وغادر نذير فنصة دمشق الى واشنطن. استمرت غيبته عشرة أشهر، قابل خلالها الرئيس دوايت ايزنهاور ووزير خارجيته فوستر والاس عدة مرات. ولم يكن يدر في خلده يوم عاد الى دمشق أن السراج يبيت له شرا وانـه سيكـون موضع ملاحقة الاستخبارات. فلقد ساء «السلطان الاحمر» ان لا يطلعه الرئيس شكري القوتلي على طبيعة مهمة نذير فنصة الى واشنطن، وساءه اكثر ان لا يقوم صاحب «الانباء» بنفسه بإبلاغه عن «المهمة السرية» وكتابة تقرير عما جرى بينه وبين القوتلي بحضور نظام الدين، وهو الذين اغدق عليه «معروفا» يوم ساعده على اعادة اصدار «الانباء». . .

بعد ثلاثة ايام من وصوله الى دمشق. بعث راشد القطيني يطلبه. فاقتاده سامي جمعة الى مبنى الاركان العامة. حاول في البداية ان يستدرج نذير فنصة للكلام عن

مهمته الى واشنطن وسبب غيبته الطويلة. ولما لم ينل منه مراده. غير القطيني لهجته وبدأ يجبل الكلام بالتأنيب واللوم لانه غادر دمشق من دون ان «يستأذن» السراج وهو «المفضل» عليه ولولاه لما كانت صدرت «الأنباء». . وتغرغرت حنجرة القطيني بالتهديد والوعيد.

ولم يكتف السراج بذلك. ارسل من وضع عبوة ناسفة امام بيت نذير فنصة في حي ابو رمانة لاخافته. وبعد يومين وضعت عناصر السراج قنبلة في مكتب فنصة في شارع البرازيل قبالة فندق امية الجديد. ثم اوعز الى سامي جمعة فكان كل نصف ساعة يتصل بمنزل نذير فنصة ويُسمع من يرفع سماعة الهاتف ما لا يحبون سماعه!

حمل نذير فنصة ظلامته وشكواه من عبد الحميد السراج الى الرئيس شكري القوتلي. كان في صالون القصر مجد الدين الجابري الى جانب عدد من الوزراء. صوت نذير فنصة كان يتغير تبعا لانفعاله. شكري القوتلي ظل مطرق السمع يهز برأسه وينقل نظره على وجوه الوزراء كأنه كان يريد ان يلملم ردود الفعل من العيون المستغربة حينا والمندهشة احيانا، فرآها تتجمع على وجه نذير فنصة تميل ما مالت يده اليمني مرة واليسرى مرات ترسمان في الفراغ اشارات ودوائر ولا ترتاح من التعجب.

سكت نذير فنصة. اخذ نفسا طويلا. مسح وجهه بمنديله. ساد صمت ثقيل بين الحاضرين. تحولت العيون الى الرئيس شكري القوتلي. انتظروا ان ينفعل. ان يضرب الارض برجله. إلا ان الرجل بقي مطرقا سارحا. فوجيء بالصمت. شعر بأن العيون تلكزه. تفرس بنذير فنصة هنيهات. دارت عيناه على الحضور. ثقلت عباراته على صدره:

ـ يا نذير. ماذا لو غبت عن البلد بضعة أيام؟.

ادرك الذهول نذير فنصة. تمدد الاستغراب على وجوه الحاضرين. لم يزد شكري القوتلي بكلمة واحدة. تلهى بربطة عنقه. انقذ مجد الدين الجابري موقف الرئيس... فغير الحديث.

لقد كان شكري القوتلي لا يقوى حيال تسلط عبد الحميد السراج. فلقد أفلت الأمر من يده بعدما استقوى «السلطان الاحمر» و«عصابة الضباط العشرة» عليه. وهو، السياسي المجرب. عرف ان إنغماس العسكر بالسياسة هو نهاية الحياةالدستورية والسياسية.

في ذلك الوقت لم تكن الشام تحكم من القصر الجمهوري المدني انما من مبنى «الاركان العامة» حيث العسكر!!

ـ ٣ ـ

ما ظن ان زيارة الاسبوعين إلى ايران ستستمر ربع قرن في رحاب صاحب عرش

الطاووس. فلقد التقى نذير فنصة في بيروت التي استجار بها من غضب «السلطان الاحمر» بالجنرال تيمور بختيار. يحمل إليه دعوة الشاهنشاه محمد رضا بهلوي لزيارة ايران.

وان كان نذير فنصة قد غاب عن دمشق فهو لم يغب عن بال عبد الحميد السراج وما افلت من مكائده. فبعث الى طهران من يحاول اغتياله.

إحتدّ رنين الهاتف في منزل نذير فنصة. ما كاد يرفع السماعة حتى وصله صوت خشن يطرز عباراته بلكنة حلبية رفّ لها قلبه. لم يبد في صوت المتكلم اي تلعثم او ارتباك وهو يقول له انه يحمل إليه سلاما وكلاما من شقيقته نهاد وزوجها عدنان ميسّر واشواقا في رسالة من والدته.

تركه نذير فنصة يكمل. تولاه شوق مقيم. طافت في رأسه صور شقيقته. وبانت أمامه ملامح وجه امه. سأل الحلبي اين ينزل في طهران. فذكر له اسم فندق في أحد أحياء العاصمة الايرانية الشعبية الوضيعة. لم يرتب نذير فنصة به اول الامر. ظنه عاملاً مهاجراً غير ميسور يبحث عن رزق له في طهران لذلك انتقى السكنى في حي شعبي فقير. ولعله كان يريد التأكد في صحة ظنه فرَمى السؤال عليه:

ـ ما جاء بك الى طهران؟.

لم يدعه الحلبي يكمل السؤال. فبدا أبله من الحبارى لمّا قال انه تاجر مجوهرات يشتري ويبيع. أحس نذير فنصة بانقباض يدب فيه. مشت الظنون متضاربة عجلى في رأسه. كيف يكون تاجر مجوهرات يشتري ويبيع وينزل في فندق حقير في حي شعبي فقير؟!

تحايل على نفسه. تمالك نبراته فما تغيرت. تواعد معه ان يلتقيه في الفندق في الساعة الثالثة بعد الظهر. ما عرف كيف تخلص من صوت الحلبي الخشن. وضع سماعة الهاتف بارتباك ظاهر. إنتابته رعدة ذعر: من يكون ذلك الرجل؟

فكر في كل شيء، إلا ان يكون الحلبي من اعوان عبد الحميد السراج..

تسابقت الافكار في رأسه. استقر على واحدة. ادار قرص الهاتف يرسم رقم مدير الأمن العام الجنرال بكرفان. جمع له قصة المكالمة الهاتفية بكلام مرتبك فطلب الجنرال الايراني منه ان يذهب الى الموعد المضروب من دون وجل وحذر واوصاه بعدم الصعود الى غرفة الرجل انها محاولة استدراجه من الفندق الى الشارع.

كان عامل الاستعلامات يتسلى بقص شاربيه بمقص صغير امام مرآة صغيرة مسمرة على الحائط. وبين الفينة والفينة يطلق شتيمة ويمرر ابهامه على ما تبقى من الشعيرات التي اجهد النفس في فتلها.

نفر في وجه نذير فنصة لما سأله عن اسم الحلبي ورقم غرفته:

ـ رقم ٥ آغا.

وعاد الى المقص والشتم والتمتمة. ربت نذير فنصة على كتفه وقبل ان يستدير كانت ورقة نقدية تنام في كف عامل الاستعلامات. فانفرجت أساريره. تشجع فنصة بعدها وطلب اليه الصعود الى الغرفة رقم ٥ واستدعاء الرجل.

لَوّى عنقه بخفة فخرجت من التواء فقراتها فرقعة، وأسرع الى السلم و. . . غاب.

انتصب امامه. طويل القامة ممتلىء الجسم عارم الصدر والبطن. له شاربان صغيران يزينان وجهاً اسمر حاد القسمات قبيحها. تدور فيه عينان عسليتان كبيرتان تحت حاجبين رفيعين. ما ان عرّف نذير فنصة عن نفسه حتى لفه الرجل بذراعيه وانهال على وجنتيه تقبيلا، ثم قال انه يحمل له رسائل من شقيقته وأمه. ودعاه الى غرفته ليسلمها له. فانتحل نذير فنصة الإعذار فلا عجلة في الامر. . . ثم طلب منه ان يخرجا من الفندق القذر الى الهواء الطلق في الشارع.

انطلت الحيلة على الحلبي. خرج مع نذير فنصة. تعمد الحديث عن تاريخ عائلة فنصة في حلب كأنه كان يريد ان يوهمه بأنه فعلا يعرف شقيقته نهاد وزوجها وأمه.

في تلك الاثناء تسلل رجال الامن الايرانيين الى الغرفة رقم ٥. عثروا فيها على قنينتي «فودكا» فارغتين، ومسدساً كاتماً للصوت وبين اغراضه على سكين لحام طويلة.

انتظروا عودته. ألقوا القبض عليه فاعترف بأنه من الشرطة العسكرية وان عبدالحميد السراج قد ارسله لقتل نذير فنصة.

لم يمضِ وقت. لعله سنة ونيف، لمّا طرق باب مكتب نذير فنصة في مجلة «الاخاء» التي كان يصدرها في طهران باللغة العربية، شاب في مقتبل العمر، آتٍ من اللاذقية، حمل اليه توصيات من أصدقاء له في دمشق وحلب يوصونه فيها الاهتمام بالشاب ومساعدته على التسجيل في جامعة طهران لدراسة الادب الفارسي. لم يعرض نذير فنصة عنه. ساعد الشاب واغدق عليه وأجزل، ووظفه محررا مساعدا في «الاخاء».

لم يرتب نذير فنصة بأمر الشاب. فلقد كان فطنا مواظبا ودؤوبا. قليل الكلام سريع التلبية. الا ان أحد عمال التنظيف في المجلة أخذ يرتاب من تصرفاته الذي أصبح يأتي الى المجلة باكرا، يدخل مكتب نذير فنصة يفتش في الادراج والملفات. ينسخ بعضها. فما كان من عامل التنظيف الا ان أسر لنذير فنصة ارتيابه بالشاب. فاستدعى الشاب وأخبره ان صاحب المؤسسة خفض ميزانية المجلة لذلك عليه ان يبحث عن عمل في مكان آخر. . . ثم أعلم رجال الامن بما كان من أمر الشاب لما تنبه الى فقدان بعض الملفات من رفوف مكتبه، فراقبوه في الجامعة ودهموا غرفته

فعثروا بين اغراضه على مسدس وبين اوراق المحاضرات على تقارير عن تحركات نذير فنصة واجتماعاته ولقاءاته وعن عدد من السياسيين العرب الذين يزورون طهران اضافة الى تقارير مطولة عن بعض السياسيين الايرانيين ونشاطات التجمعات المعارضة واتصالاته بها. . . فألقي القبض عليه . حوكم وحكم عليه بالموت شنقا.

عندما لاكت الصحف اسم الشاب وانكشف دور عبدالحميد السراج والاستخبارات السورية أوعز «السلطان الاحمر» بالقاء القبض على تاجرين ايرانيين كانا يملكان في دمشق مخزن «نايبيني» لبيع أقمشة السيدات في شارع الشهداء بحي الصالحية «بتهمة التجسس» فاودعهما السراج سجن «المزة» العسكري. وبعد محاكمة صورية، كعادة المحاكم على عهده، حكم عليهما بالاعدام . . . لتجري بعد ذلك مفاوضات بين دمشق وطهران تم بنتيجتها اطلاق سراح الشاب اللاذقاني وترحيله مقابل التاجرين الأيرانيين. . .

- ٤ -

لم ينتّم السراج الى تنظيم سياسي او حزبي. كان وحيدا، يستند الى «عصابة الضباط العشرة»، يستقوي بسياسة القمع والغدر على خصومه السياسيين.

عبر آلة قمعه وارهابه مزّق الأحزاب وشتت التكتلات النيابية. فاذا «بحزب الشعب» يصبح نتفا من أحزاب. و«الحزب الوطني» شيعا متعددة.

عبدالوهاب حومد، المحامي والنائب والوزير، كان عضوا في «حزب الشعب»، احتواه عبدالحميد السراج فانقلب على الحزب وأصبح من دعاة نظام «السلطان الاحمر» ومن أشد المروجين له وللاشتراكية التي ما كانت الا للملهات لافكار غير علمية.

فاخر الكيالي كان من الغلاة في «الحزب الوطني». استماله السراج فكفر بقناعاته وكفّر «الحزب الوطني»، وانضم الى احدى حكومات «السلطان الاحمر» . . . صار يقف في الناس واعظا في محاسن حكم الاستخبارات الذي روّع الشام وأدماها.

بعد مصرع عدنان المالكي. تعقب عبدالحميد السراج المحامي والنائب عن الحزب السوري القومي الاجتماعي حنا كسواني. ارسل مفارز الاعتقال يطلبه على الرغم من حصانته النيابية.

زنر قرية «داريا» [جنوب غرب دمشق] بالعساكر فحاصرتها. سدت منافذها. قطعت كل الدروب اليها. كانت قرى سورية تستسلم لجور السلطان الواحدة بعد الاخرى تسقط في التجربة. . . الا «داريا».

كانت العساكر تزرع الرعب في أحيائها. تندد وتنكل. فظلت «داريا» واقفة

ببيوتها الشتية المعممة بعرائش العنب. . . ترفض المبايعة والاوامر التي تهدد بأن الحصار لا يفك الا متى استسلم النائب حنا كسواني الذي لم يكن قد مضى على فوزه في الانتخابات اكثر من ثلاثة اسابيع ، وما كان حضر اكثر من ثلاث جلسات برلمانية الى جوار رفيقه القومي الاجتماعي الآخر بديع اسماعيل، نائب مدينة طرطوس الساحلية.

حنا كسواني. لم يكن في داريا. ففي فجر الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ بعد يومين على مقتل عدنان المالكي ، اجتاز منطقة دير العشائر الواصلة بين الشام ولبنان. . . فلقد تأكد له ولقيادته الحزبية في لبنان ، ان عملية الاغتيال المؤسفة في الملعب البلدي، لم تكن تهدف الى تصفية ضابط تلمع على صدره اوسمة الجيش السوري فحسب، انها استهدفت هز الاستقرار السياسي في الشام واكمال مسلسل الانقلابات العسكرية الذي باشره مايلز كوبلاند ضابط الاستخبارات المركزية الاميركانية C.I.A مسندا ظهره بمن تواطؤا معه وعاونوه في العالم العربي والدولة العبرية.

. . . وجاء من يقول لعبدالحميد السراج ، ان اعتقال حنا كسواني وبديع اسماعيل لا يتم بالتعقب وبالحصار. وان استسلما فلا يحق له سجنهما واحالتهما على المحاكمة لأنهما يتمتعان بحصانة نيابية مصانة دستوريا. والاجدى هو دعوة المجلس النيابي الى رفع الحصانة عنهما.

يومها. [كما روت لي زوجته في أواخر ١٩٥٨] لم ينم عبدالحميد السراج. جلس الى اعوانه يخططون لاحتواء اكثرية نيابية تقترع الى جانب النواب الاشتراكيين وخالد بكداش النائب الشيوعي الوحيد، لرفع الحصانة عن النائبين القوميين الاجتماعيين. فاذا بهم يكتشفون بعد استعراض أسماء النواب وميولهم واتجاهاتهم السياسية ان ثلثي الاعضاء لم يكونوا الى جانبهم وان المعركة اذا ما نودي بها للتصويت ستكون خاسرة. . .

ترك السراج طاولة الاجتماعات. انسل الى زاوية قصية في الغرفة الكبيرة. غرس رأس قلمه في ورقة بيضاء وكتب بعض الاسماء. سطّر تحتها واعطى الورقة لطلعت صدقي وعاد الى قاعة الاجتماعات. دار بعينيه على وجوه المجتمعين. لملم أوراقا مبعثرة دفنها في حضن ملف. لم ينطق بكلمة. وزّع ابتسامة باهتة على الحاضرين. حمل الملف وخرج.

ما كاد جلد الليل ينسلخ عن النهار، حتى كانت عناصر مفرزة سامي جمعة [زوار الليل. . ا] قد جابت بيوت النواب الذين كتب السراج أسماءهم على الورقة الصغيرة البيضاء. في جلسة رفع الحصانة فوجىء السوريون ان أكثر من نصف أعضاء البرلمان اقترعوا الى جانب قرار تبناه النواب الاشتراكيون لرفع الحصانة عن

حنا كسواني وبديع اسماعيل. وحده الدكتور منير العجلاني، انتصب واقفا. ترك صوته يهدر تحت قبة المجلس:

«وصلنا الى يوم لم يعد للنائب من حصانة او حرمة. وصلنا الى يوم صرنا نستدعى من بيوتنا واسرتّنا لتملى علينا شروط وتفرض مطالب»...

واشتعلت حنجرته بالصراخ ليحفظ التاريخ قولته:

«... سجلوا. سجلوا قولي هذا. سجلوا انكم وقت نزعتم الحصانة عن زميلين لكم ما فرحا بعد بمقعد النيابة وما ألف منبر المجلس صوتهما. سجلوا ان الاشباح تعاملت مع قضيتهما. وغدا ستتعامل مع قضيتنا نحن. اليوم كان دورهما وغدا دوركم. وتذكروا. تذكروا انكم اليوم يا سادة شددتم وباركتم اليد التي طعنت الحياة البرلمانية في الصميم».

وكأن الدكتور منير العجلاني، الذي ما يزال يعيش في غربته متنقلا بين السعودية والعواصم الاوروبية، كان يستشرف بكلامه مصير الحياة النيابية في سورية الى عقود آتية.

قد تخون الذاكرة الاسماء، الا ان ابقاها اسماء خالد العظم. صبحي الشوربجي. فاخر الكيالي. عبدالوهاب حومد. رزق الله انطاكي. الشيخ دهام الهادي [شيخ قبيلة شمر الخرسا] الشيخ دحام الدندل... هؤلاء وغيرهم مِنْ مَنْ تغيبهم الذاكرة وقعوا تحت تأثير السراج فاستمالهم. اغراهم بالمناصب وكانوا من عبدتها، فتلاعب بهم واستقوى بهم عليهم وعلى غيرهم وليحكم من خلالهم فاسهموا معه في تقويض دعائم الحياة السياسية والبرلمانية في الشام التي لم تقم لها قائمة حتى... بعده.

ـ ٥ ـ

ان سألت عن «ابي شجاع» دلّوك على صبري العسلي. فتلك كنية الرجل لبلائه ضد عسكر فرنسة ولإقدامه في قتال جبل حوران ومعركة الغوطة التي قادها حسن الخرّاط.

على ان صبري العسلي ورث الاقدام في المعامع والوطنية في المواقف عن أبيه الشهيد شكري العسلي الذي كان في عديد قوافل الشهداء الذين علقوا في ساحة المرجة في دمشق وساحة البرج في بيروت على زمن الضابط الطوراني جمال باشا.

وقد أضاف صبري العسلي العلم الى تلك الخصال الحميدة فكان رجل قانون وقضاء، وفي السياسة لمع اسمه في «الحزب الوطني» وأصبح أميناً عاماً له.

فما كنت تنتظر منه وفيه كل مَحْمِدة: الاقدام والوطنية والعلم، ان ينضم الى ركوب السائرين خلف رجل دونه اقداما ووطنية وعلما. ان يصبح واحدا من

الساكتين على امتهان الدستور والقانون والحريات والكرمات . !

فمن غامض علم الله تحول صبري العسلي الى منفذ لمآرب «السلطان الاحمر» عن خوف لا عن قناعة، يمسك معول الهدم في البنى الدستورية والقانونية والحقوقية للبلاد. فيقف في الرابع والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٥٥ في المجلس النيابي يعلن حل الحزب السوري القومي الاجتماعي واغلاق مكاتبه ومطاردة محازبيه ومناصريه. ويغض الطرف خلال فترة رئاسته الحكومة، عن الانتهاكات والفظائع والمعاصي والمنكرات وكل القمع والارهاب والتنكيل. ويسد اذنيه عن نحيب الثكالى وصراخ الامهات واليتامى فلا يستقيل احتجاجا . !

اذكر ، انني مرة زرته برفقة المحامي نزار المحايري ونسيبي تاج الدين خياط في منزله في حي المهاجرين في بداية عام ١٩٦٢ نطلب منه المساعدة لاطلاق سراح الاسارى القوميين الاجتماعيين الذين دفنهم السراج أحياء في معتقلات التعذيب والتنكيل قبل أعوام سبعة، معللين الامر بالنظام الديمقراطي الذي قام بعدما تحكم بالبلاد عسكرها، فتظللوا بمظلة جمال عبدالناصر ليحكموا ويتحكموا بالجور والعسف. فاذا به يفاجئنا برد من لا يبالي، فرك الهواء بيديه كأنه يغسلهما مثل بلاطس البنطي:

«اطلبوا مني أي شيء آخر. . . عدا تعاملي مع العسكر. صحيح ان قضية عدنان المالكي ارتبطت باسم السراج وذهبت معه ، لكن الصحيح اكثر ان العسكر عسكر. سواء كانوا عسكر السراج او غيره. . . ان قضية انغماسهم بالسياسة والقرار لا يحلها الا الله. . . فأمرنا وأمركم اليه وحده»!

بعدها. . . زرنا رئيس الجمهورية ناظم القدسي في قصر المهاجرين. دخلنا عليه مع الوزير رياض الميداني. تلونا عليه الآية. كبرنا في نظامه وحمدنا على الديمقراطية بعد حكم العسكر واثنينا على ظلال الشام من مصر. أملنا ان نكون فعلا قد عدنا الى الديمقراطية.

سوى ناظم القدسي من وضع نظارته الطبية على انفه الدقيق، تمهل بالكلام. تأنق في لفظ مخارجه. رفع يده اليمنى يرسم اشكالا في الفراغ وهو يتكلم:

«يا اخوان. . . تطلبون منا اصدار عفو عام عن المعتقلين وبعضهم ما يزال في السجون منذ سبعة اعوام. . . ليتنا نستطيع. انها قضية عسكر وأنا لا أتعاطى بها».

عسكر وديمقراطية ورئيس جمهورية.

العسكر يكرهون الديمقراطية ويتربصون برئيس الجمهورية. ورئيس الجمهورية يفضل الديمقراطية ويخاف من العسكر.

تلك قصة الشام منذ عام ١٩٤٩.

صحيح، وقت التقينا العسلي والقدسي ان عصر السراج كان قد مضى لكن تبين

لي ان زرع السراج بقي ينبت من بعده على مدى عقود طويلة . فللسراج في حصيد
الشام مرعى .



عبد الحميد السراج «خاشعا» بين نورالدين كحالة [رئيس المجلس التنفيذي في احدى حكومات الوحده السوريه - المصريه] والشيخ الراحل
ابو اليسر عابدين مفتي الجمهورية السورية و«الامير» الحسن الثاني عاهل المغرب
عندما زار دمشق لما كان وليا للعهد عام ١٩٥٩

الفصل العاشر

صوت سيده و ... سيفه!



- ١ -

الاسكندرية ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٥٦.

كان صوته يتمدد عبر مكبرات الصوت ، يلفّ آلاف الوجوه التي جاءت تمحضه تأييدها. توهّج ذلك الرجل الاسمر. اشتعلت حنجرته. انتشى بمرأى الايادي الملوحة وبالهتافات التي كان يطرب لها فتثيره. فليس مثله من يعرف كيف يلمس أحاسيس «الجماهير». يلهبها. ينشيها. كلماته تلعب بالرؤوس وعنده خبرة التلاعب في انفعالات الناس.

ـ أنا اليوم اتجه الى اخوان لنا في سورية... سورية العزيزة... سورية الشقيقة!

ترك صوته يأخذ مداه. التهبت الهتافات. اصبحت الايادي المرفوعة تتمايل مثل الموج في مدّ وجذر. دار رأسه حول المكان الفسيح بسرعة ثم... عاد صوته يسكت الحناجر المبحوحة:

«لقد قرروا ان يتحدوا معكم اتحادا سليما عزيزا كريما لندعم سويا مبادىء الكرامة ولنرسي سويا القومية العربية والوحدة العربية . نرحب بكم أيها الاخوة... وسنسير معا ايها الاخوة متحدين بلدا واحدا.. قلبا واحدا ورجلا واحدا... لنرسي مبادىء الكرامة الحقيقية... استقلالا حقيقيا واستقلالا اقتصاديا حقيقيا»(...).

لقد كان جمال عبدالناصر يعرف ان كل شيء قد تم. وان سورية سقطت في قبضة نفوذه، بعد فشل العراق في ايقاف المد المصري في سورية، لما رفض رشدي الكيخيا [زعيم «حزب الشعب» الموالي لبغداد] ترشيح نفسه في الانتخابات الرئاسية التي جرت في الثامن من آب (اغسطس) ١٩٥٥، فخاضها خالدالعظم وفاز بها شكري القوتلي في اقتراع ثانٍ بعدما فشل في الحصول على أغلبية الثلثين في الاقتراع الاول.

استقال صبري العسلي . طلب شكري القوتلي من المحامي سعيد الغزي

تشكيل حكـومة، رفضت في بيانها الوزاري الاول الانضمام الى الحلف التركي ـ العراقي، ووقعت حلفا دفاعيا مع مصر أنشئت بموجبه لجنة عليا وهيئة للشؤون الدفاع، وقيادة عسكرية مشتركة على رأسها المشير عبدالحكيم عامر.

واكملت مصر إحكـام نفوذها في الشام، في الاشهر القليلة التي سبقت غزوة السويس. فحرضت الاجهزة الموالية لها في دمشق على تدريب الطلاب الجامعيين على حمل السلاح وقيام وحدات المقاومة الشعبية، وفي العرض العسكري التقليدي في الـذكرى العاشرة للجلاء يوم السابع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٥٦ ظهرت وحدات مصرية الى جانب وحدات الجيش السوري.

محمود رياض، تحول من سفير الى وال بيده الامر والنهي، الامان والطاعة. اذا أفسح الزمان لهدف يتوق اليه خاطره لاحكام سيطرة القاهرة على دمشق، ما تماسك عن ابدائه وهو الموقن ان رئيس البلاد شكري القوتلي لن يشح به عليه. فقد وثّق علاقته به وشدد تحكمه بالزمرة العسكرية «الوطنية» و«التقدمية» التي كانت تتحكم بدورها بقصر المهاجرين وبالرئيس والعباد والبلاد. و«السفير» عبر أجهزة سفارته كان النبض في قلب الحياة السياسية السورية، والمحرك الاساسي في تبدل الحكومات وفي كم أفـواه المعـارضـين للتمـدد الناصري في الشام. وعبر ملحقه الصحافي عدلي حشاد، اشترى الاقلام وباع . من بيته [حيث كانت السفارة ايضا] المطل على نهر «تـورا» في منـطقـة «ابـورمـانـة» ، كان يحكم الشام ويخطط مع أركانه وعملائه والجـواسيس للتـآمـر على لبنـان والعراق والاردن، فأصبح محجة المنتفعين وعَبَدَة المناصب، فكان محمود رياض يلتفت الى من حوله فلا يرى الا من يلوون أزاءه الـرقـاب ويستـزلـمون ، فتـمادى وأمعن في التحكم تحت ستـار الدبلوماسية وقضية «الشعب الواحد» و«المصير المشترك»!

قرب محمود رياض البعثيين منه وأجزل لهم، فهم كانوا يغالون في تأييد مصر ويروجـون للوحـدة معها. وضرب عن طريق عبدالحميد السراج وأعوانه كل ما عداهم وعاداهم من تنظيمات وأحزاب. واستغل رشاوى الرياض التي استهدفت تدمير مركز العراق في سورية وتدعيم مركز مصر والسعودية ، كما استغل القرض السعـودي الـذي حصلت عليه دمشق في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٥ ومقداره عشرة ملايين دولار، للانفاق على شراء ضمائر السياسيين في دمشق وبيروت وعمان وتجنيد العمـلاء والجـواسيس في تلك العـواصم، فوضعهم بتصرف عبـدالحميد السراج حتى اذا ما دنت الساعة وأومأ «السلطان الاحمر» تحرك بعض العسكر في عمان والعراق وفار الدم في صيف لبنان عام ١٩٥٨ .



ودق نفير الحرب . الغزو الثلاثي الفرنسي ـ البريطاني ـ الاسرائيلي طوق السويس

بالنار، فكادت تنكس بيارقها وتسقط.

في التاسع والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦ تقدم الجيش الاسرائيلي الى سيناء. يومها كانت الشام تغلي وتفور. ضجت العساكر. شنت حرابها وانتظرت أوامر القيادة.

كان يسوي من وضع نظارته الطبية بعصبية على انفه. يزيحها بين الحين والآخر عن وجهه الاسمر. استولى عليه التعب. زحف الى عينيه. ترك تحتهما خطا أسود. كان محمود رياض يطرق السمع الى مجموعة من الضباط السوريين الذين أموا السفارة المصرية يلحون عليه الطلب للقتال الى جانب مصر في سيناء وعلى ضفاف السويس، وعلى شن هجوم معاكس على جبهة طبرية وسهل بيسان... فحاول بدبلوماسية ان يهدىء من حماسة هؤلاء الضباط الذين كانت تضج فيهم روح وثابة وهاجة بالعنفوان القومي. وقد ساءهم، وبين مصر وسورية اتفاقية دفاع، ان لا يسمح لهم في المشاركة بدحر العساكر العبرانية الغازية.

امتلأ المكتب بصوت محمود رياض وبما أوتي من فصاحة راح ينثر الكلام بنبراته الهادئة على آذانهم مغدقا عليهم الوعود بأن ينقل طلبهم الى القائد العام المشير عبدالحكيم عامر ليفتي به ويقرر.

في اليوم التالي، نقل محمود رياض الى الضباط رفض المشير عبدالحكيم عامر طلبهم القتال على الجبهات، فتلقى الضباط صدمة، بدأ معها بعضهم يشكك في نوايا مصر ومن جدوى اتفاقية الدفاع المشترك، وبعضهم الآخر يطرح علامات الاستفهام حول المشير عبدالحكيم عامر نفسه.

ولقد لعب عبدالحميد السراج دورا كبيرا في ثني المشير عامر عن تلبية رغبة الضباط في القتال من خوف ان يرتد هؤلاء في حال الانكسار عليه... ولقد كنت ارقب عن كثب الاجتماعات المطولة التي كان يعقدها عبدالحميد السراج، تارة في منزله وطورا في منزل محمود رياض وحينا في مبنى الاركان العامة وآخر في منزل أحد الضباط، ليجنب الجيش السوري دخول الحرب الى جانب الاردن [حسب ما نص عليه الحلف العسكري الذي قام بين الاردن وسورية ومصر في الثالث والعشرين من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٥٦] على الجبهة الممتدة من سفوح جبل حرمون الى شواطىء البحر الميت، فما كان يخافه «السلطان الاحمر» هو ان ينهزم الجيش السوري أمام الزحف العبراني فتخسر الشام بعض اراضيها وترتد عندها العساكر المنكسرة من الحدود الى قلب العاصمة، ويهتاج القوم خلفها ويعلو هدير الغضب على الرغم من القمع والارهاب والتسلط، فتدك الدعائم التي بناها عبدالحميد السراج لحكمه بالجور والتسلط وجبل طينها بدم الابرياء، على رأسه ورؤوس اعوانه فينتهي كما انتهى غيره من قبل...

وحاول عبدالحميد السراج اثناء لقائه بالمشير عبدالحكيم عامر في منزل محمود رياض، ان يشرح للقائد العسكري المصري مغبة اي هزيمة يمنى بها الجيش السوري ، ليس فقط على الحكم في الشام انما على اية وحدة او اتحاد يمكن ان تقوم به دمشق والقاهرة، بينما اذا تم تجنيب انغماس عسكر الشام في القتال فانه يمكن عندها السيطرة على الموقف السياسي المهزوز في البلاد عبر ضرب التنظيمات السياسية التي وجدت في الحرب سانحة للمعارضة ، والقضاء بسهولة على ظاهرة التململ في صفوف الضباط الذين خذلوا وباتوا يفكرون بالانتفاض.

وافق المشير عبدالحكيم عامر. اثنى السفير محمود رياض. خرج عبدالحميد السراج من عنق الزجاجة وبقي العسكر في الثكن.

وقد تستر عبدالحميد السراج على فعلته هذه بأن ترك الناس يظنون ان نسف خط انابيب النفط العراقي التي تتمدد في الاراضي السورية في اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٥٦ كان بناء على أوامره، في حين ان الذين قاموا بنسف خط الأنابيب هم بعض الضباط الذين شعروا بخيبة من موقف المصريين واعتبروا ان استعمال سلاح النفط هو الاجدى للضغط على الولايات المتحدة الاميركية ودول الغرب الاوروبي، على رأس هؤلاء الضباط كان احسان اديب الشيشكلي ، الذي دخل الكلية العسكرية ايام كان والده يقبض على أعنة الحكم في دمشق ويتحكم بالمنصب وبالفعل والقرار فلما تنحى والده وغادر الشام، بقي هو في صفوف الجيش يتدرج في الرتب . . .

وقت قام احسان اديب الشيشكلي ومن معه بتفجير أنابيب النفط العراقي كان عبدالحميد السراج يحيك الدسائس لاستغلال الحماسة والاندفاع العسكري والمدني لنصرة مصر في تشديد قبضته على المعارضة السورية التي كانت تجمعت في العراق ولبنان والاردن محاولة بشتى الطرق وكل الاساليب دك دعائم حكمه وانهاء تسلطه وجوره وشهوته للحكم والسلطان . !

- ٢ -

انتشى بالنصر. ولولا ان دوايت ايزنهاور فرض على انطوني ايدن الانسحاب من قناة السويس، ولولا صوت نيكولاي بولغانين الذي هدر من الكرملين، لما كان صاحب مصر قد تجرع كأس النصر وصار سيد العرب، في يده مفاتيح عواصمهم، وحده الناطق باسمهم ليتجدد حلم الوحدة.

في الشام اشتد عزم الذين بايعوا مصر وشايعوها. اختفوا وراء «السلطان الاحمر» لمّا عاد يجرد على المعادين لهم حملات الدس والختل والوقيعة.

خلال المحاكمات العرفية التي جرت عقب الكشف عما سمي بـ «المؤامرة العراقية اعار السراج صوته للنائب العام محمد الجراح تحرك بين ١٩٨٨ و١٩٨٩ لفترة في

صفوف المعارضة السورية في باريس وبغداد] الذي وقف امام قوس المحكمة العسكرية يندد «بالمتآمرين» ويتهمهم بالخيانة العظمى! قال، بينما كان السوريون الوطنيون يحاولون بشتى الطرق اقناع القيادة المصرية والرئيس جمال عبدالناصر بقبول اشراكهم في القتال وشن هجوم على الاعداء على جبهة الجولان وقبولهم متطوعين في جبهة سيناء... كان «المتآمرون» في لبنان يخططون مع البريطانيين والفرنسيين والاسرائيليين [هكذا بكل بساطة] للوثوب على دمشق والاطاحة بنظامها الوطني!...

صحيح ان السوريين القوميين الاجتماعيين في لبنان، قبل تأميم السويس في السادس والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٦ كانوا يعدون العدة مع من حالفهم من الهاربين من جور «السلطان الاحمر» للانقضاض على الحكم في الشام ولوي عنق السراج، وهدفهم في ذلك ليس اطلاق اسراهم من معتقلات التنكيل والتعذيب، ولا القيام بانقلاب عسكري يستبدل عسكرياً بآخر والذي اعتاده السوريون منذ عام ١٩٤٩، انما استثارة غضبة الناس ضد العسكر فتقوم ثورة شعبية تحرك وازع المسؤولية عندهم بعد استكانة مميتة حكّمت العسكر بهم. وكانوا على ذلك يعرفون ان الذين دفعوا بالسراج الى الواجهة واختفوا خلفه من أجهزة في واشنطن وتل ابيب والقاهرة في آن معاً، كانوا يتعاملون معه كأداة تنفيذ ليس الا، لمخطط كبير، بدأ بحسني الزعيم واستمر مع سامي الحناوي وتمهل عند اديب الشيشكلي، فلما اراد الانغماس به، استوعبه عدنان المالكي وغسان جديد كل من موقعه الوطني.

ولقد تجمعت مصالح واشنطن وتل ابيب والقاهرة عند الرأي ان لا أمان لها ولا نفاذ لمخططاتها الا بازاحة عدنان المالكي وغسان جديد من موقعهما، فلجأت أجهزة تلك العواصم الى خطة طالما جربتها واشنطن في غير دولة من اميركة اللاتينية وجنوب شرقي آسية ودول العالم الثالث.

ولقد قضت الخطة بأن يحتوى قائد عالي القدر والوطنية والنفوذ مثل جورج عبدالمسيح، فتمت مساومته على سلامته الشخصية، ودغدغ طموحه في السلطة والسلطان ليشارك في عملية التخلص من قائد مثل عدنان المالكي، كي تتوجه التهم الى غسان جديد، فاذا انقضوا عليه عبر ادواتهم المحلية - كما فعلوا فيما بعد - تكون الترتيبات قد انتهت، فما عاد لعدنان المالكي ان يمنع الانقلابات العسكرية ولا قدر لغسان جديد ان يبقى الضابط القدوة لاترابه في الجيش، ولرفقائه ومحازبيه، العاملين على تشكيل جبهة متماسكة تأخذ تعاليمها وأوامرها مما يرون انها الخطة النظامية الوحيدة في مواجهة خطة تيودور هرتزل وحاييم وايزمان ودايفيد بن غوريون وغولدا مائير... قضاة الدولة العبرية الاوائل وبناة مجد صهيون.

وتمت المؤامرة. قتل عدنان المالكي. اتهم غسان جديد بالقتل. هرب الى لبنان، ليعود فيقتل فيه.[1] تصرف جورج عبدالمسيح بمعزل عن الحزب. في أدبيات ومذكرات بعض القادة القوميين الاجتماعيين، عبدالله سعادة، أسد الاشقر، سعيد تقي الدين، ان عبدالمسيح. رتب عملية القتل مع اسكندر شاوي (الراحل) فلم يطلعا الحزب بقيادتيه التشريعية والتنفيذية، الامر الذي لحظته المحكمة العسكرية عند محاكمتها القيادة القومية الاجتماعية. فبرأت الحزب في مؤسساته من قضية المالكي. وجرّمت جورج عبدالمسيح واسكندر شاري بالقتل. اما الذين حوكموا فلأنهم أعضاء قياديين في الحزب من ضمن خطة الانقضاض على الحزب السوري القومي الاجتماعي. لينتزعوه من قلب الحياة السياسية السورية وقد كان له فيه المكان والمكانة، كذلك لم يصدر عبدالحميد السراج حتى مذكرة توقيف بحقهما.

★★★

في الثاني والعشرين من آذار (مارس) ١٩٥٥، قبل شهر من اغتياله، كان عدنان المالكي في مكتبه في وزارة الدفاع، يستعرض ملفا تضمن تنقلات عدد كبير من ضباط الجيش كانوا يوالون اديب الشيشكلي، وبعضهم كان مقربا منه.

كانت الاوراق ممهورة بخاتم رئيس الأركان العامة اللواء شوكت شقير، الذي ارفق لائحة التنقلات بأمر عسكري ان تتم بسرعة ومن دون اية ضجة إعلامية، مقابل تعويضات مالية سخية.

نشر الاوراق على مكتبه. تنقل نظره عليها باشمئزاز. تناول واحدة بعصبية. علكها بين أصابعه. تناول أخرى، ضغط عليها. بدأ يقرأ الاسماء أمام نقيب [متعه الله بالعافية فاني ابقي اسمه للزمان] يلحق الاسم بهزة رأسه. صوته كان يعلو. شرايين رقبته تكاد تمزق الجلد من انتفاخها:

«هذا غير معقول... غير معقول... لن أقبل به».

ابصر في عيني النقيب حيرة. طافت برأسه لحظة غضب. هوى بقبضته على المكتب. بعثر الأوراق. بحنق:

- لو وقعت على تنفيذ هذه اللوائح لما بقي في الجيش لا قائد ولا ضابط صغير. هذا التجني لن أقبل به... ألهذا الدرك وصلنا؟.

اطعم النقيب سيكارته صحن الدخان. خرج دخان رمادي من فمه ومعه سؤال:

- من اعطاك هذه اللوائح لتعرضها عليّ.

استسلم عدنان المالكي للسؤال. ترك النقيب يعصر لفافة ثانية بين شفتيه. يمتصها بعصبية. وهو يجمع شتات الورق من أطراف مكتبه. أجاب بكلمات بدأ الهدوء يتسرب الى مخارجها:

ـ هذه اللوائح اقترحها اللواء شقير ووقع عليها وزير الدفاع وارسلها اليّ للتنفيذ.
رافق النقيب بعينيه حركات عدنان المالكي وهو يدفن الاوراق في حضن الملف، يغلقه بحنق. ثم يحشره تحت ابطه و. . . يخرج.
لم يعرف كيف هبط درجات السلم الى الدور الثالث. مدّ خطوات مسرعة في الممر الطويل باتجاه مكتب وزير الدفاع معروف الدواليبي. تسارعت الافكار في مخيلته. احسّ بالامتعاض. حاول ان يطرد غضبا مقيما. تجمع في عينيه، فكان يتحايل على ابتسامة غاصبت شفتيه يشلحها على وجوه المارين به من الموظفين والعسكريين. لقد ساءه ان يصل الحقد بقيادة الاركان الى الضغط على الوزير المدني لتصفية عناصر كان كل ذنبها انها عقدت الولاء لرئيس البلاد. فما كان عدنان المالكي يخفي في مجالسه الخاصة رفضه مثل تلك التصرفات، فمسلسل التسريحات كان في نظره مثل كرة ثلج كلما تدحرجت كلما كبرت، تبدأ في أول المنحدر كرة صغيرة وتنتهي في آخره كبيرة ليس في وسع قدرة أحد على ايقافها. . . وعلى الرغم من ان اديب الشيشكلي قد سرّحه وسجنه في المزة فبقي فيه اشهرا طويلة، لكنه لم يكن ليوافق شوكت شقير ومعروف الدواليبي بأن تسريح الضباط هو عمل عسكري ينهي وضعا سارت اليه القوات المسلحة السورية منذ انقلاب حسني الزعيم الاول ثم اعدامه. . .
تسربت الافكار فجأة من رأسه وتلاشت. تملكه التحفز لما رأى الوزير معروف الدواليبي يخرج من مكتبه وخلفه احد مرافقيه يتوجه مسرعا الى المصعد الكهربائي. فلقد كان الوزير على موعد. انتصب عدنان المالكي امامه. رفع يده بالتحية. انزلها بسرعة. نقل الملف بين يديه. قال بهدوء يتلمس انتباه الوزير:
ـ سيدي . . . هل لي من وقتكم بضع دقائق. . . فعندي ما أريد ان أعرضه عليكم حول ما جاء في هذا الملف.
احتارت نظرات معروف الدواليبي بين الساعة في معصمه ووجه عدنان المالكي والملف بين يديه:
ـ أي ملف . . الا تراني على عجلة من امري؟.
تملّاه عدنان المالكي جيدا. استأنف تلمسه:
ـ سيدي. . . ان الموضوع لخطير جدا. أرجو ان تفسحوا لي بعض الوقت للحديث حوله. . .
تضايق معروف الدواليبي . استرجع نفسا طويلا. انكمش الامتعاض على شفتيه. دفع الكلام دفعا ثقيلا:
ـ ان كان الامر يتعلق بتسريحات وتنقلات بعض الضباط فقد وافقت على لائحة اللواء شوكت شقير ووقعت قراراتها وأمرت بتنفيذها فصارت مبرمة لا رجعة عنها ولا

بحث فيها وعليك أنت في الشعبة الثالثة تنفيذها بالحرف. . .

اتجهت العيون اليه وهو يصرخ في وجه الوزير. تجسدت لعدنان المالكي قدرته على الرفض. تخلى عن رصانته. قال ناهرا:

ـ لن أسمح لك بدخول هذا المبنى بعد اليوم. لن اسمح لك بتسريح اي ضابط. فعدا الملازم عبدالحق شحادة الذي غادر مع أديب الشيشكلي [كان مجيب سليمان المرشد كما مرّ معنا من ضحاياه] لن أقبل بتسريح اي واحد منهم. ثق ان هذا الموقف لا يعبر عن رأيي فقط انما عن رأي غالبية الضباط. . .

همد معروف الدواليبي في مكانه لا يقوى حراكا، كأن طنين نبرات صوت عدنان المالكي الحادة في اذنيه قد شلت مفاصله. تولاه انقباض. مسح وجهه بمنديله. تراجع عدنان المالكي خطوات الى الوراء.وقفت يده عند صدغه وهو يلقي التحية. أدار ظهره و. . . مشى.

معروف الدواليبي، خرج من وزارة الدفاع ذاك اليوم ولم يعد اليها. . .

ما رويت هذه الحادثة الا لتكون مثالا للجموح والتخبط السياسي والعسكري في تلك الحقبة السورية التي تداخلت فيها مصالح الدول الاوروبيةوالاميركانيةوالعربية خصوصا المصرية والسعودية.

ـ ٣ ـ

ما تنسلت ايام عام ١٩٥٧ حتى كان الانحلال يدب في أوصال الشام. وبدا جليا ان الزمرة العسكرية التي كانت تتحكم في البلاد بدأت تفتقر الى القواعد التي تحدد السلوك السياسي. عبدالحميد السراج الذي كان على رأس جهاز الامن المولج بحماية النظام من الانشقاقات والصراعات، دمّر البلاد بحيث لم يبق ما يمكن الانشقاق والصراع حوله.

سَخا السراج في ارهابه وتطويعه الناس. دخل في صراع بين مصالح الفئات الاجتماعية. ووقف لا يقوى على شيء وسط استعار الخلف والتنافس بين البعثيين والشيوعيين. الا ان ذلك لم يمنعه بالتالي من نشر الدسائس في الجوار. وكان سلاحه في التمهيد للفتن اجهزة اعلامية احترفت الختل والدس والابتكار المشين للتعابير التي كانت تتغرغر بها حناجر المذيعين وتتفنن الجرائد المأجورة للسلطان في نقشها على صفحاتها الاولى.

لم يسلم الحسين بن طلال من لسان جهاز عبدالحميد السراج، الذي كان يسيطر عليه الشيوعيون والاشتراكيون، فكانت اذاعة دمشق تطلق عليه اسم «الحسين بن زين» نسبة لوالدته الملكة زين. كذلك لم يرحم الرئيس كميل شمعون من النعوت والاوصاف والهجمات الاعلامية المنظمة التي كانت تصطاد في مياه

الطائفية العكرة وتحضر لفتنة وقف خلفها برهان ادهم، اكرم الصفدي، ومحمد خليفة وغيرهم . . . من الذين بثهم عبدالحميد السراج في بيروت ليعيثوا بها خرابا.

وما كان يتعب الاثير من حمله كان الحبر الاسود ينقشه في الجرائد باقلام احمد عسه في «الرأي العام» واحمد علوش في «الصرخة» ويتباهى به صحافيو الدرجة الثالثة أمثال عدنان ملوحي في جريدته «الطليعة» [صدرت مذكراته مؤخرا] وما يفضل عنهم وتضيق له صفحات جرائدهم يدبجه الشيوعيون في جريدتهم «النور» التي كان يرأس تحريرها عبدالباقي الجمالي.

وكما استغل عبدالحميد السراج الصحف والاذاعة لبث الدسائس والتحريض على الفتن في الجوار، استغلها في صراع المصالح بين الفئات الاجتماعية ولتقويض البنى الاقتصادية للبلاد ولترسيخ «اشتراكية» مطوطة المفاهيم خادعة، ليس فيها من الايديولوجيا غير اسمها. فتبدّى الصراع الطبقي حادا بين العامل وربالعمل. الفلاح والملّاك، التاجر والمستخدم وحتى بين الموظفين في القطاع الخاص والعام . . .

لقد كان للشيوعيين والاشتراكيين رجالهم في نقابات العمال وغيرها . . . غير انهم لم يعطوا لحقوق العمال والاجراء والموظفين بالا، انما خولوا نفوذهم في تلك النقابات وفي الطبقة العاملة لتعزيز اهدافهم السياسية الخارجية المصرية والسوفياتية ضد ما راج من احلاف واتفاقات ومعاهدات وارتباطات مع الغرب الاوروبي. وبدلا من ان يكونوا عونا للناس اصبحوا عالة يشدون من أزر «السلطان الاحمر» ويساعدونه على نشر ظلمه وجوره وعسفه.

حام دس السراج حول «الشركة الخماسية» ونعق بومه فوقها. اتهمها بالعمالة والارتباط بالخارج. فما كان أهون على زمن «السلطان الاحمر» من قذف الناس بالاوصاف والنعوت ورجمهم بالتهم القاذعة. انذارات الصحف تهاجم «الخماسية» تتهمها بأنها تقف وراء كل محاولة اصلاحية او تغييرية تناقض الحكم السراجي وتتهم الشركاء الخمسة [انور الدسوقي. انور القطب. عبدالحميد دياب. أنور الخجا. عبدالهادي الرباط] بارتباطات خارجية ثم تكشف ان الرئيس شكري القوتلي يملك اسهما في «الخماسية» وهبوها له لتمرير صفقات واتفاقات مشبوهة! وحضروا الناس والعمال الثلاثة آلاف الذين كانوا يرتزقون من خيرات «الخماسية» للاعظم . . . للتأميم.

صحيح انه كان للشركاء الخمسة ومعهم رئيس البلاد، ارتباطات اقتصادية خارجية. ولكنها لم تكن تتعدى المجال التجاري الذي كان يؤمن لشركتهم رواج نتاجها ويفتح امامها الاسواق. فليس من يشك في مدى وطنية ذلك الصرح الصناعي الضخم، فعندما احتدمت معارك الاستقلال التي خاضها السوريون ضد

فرنسـة وجيوشهـا كانت «الخـماسية» تمول الثورة والثوار وتنفق على أسر المعتقلين والاسرى في سجون الاحتلال الفرنسي وسراديبه وأقبيته. فما نالت من عبدالحميد السراج غير الاذى والجحود. فأنهى «الخماسية» كما انهى غيرها باسم الاشتراكية والعروبة.

- ٤ -

مثلما حاول قلب الحسين بن طلال مرة بوساطة اللواء علي أبو نوار ومثّنى على هدير دبابات اللواء علي الحياري، احتضن «السلطان الاحمر» منيف الرزاز [الامين العـام الاسبق لحزب البعث العربي الاشتراكي] وعشرات معه من البعثيين والاشتراكيين والشيوعيين الاردنيين. وتبنى المعـارضة العراقية ضد الوصي على العرش العراقي عبدالاله ونوري السعيد، فكان صدام حسين [الرئيس العراقي] وصحبه «ضيوف» عبدالحميد السراج في دمشق قبل أن قرر الرئيس جمال عبدالناصر «استضافتهم» في القاهرة.

رجال المعارضة اللبنانية الذين تجمعوا فيما سمي وقتها «الجبهة الوطنية»: كمال جنبلاط. رشيد كرامي. صائب سلام. عبـدالله اليافي. صبري حماده. أحمـد الاسعـد. سليمان فرنجية. رينيه معـوض وغيرهـم... كانوا يتدافعون إلى بلاط السـلطان، ومـعـهـم بعض الـصـحـافـيين الـذين استـمالهـم السراج ومن بينهم سعيد فريحة. نسيب المتني. وسليم اللوزي.... تدفع فواتير اقاماتهم ويتقاضون الجعالات من أموال المكلف السوري التي كانت استخبارات السراج تستولي عليها من ميزانية الدولة.

السلاح الذي هُرّب إلى لبنان في صيف الدم عام ١٩٥٨ كان سلاحا سوريا، دفع المواطن السوري ثمنه ليرفعه في وجه الاسرائيليين، فاذا بعبد الحميد السراج يسربه من الثكن، يوزعه على أعوانه ومريديه الذين كانوا يؤمنون بـ «قيادته الرشيدة» وبـ «نزاهته الوطنية» وبـ «عروبته الصادقة»! فيبيعونه ويتاجرون به عند من يستطيع رفعـه في وجه النظام اللبناني... الذي ساء السراج ان يكون على رأسه سياسي أريب مثل كميل شمعون يوالي بغداد والاردن ويعارض المد الناصري...

لما بدأ عبـدالحميد السراج يعـد العدة للفتنة في لبنان. أرسل اكرم الصفدي [يملك اليوم في القـاهـرة مدينة للملاهي اسمها «غرناطة»...] وزمرة لاغتيال الصحافي نسيب المتني، صاحب جريدة «التلغراف». فنفذوا. أُطلق عليه النار أمام منزله في الثامن من ايار (مايو) ١٩٥٨.

لقد اختار السراج نسيب المتني لأسباب عديدة منها، ان صاحب «التلغراف» معـارض لكميل شمعـون ومحسـوب على الشـام. وبـذلـك تبتعد الشبهات عن

«السلطان الأحمر»، ذلك انه كيف يعقل ان يقدم على تصفية صحافي كان يواليه ويحابيه؟ ثم ان نسيب المتني مسيحي وقتله في ذروة الهياج الطوائفي يشعل البيت اللبناني. وما مهد له اتباع السراج في بيروت تمّ. فما ان انتشر خبر اغتيال المتني، حتى سارعت «الجبهة الوطنية» التي كان يدعمها السراج بالمال والعتاد والرجال . . . إلى القاء تبعة القتل على حكومة سامي الصلح. أضربت بيروت. تبلور الاحتجاج الى ثورة مسلحة لفت بيروت ودارت على طرابلس وصيدا والشوف. هاجم أعوان عبدالحميد السراج مخفر المصنع على الحدود اللبنانية ـ السورية . قتلوا حراسه. ففقدت الحكومة اللبنانية سيطرتها على الحدود الشرقية. و. . . بدأ صيف الدم يحصد القتلى ويوزّع الخراب.

وقد استند عبدالحميد السراج في مساندته لـ «الثوار» اللبنانيين على سببين:

الاول، منع لبنان ان يكون مركزا للتآمر على الشام [وتلك معزوفة ألفها اللبنانيون والسوريون معا كلما غاب عهد وأطل آخر على دمشق] بينما الذين أحلوا دمه وتآمروا عليه في لبنان كانوا من المضامين من جوره واضطهاده وعسفه، وما كان السوريون واللبنانيون الذين عقدوا العزم على التخلص منه يحاولون ملكا في الشام، بل كانوا يستهدفونه شخصيا لأنه استباح كراماتهم واحرق الرطب واليابس في زرعهم وشردهم تحت كل كوكب وهتك بهم وبنسائهم. سجن احرارهم وحرائرهم سنوات طويلة، تجرعوا علقمها وقساوتها فما استلانوا خشونة السجن إلا للنيل منه.

اما أن يكون الوازع القومي قد تحرك في صدر عبدالحميد السراج فآزر «الثوار» لمنع كميل شمعون من تجديد ولايته سنوات ست أخرى [كانت ستبدأ مع خواتيم الولاية الاولى في صيف ١٩٥٨]، والمرتبطة بالغرب وبمصالحه الاستعمارية، فذلك بعد مرور السنوات الطويلة ما زال يثير علامات الاستفهام:

هل حقيقة كان كميل شمعون أكثر قربا من واشنطن ولندن من جمال عبدالناصر وعبدالحميد السراج؟

ألم يكن انقلاب الثالث والعشرين من تموز (يوليو) ١٩٥٢ الذي أطاح بعرش فاروق، نصرا لواشنطن في صراعها مع لندن؟ لقد كانت واشنطن ترغب في التعاطي مع رجل واحد في العالم العربي فأزاحت محمد نجيب واختارت جمال عبدالناصر، الذي لم يفقد مودتها حتى بعدما أمم القناة فجاء دوايت ايزنهاور لنجدته بعدما كاد الغزو الثلاثي يقضي على حكمه الطري.

لقد كان كميل شمعون أقربَ الى الانكليز من عبدالناصر. وكان عبدالناصر أقرب الى الاميركان من شمعون. واما فؤاد شهاب الذي ناصره صاحب مصر فقد سعى الاميركان لمجيئه على سدة الرئاسة اللبنانية.

هل حقيقة ان عبدالحميد السراج كان ذلك «الوطني» الصادق و«العروبي» الوفي

[الذي لا زلت أؤمن بأنه يعرف من قتل عدنان المالكي حتى لا اتهمه بأنه قتل غسان جديد في بيروت] حتى يصطفيه صاحب مصر من بين ستة ملايين سوري في اواسط الخمسينات ليكون نائبا عنه ووليا على بر الشام فيها بقية رجال الحكم والسياسة والعقائد والافكار في الجانب الآخر غير الوطني؟

هل كان جمال عبدالناصر يفكر بعمق وحكمة يوم اختاره صفيا ونديما، يزوره في دمشق وبلودان ويغدق عليه نعمه ويسبغ دعمه ورعايته وحنوه، ثم يتركه يسوس الشعب بالسوط، يمعن في تجويعه وتخويفه وتسليط المحاسيب والجواسيس عليه وتحويل البلاد الى حبس كبير لا يجرؤ اي مواطن على الاعتراض أو الشكوى؟

اذكر فيما اذكر، ان وفدا من رجال الاعمال، كان بينهم الشقيقان محمد وموفق الميداني، قصد القاهرة للتظلم لدى عبدالناصر من أذى وجور سلطان دمشق الأحمر. ولأن الشكوى ممنوعة في حضرة صاحب مصر ، فقد استبدل الوفد الشكوى بابداء «الملاحظات» حول الحال وسوء المآل في دمشق والفوضى في وزارات الاقليم الشمالي وهيمنة المحاسيب والازلام على مقدرات العباد.

سمع «الريّس» . اكتسى وجهه بامارات الاستهجان. لا يرضى الظلم في الرعية . ما اكتفى بابداء الاهتمام . أومأ الى من كان معه من معاونيه ان يسجل تلك الملاحظات ويرفعها الى الاجهزة المختصة للتحقيق بها. ظن من كان في الوفد ان كلام «الريّس» سيصل الى أسماع «السلطان الاحمر» فيرعوي ويعدل في الرعية. خرجوا من قصر «القبة» ، بعضهم اتقى الله في عباده وعاد الى دمشق ، وبعضهم الآخر خاف. . .

ولا شيء تغير أو تبدل. حاول موفق الميداني طرق باب عبدالحميد السراج، فسد في وجهه. فقصد وزير الاقتصاد اكرم الديري في مكتبه يعترض على عدم توقيع «سيادة» الوزير على رخصة استيراد جهاز تكييف لقصره في دمر. فما كان من اكرم الديري الا ان انهال على موفق الميداني بالشتائم، ويخبر من سمع عمن حضر ان اكرم الديري اوسع موفق الميداني ضربا مبرحا حتى كاد يغمى عليه. فأمر أحد مساعديه برميه خارج المكتب.

موفق الميداني صار في السنوات الاخيرة ثريا سعوديا مرموقا قبل وفاته في خريف ١٩٩١ واكرم الديري هو الذي أصبح مديرا لاعماله . !

★★★

. . . واعتقل عبدالحميد السراج في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦١ . اقتادوه الى سجن «المزة» الذي أذاق فيه السوريين طعم الموت.

صدرت «الاهرام» بعدها بأيام مطرزة بمقال كبير كتبه محمد حسنين هيكل طرح فيه تساؤلات مرة عن اسلوب «السلطان الاحمر» في السلطة وممارسته الحكم.

تساءل هيكل لماذا كان عبدالحميد السراج يوعز إلى أعوانه بمراقبة الخارجين والداخلين الى الفنادق . لماذا كان يتنصت على المكالمات الهاتفية؟ لماذا حول الشام إلى حبس كبير، ففرض على السوريين تأشيرة الخروج التي تمنع المواطن من ممارسة حقه الطبيعي بالسفر من بلاده والعودة اليها متى رغب وساعة يشاء. لماذا ابتكر لهم «ادارة المحفوظات» التي كانت لا تسمح لأي مواطن ان يغادر بلاده إلا بعد أن يعرض جواز سفره عليها فتقول رأيها فيه سلبا ام ايجابا.

كان محمد حسنين هيكل في مقاله الطويل يحمّل عبدالحميد السراج مسؤولية الانفصال، كأنه كان يريد أن يقول انه لولا ذاك الغيم الاسود الداكن لما كان ذلك المطر الغزير.

هل كان هيكل كتب بها كتب لو لم يأذن «الريّس»؟

وإذا كان «الريّس» يعرف كل ما كتبه هيكل وعدده من تجاوزات وسياسات خرقاء مارسها عبدالحميد السراج، لماذا سكت والشعب في الاقليم الشمالي في جمهوريته المترامية الأطراف يئن من وجع التنكيل والاضطهاد والتعذيب ؟

إلا إذا كان عبدالحميد السراج صوت سيده و. . . سيفه.



عبدالحميد السراج في حفلة تخرج ضباط

دورة ١٩٤٨/ ١٩٥٠

الفصل الحادي عشر

بداية النهاية



- ١ -

لفّت جسدها النحيل بمعطف سميك. سترت رأسها بشال صوفي تراخى منسدلاً على كتفيها. اندست في الصف الطويل والى جانبها ابنتها. أمامهن وخلفهن مئات النسوة اللائي جئن لزيارة المساجين في «سجن القلعة». فيوم الثلاثاء من كل أسبوع هو دور النساء والجمعة للرجال وحدهم . . .

شتاء دمشق يزني بالبرد. رذاذ المطر يسكب في الاجساد برودة تتمدد على أطراف الاصابع وتنام في الركبتين تشلهما. مزاريب التوتياء التي تمد لسانها الطويل على حيطان المحلات القديمة في «سوق العصرونية»، كانت تحول الدرب الى بِرَكٍ تغمر الارجل بالمياه الوسخة.

مدت بصرها، فاذا بالصف الطويل يتحرك. ضغطت أصابعها على حقيبة جلدية حشرت فيها بعض الملابس. مسكتها ابنتها من ذراعها. نبهتها الى فجوة وسط الدرب. ارتعشت لما بدت لها بوابات الدخول الحديدية. بعد لحظات سترى ابنها. سيرمي رأسه على كتفها. ستمرر أصابع يدها المعروقة المدبوغة على شعره. على وجهه. على ما بقي من آثار الحزن والألم الشديدين . . .

عَلاّ صراخ، انتشلها من رعشتها اللذيذة. تدافع الحرس على المدخل. هدد واحد منهم أجهد النفس بفتل شاربيه وبتلوين وجهه بالحزم والشدة، باغلاق الابواب وترك الزائرات تحت المطر الذي اشتد وسخا، ان هن لم يتمهلن على رجاله الذين كانوا يغمسون أيديهم في الحقائب يفتشونها. يبحثون عن الممنوع والمحظور.

وصل دورها. نتر الحارس الحقيبة الجلدية من يدها. رماها أمامه على الطاولة. حاولت ابنتها ان تشرح له ما فيها. فرمى عليها نظرة حمق من عينين محمرتين. تناول الحقيبة بيديه المعضلتين وقلبها على الطاولة. تعجل في بعثرة ما احتوته ثم . . . قال:

ـ من عندك في القلعة؟.

حررت رأسها من الشال الصوفي وكشفت عن شعر امتد المشيب فيه:

ـ ابني . . . أنا أم عصام المحايري، وهذي أخته.

امتلأت نظرته بالغضب. تغيّرت ملامح وجهه . جمع في صوته نبرات لئيمة. حرّك عصا في يده اليمنى. اشار بها الى سهام شقيقة عصام المحايري ان تعيد حشر ما بعثره على الطاولة في الحقيبة الجلدية.

تغلبت على دمعة كادت تسيل من عينيها. أمسكت بيد ابنتها تتوكأ عليها ومشت، نزلت الى سرداب طويل ومنه الى سلم ثم الى باب ثالث وتفتيش آخر واوامر وصراخ. . . قبل الوصول الى قاووش نتن تفوح منه روائح الدم والقيح، كان يضم ابنها وعشرات آخرين من أحرار الامة الذين ذاقوا الامرين داخل الحيطان السميكة لقلعة تباهى صلاح الدين الايوبي بتجديدها قبل ٨٠٠ عام ليجعلها قصر حكم وقلعة ملك ، خرجت منها راياته لترد هجمة الاوروبيين على الشرق القديم. . . فحول السراج قاعاتها الفسيحة الى معتقل رهيب تأنف حتى خيول ركن الدين الظهر ببيرس من السكنى فيها والاقامة.

كان قد مضى على الصحافي والمحامي والنائب السابق عصام المحايري [رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي ـ الطوارىء في الاسر خمس سنوات متنقلا بين سجن «المزة» العسكري وسجن «القلعة» المدني. ذاق خلالها الأمرين ومورست عليه صنوف الضغط النفساني والمادي وتناوب الجلادون عليه في كل موقع!



امتلأت عينا أم عصام المحايري بشيء اشبه بالدموع. سال نظري على قسمات وجهها التي ما انسحب الوقار والعزم منها، وهي المضامة حسرة على ولدها. كانت تتكلم بهدوء وباعتداد في نفس ما وهنت على الرغم من الآلام التي تكبدتها منذ ان سلخوا ابنها عنها.

كانت تصلني كلماتها وفي نفسي ينزّ جرح مقيم. فعلى قدر ما كان يغضبني ان تربطني نسابة مع حاكم مستبد جائر مثل عبدالحميد السراج، على قدر ما كان يؤلمني ان يظن الناس ان لي دالة على «السلطان الاحمر» وان تواسطوني عنده لقيوا مرادهم.

فلقد ظنت والدة عصام المحايري عندما زارتني يومها، انني قادر على فعل شيء ما، قد لا يكون بالضرورة اطلاق سراح ابنها فهذا أمر دونه خرط القتاد، لكنني قد أقدر اذا سعيت لدى السلطان على تحسين عيشه خلف أسوار السجن الرهيب. او

حتى على نقل السيدة جوليات المير [قرينة انطون سعاده] من القاووش الجماعي الذي كان يضمها والمومسات والشاذات الى قاووش انفرادي . . .

تملكني الانقباض. قفز أمامي وجه عبدالحميد السراج . تمايلت الافكار في رأسي حيرى. ماذا أقول لتلك السيدة الوقورة المضامة بابنها؟ كيف أرد لها طلبا؟ كيف أشرح لها عن علاقتي بـ«العديل»؟

أبصرت ضيقا في وجهها. تنتظر الكلام المطمئن مني. ارتجف الكلام على طرف لساني. رددته مرات الى حلقي. تحايلت على فنجان القهوة. كأني ابحث عن لحظة استجمع فيها الكلام من جديد. ابتلعت ما تبقى فيه بسرعة. شرحت لها صعوبة الامر. وانني جرّبت من قبل ان افاتح مَلَكْ زوجة السراج بأمر قرينة انطون سعاده، فلم ألق منها الصدود وعدم الاهتمام فقط، انما الاصرار على اعتبار زوجة سعاده «مجرمة» تستحق العقاب، وأن القوميين هم «عملاء» تحالفوا مع العالم كله ضد سورية! ولا أظن اليوم ان الرأي تبدل عنده وعندها و«السلطان الاحمر» في أوج مجده وتسلطه وتحكمه بالبلاد والعباد.
تنبهّت وانا أسهب في الكلام ان شيئا غريبا لاح في نظرات والدة عصام المحايري. قاطعتني بلهفة من وجد شيئا ثمينا لا يريد اضاعته:
«ماذا لو سألت زوجة السراج عن موعد لي فأزورها. . . فلربما وهي الام تتفهم شعور أم محرومة من ابنها، لا تراه الا لساعة مرة في الاسبوع».
بدت على وجهها امارات الحزن. احسست في داخلي بشيء غامض لا أفهمه. هل تقبل مَلَكْ بمقابلتها؟
وجدت نفسي أرد بتلقائية:
ـ سأجرب. . . سأجرب، وان فشلت فسأحاول أن ألح عليها ربما استلان قلبها القاسي .

طاف ارتياح غريب على وجهها. أفسحت لابتسامة خجلى مرت خطفا على شفتيها. هزّت برأسها علامة الرضى. ضغطت على كتف المقعد تهم بالوقوف. رفعت رأسها على مهل. ألحت في الكلام ان أفعل ما استطعت من أجل زوجة انطون سعاده. مرقت دمعة على عينيها:

«ابني رجل كان في الحزب يحمل مسؤولية، وهو قادر على تحمل العذاب والأسر اكثر من الذي تحمله حتى الآن. أما زوجة سعاده فلا شأن لها بكل ذلك، حتى الجاهل يعرف وضعها الرمزي في المؤسسة الحزبية، فضلا عن انها امرأة ثكلى، فقدت زوجها وتركت خلفها ثلاث بنات بلا معيل، بحاجة الى حنانها ورعايتها».

- ٢ -

لم أنَمْ ليلتها.

صرفت الليل انتظر النهار ومعه دبيب أشعة الشمس على شباك الغرفة.

ماجت الصور في رأسي، ترسم أمامي خيوطا مع الدخان الرمادي المنبعث من السجائر التي كنت أشعلها. أمتصها ثم ألقمها بحركة لا شعورية صحن الدخان المتخم بالاعقاب والرماد. تمنيت مرارا لو حدث اي شيء ينقذني من الذهاب الى منزل السراج. يرحمني من استجداء عطف واهتمام امرأة متغطرسة، لا يهمها في الدنيا كلها سوى ان تبقى زوجة «سيادة النائب» يشار اليها بالبنان وتلوى ازاءها الرقاب. تتحول الى لبوة شرسة اذا كان مسّ ولو في الظن أحدهم منصب زوجها.

حاولت ان اريح ذهني من تراكم الافكار. قلّبت باصابعي كتابا عن سيرة حياة الموسيقار الفرنسي كلود دوبوسي Claude Debussy أبعد عني انقباضا تكمش في داخلي. غفوت. زحفت الشمس. سالت أشعتها على الشباك. سيرة حياة دوبوسي كانت كتابا مفتوحا على صدري.

★★★

ما ارتاحت سماعة الهاتف من أذنها وفمها حتى انهمكت في توزيع الاوامر على الخادمة المصرية. وكأنها عرفت انني بدأت أتضايق من تصرفاتها. أخذت تنتحل الاعذار وبدأت تحدثني عن انهماكها في الاعداد لحفلة عشاء يحضرها جمع من السياسيين والسفراء. قاطعتها بحدة:

- أنا هنا لأمر مهم.

فتحت عينيها على اتساعهما. فسألتها:

- هل سبق لك ومررت يوم الثلاثاء بسوق العصرونية؟.

تولاها التعجب. أزاحت ابتسامة على شفتيها. قطبت. فأكملت:

- هناك أم تذهب مع ابنتها كل يوم ثلاثاء وتقف تحت المطر في صف طويل يصل الى «سجن القلعة»، لتزور ابنها عصام المحايري الذي طواه السجن الرهيب منذ سنوات خمس. وخلف اسوار السجن أم تركت خلفها بنات ثلاث بلا معيل . . .

ثقل كلامي على صدرها. أخذت نفسا طويلا. رمت على وجهي نظرة تجمع فيها غضب مقيم. فتحت فمها. أكملت:

«انا هنا لا لأطلب اطلاق سراحها. انما على الاقل نقل تلك السيدة الى الانفراد. فليس من قدر جوليات الميروهي سيدة فاضلة بريئة ان ترمى مع المومسات والشاذات. أما عصام المحايري فعلى الاقل التخفيف من شظف عيشه خلف جدران السجن الرهيب. . . واظنك وانت صرت اليوم اما لطفلين تعرفين مقدار حنان الام وحاجة أطفالها اليها و. . . .

لم تدعني أكمل. دارت عيناها في محجريهما دورة غريبة. وأفلت منها الكلام:
ـ ما زلت تحدثني عن زوجة انطون سعاده... وعن القوميين. جوليات المير تستحق السجن... ثم مالك ولعصام المحايري وأمه واخته. اترك أمرهم للزمان. فلا أحد فيه خير أو معروف. التفت الى نفسك فقط... لعلك تصبح كما أصبح زوجي رجلا مهما.

لم أعد اذكر ماذا اجبتها. كل ما زلت أذكره انني جرحت رجلي بمنضدة الدخان عندما ارتطمت بها وأنا أزيحها من أمامي منفعلا و... أخرج.

واعترف بعد كَرّة السنوات الطويلة. انني شعرت بحزن عميق لأنني لم أستطع ان أعود الى ام عصام المحايري وشقيقته سهام بما يبرد قلبيهما. ولكنني لم أصب بخيبة امل من زوجة السراج، فلقد كنت أعرف انها من أجل زوجها تجترح المعجزات، فيا كانت لتزعجه أو تقلقه أو ترجوه أمرا يعتبره مصيريا مرتبطا بوجوده على رأس السلطة. فان هو اعطى عصام المحايري وغيره من المعتقلين بعض التسهيلات، وخفف عنهم شظف الحياة خلف جدران السجون، قامت قيامة من هم حوله وحواليه من خصوم القوميين الاجتماعيين من شيوعيين واشتراكيين ومرتزقة، وهو ليس على استعداد لمجابهة هؤلاء فيخسر سلطته وسلطانه للتخفيف عن من رماهم في السجون من أجل ان يقبض على اعنة الحكم.

فرجل مثل عبدالحميد السراج يستبيح كل المحرمات في سبيل السلطة والسلطان.

★★★

لم تيأس. بسألتني عن موعد خروج عبدالحميد السراج من بيته صباحا.
اجبتها. لم تدعني استفسر أكثر. قالت:
ـ سأعترضه بنفسي. سأحمل له رسالة مكتوبة ان رفض الاستماع الي.
ولم أشأ ان أضيف بكلمة. تركت ملامح وجهي المتعجبة تعطيها الجواب.
وقفت قبالة منزله في شارع الجاحظ تنتظره. رأت حركة غريبة. سيارة المرسيدس السوداء تتقدم على مهل. تسد مدخل المبنى. ينزل أربعة يطوقون السيارة وخامس يفتح بابها الخلفي. ما ان اطل السراج وهم بدخول السيارة حتى ركضت مخترقة الحراس. صرخت:
ـ عبدالحميد بك... عبدالحميد بك.
سحب جسده من السيارة. لحق بعينيه مصدر الصوت. توقف. تفرّس في وجه والدة عصام المحايري. تغاصبت ابتسامة بليدة على شفتيه:
ـ نعم... نعم ماذا تريدين؟.
ردت بسرعة:

ـ أنا أم عصام المحايري. أنا أم اسيرك عصام المحايري.
تلفت يمنة ويسرة. انعقد الغضب بين حاجبيه. زمّ شفتيه وقال بصوت خفيض:
ـ أعرفه.. أعرفه. ماذا تريدين؟.
جمعت كلماتها بلهفة:
ـ ابني يا سيادة الوزير يعاني الأمرين، وبعد خمس سنوات أصبح بحاجة الى بعض تعديل في ظروف اعتقاله.
لم يدعها تكمل. ادار ظهره. مشى الى السيارة. لحقت به تحاول ان تشرح له وتزيد. دخل السيارة. اغلق الباب بعصبية. رفع زجاج الشباك وهو يقول:
ـ هذه قصة طويلة... لعلك تقدمين فيها رسالة.
كان ما يزال يرفع زجاج شباك السيارة عندما اجابته:
ـ لقد كتبت.. لقد كتبت هذه هي... هذه...
مد يده. خطف الرسالة من يدها بحركة عصبية. أومأ الى سائقه حسن بالانطلاق. غرست السيارة دواليبها في الاسمنت. دارت بسرعة. تطاير الحصى والغبار تحتها. ظلت والدة عصام المحايري ترقب بنظرها السيارة وهي تختفي في الشارع.
بعد ذلك اليوم... بقي عصام المحايري في السجن ثماني سنوات.

ـ ٣ ـ

في ذلك الوقت. كان الزمان يضحك للسراج. جمال عبدالناصر ولاّه على برّ الشام فتحكم بالبلاد والعباد. نفوذه وتسلطه اللذان سبقا الوحدة غير الطبيعية بين دمشق والقاهرة، يكمنان في كونه بقي ذئبا وحيدا في فلوات براري الشام وسط ذئاب أخرى تتناتش السلطة وتتصارع من أجلها. فلا ارتبط بتنظيم سياسي ولا والى اي حزب على حساب آخر. حابى البعثيين ولم يكن منهم. تقرب من الشيوعيين ولم ينخرط في صفوفهم ولا أيد في مرات كثيرة سياستهم، حتى اذا ما تمكن انقض عليهم. ارتمى على عبدالناصر ساعة وجد ان بيد صاحب مصر وسيدها مفاتيح السلطة، وعندما خطفها واستحوذ عليها تصرف بها على هواه، بينما كان الضباط الذين شاركوه السلطة والسلطان أقرب منه الى الفئات السياسية.
فلحزب «البعث العربي الاشتراكي» في تلك الاعوام السحيقة مؤيدون ومحازبون تعاطفوا معه في الجيش، من بينهم كان عبدالغني قنوت وبشير صادق وحسن حدة وجمال الصوفي، الا ان أبرز المؤيدين لقادة «البعث» التاريخيين [ميشال عفلق. صلاح الدين البيطار. أكرم الحوراني] كان مصطفى حمدون [المقيم حاليا في رومة]

وصلات القربى التي كانت تربطه بالحوراني جعلته يصبح وزيرا للاصلاح الزراعي على زمن «الوحدة» فاذا به يتحول من ضابط يفقه حمل السلاح الى مشرّع يسن قوانين فرضت على الشام ما سمي بـ «الاصلاح الزراعي» بدعة مصرية طبقها حمدون بحقد طبقي وانتقام اجتماعي عاكسا كل ما اختزنه قريبه اكرم الحوراني من تعاليم الصراع مع ملاكي الاراضي في منطقة حماه وريفها الكبير.

وكان السراج يراقب بحذر نمو جناح مستقل مقابل للبعثيين على رأسه أمين النفوري، الذي ارتبط بأواصر متينة مع أديب الشيشكلي. وقد أطلق النفوري على تجمعه اسم «جماعة التحريريين» نسبة الى «حزب التحرير العربي» الذي كان أسسه اديب الشيشكلي بعد خلافه مع جورج عبدالمسيح رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي كان الشيشكلي ينتمي اليه فكان اول قومي اجتماعي يصل الى الحكم منذ تأسيس الحزب عام ١٩٣٢.

كان مع امين النفوري في تجمع «التحريريين» جادو عزالدين. احمد عبدالكريم. حسين حدة [شقيق حسن حدة البعثي] فطالبوا وهم عزّل من أي موقف سياسي وانتماء حزبي واضح بـ «حصتهم» في السلطة. ففي ذلك الزمان كانت السلطة توزع بالحصص ويستقوي عليها من يستطيع ويغنم بها الأقدر على التهديد بالدبابة والمدفع.

عبدالحميد السراج على الرغم من نشأته الفقيرة في حماة كان يحاول دوما الاقتراب من الاقطاع السياسي الذي كان يتزعمه «الثري الاحمر» خالد العظم الذي ارتبط بحلف دفاعي ـ هجومي مع الزعيم الشيوعي خالد بكداش، الذي صار نائبا في البرلمان مفسحاً بوجوده للاتحاد السوفياتي (الراحل) وللحركة الشيوعية السورية ان تتواجد في البلاد وبشكل غير رسمي. فراح السراج يستفيد من الشيوعيين ويقترب منهم أكثر من اقترابه من البعثيين. مهدت له ذلك زوجته مَلَك، التي كانت انتمت الى الحزب الشيوعي ونشطت في خلاياه بدمشق، فلقد كان والدها الزعيم الكردي علي آغا زلفو [مدينة] الذي كان يعطف على خالد بكداش ويجزله خلال سنوات مطاردته الطويلة أثناء الاحتلال الفرنسي وسنوات الحقبة القوتلية، التي رفضت لتأثيرات غربية [فرنسة ـ بريطانية ـ اميركانية] ان تترك له مجال العمل والوجود في الجمهورية السورية.

في ظل الصراع على السلطة، قام تنظيم ثالث ضم احمد الحنيدي ابن دير الزور وطعمة عودة الله ابن حوران، كلاهما كانا من ضباط المدرعات وكلاهما نصبا وزيرا في الحكومة التنفيذية على زمن الوحدة. ومثلما اتكأ السراج على الشيوعيين وكسب ود «التحريريين» ودعمه الحنيدي وطعمة ععودةالله [الذي ادار دباباته على مبنى الاركان العامة لارغام اللواء توفيق نظام الدين بالغاء قرار نقل «السلطان الاحمر»

الى باريس] مال اليه اكرم الديري [الذي زامله على مقاعد كلية حمص العسكرية] ومعه جماعة ترأسها وتشكلت من ضباط دمشق. واذا ما برز عفيف البرزي عام ١٩٥٧ كرئيس للأركان العامة فقد كان شيوعياً وجد نفسه منساقا الى التطبيل والتزمير في عرس حكم «السلطان الاحمر». . .

لقد كان هؤلاء الضباط كالسحالى يبدلون ويغيرون ألوان ولاءاتهم. سيطروا على الحكم بالبنادق، والدبابات، لا رؤية سياسية تجمع بينهم ولا كلمة سواء. وقد تمكن عبدالحميد السراج بقدرته الفائقة على الصمت واللعب على التناقضات من السيطرة على الاجنحة ولويها تحت قبضته وعندما شعر ان تلك المنازعات قربت الجيش من الهاوية ووضعت البلاد على شفير الانحلال، وان جمال عبدالناصر بات الوحيد القادر على جمع شتات الضباط، مال الى صاحب مصر. فولاه واقطعه الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة، فحكم وتحكم.

لم يكتف ببث الجواسيس بين الناس، فقد قاده شكه وعدم ثقته حتى بالمقربين منه الى مراقبة كل اتصالات وزرائه العسكريين والمدنيين.

تيسير الديري [شقيق أكرم الديري] الذي كان يملك مطعم «مراكش» على متكأ شارع أبي رمانة، ردد أمامي مرارا شكوى شقيقه من مراقبة أجهزة عبدالحميد السراج لحركاته وتحركاته. وغالبا ما كان يرفع سماعة الهاتف في منزله فيسمع تكتكات آلات التنصت على خط هاتفه.

المحامي الراحل صالح عبود، عديل الضابط والوزير احمد الحنيدي [كان عبود أحد ثلاث نال الحزب السوري القومي الاجتماعي رخصة على اسمهم] روى لي مرات امتعاض عديله الوزير من تصرفات عبدالحميد السراج ومراقبته المتسترة له.

أحمد الحنيدي، كان وزيرا فاشلا للاصلاح الزراعي كما كان سلفه مصطفى حمدون، وكما كان بعدهما عبدالكريم الحنيدي.

عساكر بعد عساكر اخرجوها من الثكن الى مقاعد الحكم بلا ثقافة ولا حكمة ولا روية، لتصادر اراضي الناس من أجل توزيعها على «بعض» الناس، فاذا بها وقد صودرت بدافع الحقد الطبقي لم توزع الا على نفر انصرفوا الى نوع من الاقطاع الجديد. فبدل ان يعملوا في تحسين الارض استقدموا لها فلاحين غيرهم وتركوها الى المدن يتوظفون في الاستخبارات او حجابا في الدوائر الرسمية. فأوجد الاصلاح الزراعي افرازات اجتماعية وسياسية واقتصادية شاذة دخلت في صميم الحياة السورية و. . . أفسدتها.

- ٤ -

- مات شقيق عبدالحميد السراج.

تمشى الخبر من باب الى باب. لاكته ألسنة الصحف واحناك الناس. تغرغرت به حناجر المذيعين والمذيعات. تنادى القوم لتشييعه.

وشقيق «السلطان الاحمر»، خبّاز بسيط يعيش في حماة على الكفاف. ما عرف من الدنيا غير الفرن والعجن والخبز والبيت. ما اهتم بالساسة والسياسة ولا عفّر جبينه الا بعرق العافية، وما استغل منصب اخيه في دمشق لغاية او منصب، انما ظل في حماه يعيش عيشة مسكنة وتواضع كما تربى مع أخيه في حي فقير متواضع. عندما ضج بما سمع من أمر اخيه سلطان دمشق الاحمر، وما تقترفه يداه من رذائل، عزم على الهجرة فأوقف السراج معاملاته واجبره على البقاء في حماه. أصيب بالسرطان فنقل الى مشفى «المجتهد» في دمشق وبعد أشهر فارق الحياة.

مدت الشمس لسانها الطويل يلملم الفيء. آب اللهاب نثر حره. تتلظى الاجساد تذرف عرقا. على الدرب في اول حماه كان نوبار سائق توفيق الحبوباتي يتمهل بنا. امامه ارتال من السيارات الآتية من كل حدب وصوب الى المدينة التي تنام على ضفاف العاصي.

مد فيصل الدالاتي، مدير عام معرض دمشق الدولي، يده من سيارته. لوّح بها فهمست في اذن توفيق الحبوباتي:

ـ ماذا جاء به الى هنا... بالامس كان ينهال بالسباب امامي على السراج واعوانه وحكمه.

لكزني. لوى فمه ساخرا:

ـ مصالح بابا... مصالح.

عدّل جلسته. مسح بمنديل جبيبات العرق التي طرزت جبينه:

ـ أو تظن ان هذا الحشد الغفير، جاء على الرغم من الحر الى حماه لأنه على معرفة بالفقيد؟ انهم هنا يا سيدي مرضاة لعبدالحميد لعل برضاه يُرفع راتب وتعلو رتبة.

فيصل الدالاتي الذي ركب سيارة الدولة ذات اللوحة الخضراء مجتازاً اكثر من ٢٠٠ كيلومتر ليصل الى حماه فيكون في طليعة المشيعين كان يأمل ان يعيده «سيادة عبدالحميد بك» الى السلك الدبلوماسي الذي جاء منه الى ادارة معرض دمشق الدولي... ومثله فعل عشرات من الموظفين والسياسيين السوريين واللبنانيين...

مزارع الورد في الاقليم الشمالي قطفت زهورها لتعقد اكاليل وتنثر على المشيعين. معامل الثلج من حدود الاردن الى شمالي حلب، استنفرت بأوامر السراج لارسال كل لوح ثلج تنتجه الى حيث تجمع الآلاف لتشييع جثمان فقيد «الشقيق الكبير».

و... «الشقيق الكبير» لم يذرف دمعة. بقي هامدا. هادئا يستقبل المعزين واحد وراء آخر، متمتما، بما لم يفهم من كلام، وبين الحين والآخر يشير الى شوقي الدقاق راسما علامة استفهام بعينيه كأنه كان يستفسر عن وصول بعض الناس...

ثم يرمي على الساعة في معصمه نظرة عجلى.

كانت الشمس تتعرى وسط السماء. تشلح اشعتها المحرقة. المنتظرون تلسعهم الحرارة. يتصببون عرقا. كمال جنبلاط بحث عن شجرة وارفة الظل. وقف تحتها. لف منديله على رقبته. الى جانبه عدد من الاعوان والازلام، قدموا من لبنان كرمى لعيني السلطان. ومثلهم فعل كثيرون...

وجاء من أسر باذن السراج. أومأ الى بعض مساعديه لترتيب الموكب ثم... أذن للمؤذن فأذن.

كنت واحدا من الآلاف الذين مشوا خلف النعش. الى جانبي توفيق الحبوباتي وامامنا «السيد النائب». عن يمينه أشقاء زوجته احنف وزهير وخالد، وعن يساره جادو عزالدين، احمدالحنيدي، اكرم الديري، طعمة العودةالله، شوقي الدقاق واحمد عبدالكريم.

مشى الموكب خببا الى هضبة على يمينها المدافن وفي وسطها نصب تذكاري لشهداء حماه في معركة تحريرها من الفرنسيين عام ١٩٤٥. وبينما القوم يتمهلون امام المدافن، حلقت طائرة مروحية فوق رؤوسهم. ارخت جسمها الثقيل على التراب وسط الساحة. بقي صوتها يهدر ومراوحها تدور. تنثر الغبار على المشيعين. نزل منها المشير عبدالحكيم عامر ممثلا جمال عبدالناصر. ترك عبدالحميد السراج الموكب الى حيث جثت الطائرة. عانق المشير السلطان بحرارة. افسح له الطريق الى سرادق بسيط أقيم على عجل ليخطب السلطان في الناس مستغلا موت شقيقه لبث اشارات الى القاهرة... من انه باق على العهد على الرغم مما كان بدأ يدور يومها ويحاك ضد حكمه وحكم صاحب مصر على الشام من خلاله.

تمهل في الكلام. تسمر نظره هنيهات على نعش شقيقه المجلل بالعلم السوري، على الرغم من أن تجليل الاعلام لا يصح الا على نعوش الشهداء وذوي المقام والقيمة. اخذ نفسا طويلا. صرخ في الناس:

«حاولوا يا أخي ان يتسربوا الى من خلالك. حاول الاميركان يا اخي ان يشتروني عبرك، فما عرفوا انهم كانوا يحاولون شراء صخرة لا تحول ولا تزول... ما عرفوا ان هذه المدينة التي ولدنا فيها وترعرعنا وشربنا من مائها... عصت على الفاتحين والغزاة فما قبلت زغلا في وطنيتها واخلاصها لهذا الوطن. حاولوا يا أخي ان يرغموك على الهجرة. ان يغدقوا عليك المال، فأبيت ورفضت بشمم وكبر لانك ولدت فقيرا وآثرت ان تبقى فقيرا»(...).

الصخرة «التي لا تحول ولا تزول» تدحرجت من عل. لم ينفع تصويره لشقيقه

على انه «بطل قومي» ، وهو خباز ليس له حول ولا طول، في عزله وسجنه ثم . . . تهريبه.

- ٥ -

جاءني صوت توفيق الحبوباتي مرتبكاً على غير عادة منه. طلب مني ان اكون مستعدا ساعة يمر بي سائقه نوبار للصعود الى «فندق بلودان الكبير»، الذي كان يستثمره. فهو و«الجماعة» بحاجة الى وجودي معهم.

غامت الاشياء في عيني. ارتبكت. قاومت الظنون. فتشت عن تفسير لكلمة «الجماعة». رددت الكلمة مرات. ترسخت الافكار في رأسي. حاولت استدراجه الى مزيد من التفصيل. تكتم. ازدادت حيرتي. فليس من عادة صاحب «نادي الشرق» التكتم الا في المحن. وعاد صوته الرخيم يلح عليّ بالمجيء . . .

أزحت سماعة الهاتف عن اذني. وضعتها على مهل. كانت زوجتي في تلك الاثناء تستعد للذهاب الى عملها في مبنى التلفزيون الواقع في ساحة الامويين، غربي دمشق، فلما اخبرتها عن عزمي الصعود الى بلودان، الحت علي ان اعود مهما تأخر بي الوقت لأنها سمعت في اروقة التلفزيون عنعنات وهمهمات عن تحركات سياسية وعسكرية قد لا تحمد عواقبها.

وعادت كلمة «الجماعة» تقفز الى ذهني . توجست شرا. كتمت قلقي وانا أركب سيارة البويك الخمرية. حاولت مفاتحة نوبار فأجابني بالالغاز.

على الباب الداخلي لفندق بلودان الكبير كان توفيق الحبوباتي في حركة غير عادية. ما ان رآني حتى انتحى بي جانباً. اختلس نظرة على الباب ثم قال هامسا:

لا يجب ان تترك عديلك لوحده. الوضع خطير. الازمة مشتدة والاصدقاء من حوله صاروا قلة.

استولى عليّ شعور مزدوج، فما عدت اعرف أهو اغتباط ام انقباض. تسارعت الكلمات على لساني:

لكننا منذ ثلاثة أيام وتحديدا يوم التاسع من ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ ذهبنا سويا اليه ورجوناه اطلاق سراح رجاء الشربجي الذي كان الفريق جمال فيصل قائد ما سمي بالجيش الاول [الجيش السوري] قد اعتقله لأنه قال عنه كلاما مشينا. . . فما شعرنا ان في الامر ما ينذر بهبوب عاصفة.

قاطعني الحبوباتي بنبرة عالية:

ـ صحيح . . . صحيح . . . هذا كان منذ ثلاثة أيام . . .

تنبه الى ان صوته بدأ يملأ المكان فعاد الى الهمس:

ـ اليوم . . . كل شيء تبدل. ان في الاجواء ما ينذر بأوخم العواقب.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تفـرست في وجهـه. ازداد شغفي لمعرفة الخبر. أهي نهاية السراج؟ أحسست بالسؤال يكبر في فمي. أفلت مني. علا صوتي:

- اخبرني... اخبرني.

بلع ريقا. تجمد في فمه. نظر يمنه ويسرة وألقى كلامه خطفا:

- استقال السراج.

حلقت مع نشوتي. سقط عليّ كلامه باردا. حاولت ان ابعد عن شفتي ابتسامة عريضة مطوطة. غدرتني. فتهاديت بها حتى الثمالة:

- ماذا؟ ماذا تقول؟.

ارتعش داخله. عاد يهمس:

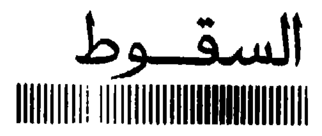
- لقد استقال السراج. كنت انتظرك لنذهب الى منزله ونسمع ما يقول عن استقالته.





... في احد المهرجانات الرياضية يسلم الجوائز للفائزين...

الفصل الثاني عشر





- ١ -

كانوا يتهامسون ساعة دخلنا. سجى الليل وبلودان سهرانة، تطل الاضواء من بيوتها الشتيتة. تشع، تموج. كأنها ثقوب تطرز رداء الليل الاسود. على شرفة الفيلا التي كان يمضي فيها السراج اشهر الصيف، دارت أحاديثهم.

برهان أدهم كان يغلي ويفور. عبدالوهاب الخطيب كان مطرقا بانتباه. شوقي الدقاق يتلهى بورقة امامه يمرر القلم عليها واجماً مقطبا. بهجت مسوتي يرسم بيديه وهو يتكلم شارات عصبية لطمت مرات كتف مروان السباعي الذي جلس الى جانبه. وحده عبدالحميد السراج بقي هادئا. يسرح نظره في المدى، كأنه يمر بعينيه على بيوت بلودان المرتمية أمامه بيتا... بيتا. يهز برأسه حيناً. يدور بنظره على وجوه أعوانه الوحيدين الذين بقوا الى جانبه و... يصمت.

سمع صوت توفيق الحبوباتي يرمي السلام. توقف برهان أدهم عن الكلام. ساد صمت بليد. رفع عبدالحميد السراج رأسه. استدار، كأنه قد فوجىء بالصوت فأراد ان يتأكد أنه صوت توفيق الحبوباتي، صاحبه، وقف يستقبلنا.

- خير.. خير يا أبا فراس. ما الخطب ماذا يجري؟ هل صحيح الذي سمعته... أننا هنا غسان وأنا للاستفسار.

انسحب الكلام على لسان الحبوباتي دفعة واحدة. تملاه «السلطان الاحمر»، فابصرت التحدي في عينيه. تنبّه الى وجودي، فحاول ان يخفي اضطرابا زحف الى وجهه وراء ابتسامة مرّت خجلى على شفتيه:

- ماذا سمعت يا أبا محمد ؟

همس السراج، ونشر مع كلامه علاقة استفهام حيرى:

- سمعت أنك استقلت!

تمددت على شفتي السلطان ابتسامة. سحبها بسرعة من شفتيه. تملّى في الحبوباتي:

- افكر بذلك... كله خير ان شاء الله. يريدني الريّس أن أصبح تابعا للمشير

عامر، بعدما احتواني بوزارة الداخلية المركزية في القاهرة. لبيت. لكنني لم أجد مكتبا أجلس وراءه، والريّس لا وقت عنده لاستقبالي. هكذا كانوا يقولون لي كلما طلبت مقابلته. اعوانه من حوله كانوا يتغاضون عني. مللت. تعبت. فعدت في مطلع الشهر.

تدخل برهان أدهم [أبو ابراهيم] التقط خيط الكلام:

- خيراً فعلت بعودتك الينا ولكن لسنا معك في التفكير بالاستقالة، لن تذهب أنت ويبقى المشير عبدالحكيم عامر يحكم هذا البلد.

علت نبرة أبي ابراهيم. رفع يده محتجا:

- لن نقبل... الليلة قبل الغد نتفق على ازاحة المشير والوجود المصري الذي أرهقنا وأتعبنا جداً!

قاطعه شوقي الدقاق كأن ثمة من لكزه. انتفض. قال:

- يا ليتهم يسمعون ما يقوله الناس عنهم وعن تصرفات ضباطهم».

حاول برهان أدهم ان يفتح فمه، فتعجل عبدالوهاب الخطيب الكلام:

- لا تخف... لا تخف تصلهم تقارير كافية تجعلهم يعرفون الشاردة والواردة.

بقي عبدالحميد السراج صامتا. تنحنح توفيق الحبوباتي، علامة الامتعاض والحرج. رشف بهجت مسوقي ما تبقى من فنجان القهوة دفعة واحدة. عبّ مروان السباعي دخان سيكارته. دخلت زوجته وخلفها فوزية الخادمة المصرية تحمل صينية القهوة تدور بها على الحضور. رمت مَلَك نظرة مستفسرة اهتز لها الحبوباتي فاعادته من نزهته في عيون الضباط الخمسة:

- ما رأيك يا أبا محمد بالذي يجري. عبدالحميد ينوي على الاستقالة والشباب لا يريدونه ان يُقدم عليها... واذا جاراهم فلا بد من الاطاحة بالمشير عامر واخراجه من البلاد.

انتظرت ان يفتي الحبوباتي بالامر. ان يقول كلمة يبدد حيرتها وقلقها وخوفها من ان يفقد «السلطان» جبروته. فهي كانت تثق بالحبوباتي كما كان زوجها يأمن جانبه ويحابيه. تململ توفيق الحبوباتي في جلسته. تمشت على ملامحه حيرة ممضة. تملص من الجواب الذي كانت تنتظره:

- إني على ثقة ان أبا فراس سيتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب، ونحن هنا لنقف الى جانبه كما وقفنا من قبل.

حبس الحبوباتي طرف فنجان القهوة بين شفتيه. ارتاحت اساريره. انتظرت مَلَك ان يضيف. سكت الحبوباتي، بقي نظرها يتزحلق على وجهه. نفضت رأسها وهي تمرر اصابعها بين خصلات شعرها. تنبه عبدالحميد السراج الى ان كل العيون قد تجمعت على وجهه:

مصريا . ما هكذا ظننا . صار كل ما أنجزناه وعملنا له وحققناه انتاجا مصريا لا فضل لنا به، في حين ان المصريين لا يفقهون من أصول الاحوال المدنية شيئا. لا يعرفون ماذا تعني تذكرة الهوية. منذ قيام الوحدة دللناهم على الطريق. علمناهم تنظيم حتى سجلات القيد. هم استفادوا منا. نحن أعطينا وما أخذنا شيئا. وفي النهاية حولوا «الوحدة» الى احتلال. هذا امر لا نقبل به. . .

انتشى عبدالحميد السراج بكلامه. كأنه فرغ من خطبة عصماء. طاف بنظره على وجوهنا. تركنا وعاد الى الشرفة وحيدا. . .

- ٢ -

صار بيته في شارع الجاحظ بدمشق، يعج بالناس، بعدما كان مقتصرا على قلة مختارة. لم يبق معه الا «القوميون العرب». البعثيون تخلوا عنه. انتحوا جانبا. وزراؤه العسكريون [اكرم الديري. طعمة عودة الله. جادو عزالدين. جمال الصوفي واحمد الحنيدي] اختلفوا معه واحتكموا الى المشير عبدالحكيم عامر اولا ثم الى جمال عبدالناصر.

كانت الاجتماعات تتواصل في بيته ليل نهار. يحضرها ممدوح رحمون، ثابت المهايني، هاني الهندي، محمد خليفة، جهاد ضاحي وغيرهم. . . من دعاة «القومية العربية»، الى جانب من بقي يواليه من الضباط والاعوان، القابضين على جهاز امنه. حاول هؤلاء ثني عبدالحميد السراج عن الاستقالة واقناعه بمقابلة جمال عبدالناصر برفقة المشير عبدالحكيم عامر وفض خلفه مع المشير.

رضخ السراج. فالخيارات أمامه كانت قليلة، وقد شعر ان جمال عبدالناصر بدأ يضيق ذرعا به والمشير يوغر صدر الريّس ضده.

ليلتها. كنا زوجتي وأنا، في زيارة السراج، لما أخبرنا عن قبوله السفر الى القاهرة برفقة المشير عامر والوزراء العسكريين الخمسة للاجتماع بالرئيس جمال عبدالناصر.

بدأ الوجوم على وجه مَلَكْ . تكمش الخوف بصوتها. خرجت الكلمات سريعة من فمها:

- ماذا لو قتلوك؟

اعادته كلماتها الى صوابه. اهتز حنقا:

- لن يفعلوا. . . لن يفعلوا.

هيمن الامتعاض على قسمات وجهه. ضيّع نظرة حمق في أعمدة جديدة تَمَلَّكْ صفحاتها بين أصابعه. التفتت اليه:

- لماذا لا . . . انهم اولا واخيرا ضباط استخبارات.

تمهلت. وقفت. مشت الى حيث كنت أجلس. ربتت على كتفي:

- خذ غسان معك.

ارتاحت. ظنت انها وجدت ضالتها. امتقع وجهي. رددت كلمة أحسست انها ستكون بذيئة. تولاني الامتعاض. امتزجت الافكار في رأسي، قلت في سري: «لم أكن في الاول كي أكون في النهاية». . . وان كانت رغبتي جامحة لمشاهدة هذا الجلاد الاحمر يتلاشى ويتضاءل أمامي.

رميت نظرة عجلى على وجه زوجتي. تمرد الكلام على سطوتي على لساني:

ـ أنا. . . معاذ الله لا أصلح لهذه المهمة. لا دخل لي بها ولا شأن. فليذهب شقيقك أحنف فهو عضو في «الاتحاد القومي». . . او. . . فليذهب معه شقيقك زهير.

حول نظره عن وجهي لما رآني امتلاه. قلب شفتيه. لم يعط جوابا.

★★★

كان الليل الخريفي قد أخفى نجومه خلف الغمامات السود. جثت على مدرج مطار المازة طائرة DC6 فتحت الباب عند خاصرتها. دخلها السراج والمشير عامر والضباط الخمسة.

دارت محركات الطائرة. ارتفع جسمها الثقيل عن الارض رويدا. . . رويدا. طواها الليل خلفه.

بقيت مَلَك وحدها تنظر الى المدى الاسود، كأنها كانت تعرف ان ليلتها كانت نهاية الحقبة السراجية في بلاد الشام.

ـ ٣ ـ

كان «الريّس» يثق به. سلمه مسؤولية وزارة الداخلية منذ اليوم الاول لقيام «الوحدة». فاستغل عبدالحميد السراج ثقة صاحب مصر ليتمكن من الاستئثار بالحكم.

ولقد وجد السراج نفسه، في التشكيلتين الحكوميتين الاولى والثانية، محاصرا بعناصر تنتمي الى قواعد واتجاهات حزبية لم ينتم يوما اليها. فأخذ في الخفاء يعمل على التصدي لها، وتأليب عبدالناصر ضدها، فاذا ماتصدى له الريّس استفاد «السلطان الاحمر» وعزز مواقعه وبقي خارج صراعها مع عبدالناصر مع انه هو محركه والساعي اليه.

وقد برع عبدالحميد السراج في أداء هذ االدور حتى في تشكيله لجهازي المباحث والاستخبارات. اذ ضم اليهما عناصر من الانتماءات السياسية كافة، وعاد بعد ذلك الى احكام سيطرته على تلك العناصر وتطويعها لارادته ورغباته بطرق ملتوية.

فالشيوعي عبدالوهاب الخطيب، الذي كان تعيينه في الاصل لارضاء الشيوعيين، تحوّل الى اداة طيعة بين أصابع السراج بعدما أخذ عليه مستمسكاً وهو تورطه [كما مر معنا] في تصفية فرج الله الحلو.

عبده حكيم. حوله السراج الى جلاد امين يأمره فيطيع ينهره فيرعوي ويسكت. فلقد سبق لـ عبده حكيم ان اتهم بالاعتداء على الاعراض في مدينة حمص فحفظ السراج ملف القضية واستعمله سلاحا كان يهدده به باستمرار ان هو خالف وعصى . . .

ولم يكن وضع فوزي شعيبي افضل من وضع عبده حكيم ، فلقد كان شعيبي متهما بفض بكارة احدى الفتيات اليافعات، أحيل على التحقيق. ضغط السراج على المحافظ عبد المجيد تجار. طوي ملف التحقيق. وقع فوزي في قبضة السلطان. استزلم له.

بعدما استحكم السراج. بجهاز الامن، مد سلطته وسلطانه على ما سمي بـ «الاتحادالقومي» الذي شكل في حزيران (يونيو) ١٩٦٠ . فعين سكرتيرا عاما للاتحاد على مستوى الجمهورية العربية المتحدة ورئيسا له في الاقليم الشمالي. فشكل جهازه من عناصر تواليه وتنفذ مآربه وسياسته. واستعان بجهاز الاستخبارات لترسيخ تلك السيطرة. يعتقل من يعترض ويعصي ويتمرد ويهدد كل من لا يوالي ويقر ويعترف بسلطة السلطان.

ومن أساليب السراج في تسلطه على «الاتحادالقومي»، انه كان يعمد الى تشكيل وحدات او قيادات «سرية» غير الوحدات المنتخبة او المعينة رسميا. فكان يقوم بتوجيه تلك الوحدات السرية لتنفيذ ما يخالف الذي كان يصدر عن الوحدات المنتخبة او المعنية وما يرضي ويشبع شهمه وطموحاته في ان يكون الحاكم المطلق في الشام.

فما توانى، فيما بعد، عن استعمال تلك التنظيمات السرية في خلافه مع المشير عبدالحكيم عامر. ثم ضد جمال عبدالناصر نفسه، عندما وجد ان الريّس قد قلص سلطاته ونصب عليه المشير عامر رقيبا وحسيبا. فحرض على تنظيم التظاهرات في شوارع دمشق تهتف بحياته وتغمز مجرحة بعبدالناصر والمشير عامر.

وتم للسراج الانفراد بالسلطة في الشام. فامسك بقبضته الحديدية بالاجهزة الامنية والادارية والسياسية والاقتصادية. . . فهو وزير الداخلية القابض على جهازي الاستخبارات والشرطة وبيده مفاتيح المحافظات وبه ترتبط اجهزة الاعلام المسموعة والمقروءة والمرئية [صحافة. اذاعة . تلفزيون] فضة عن «الاتحاد القومي» الذي كان بمثابة «الجهاز السياسي» الذي تتمحور حوله سياسة الدولة. وفي ١٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٦٠ أصبح رئيسا للمؤسسة الاقتصادية التي أممت وقضت على البقية الباقية من البنى الاقتصادية في سورية.

وقد تبين لي ، بعد تلك السنوات الطويلة، ان السراج ما تمكن من ذلك لولا انه لم يحكم الطوق حول عنق عبدالناصر. فهو كان على دراية بحكم رئاسته للمكتب

الثاني [الاستخبارات] بكثير مما كان يحاك ضد «الوحدة» وممسكا ، بلا ريب ، ببعض خيوطها. فناور وراوغ بهذه المعلومات ولم يعط صاحب مصر منها الا قدرا ضئيلا واخفى عنه الكثير. فاذا استجاب الريّس لرغباته كشف هذه المؤامرات وانقض على أصحابها. كما فعل يوم الكشف عن «المؤامرة العراقية»، وعن «المؤامرة السعودية»! واذا ما تمنع عبدالناصر واعرض أو ماطل في الاستجابة لنزوات السلطان، ترك الحبل على غاربه، فيجد عبدالناصر نفسه في وضع العاجز عن السيطرة، فيعود الريّس يلبي.

وأميل هنا الى رأي صديق [متعه الله بالعافية ورد غربته ، ابقي اسمه في الذاكرة] بأن عبدالحميد السراج، عندما استقال كان يملك معلومات عن تحركات عبدالكريم النحلاوي وصحبه الذين خططوا للانفصال ونفذوه و. . . نجحوا. فأخفاها عن جمال عبدالناصر، بعدما عرف ان نجمه في سماء صاحب مصر قد أفل.

- ٤ -

المعمورة [الاسكندرية] آب (اغسطس) ١٩٦١.

بيته كان يغمس رجليه بالبحر. أحب زواياه على قلبه، الشرفة التي تفتح ذراعيها للبحر.. على الطاولة أمامه ملفات كانت تلتهم الاوراق ولا تشبع فبدت متخمة. كان يفتحها بين الحين والآخر ينتزع ورقة. يقربها من وجهه. يقلبها بين أصابعه. يعود يدفنها في الملف. يتناول أخرى. يضعها جانبا. ثم ينقل نظره في الجالسين من حوله. عبدالحكيم عامر عن يساره وعبدالحميد السراج عن يمينه ومن حولهم اكرم الديري ، جمال الصوفي. جادو عزالدين، طعمة عودة الله واحمد الحنيدي. فقد استدعاهم الريّس للاجتماع به بعدما استفحل الخلاف بين السراج وضباطه الوزراء وبعدما أخذ السراج يعرقل مساعي المشير في ضبط الاوضاع في دمشق.

فلقد بدأ التذمر من مسلك أجهزة السراج يصل مكتب المشير. وبدأ التململ الشعبي يحدث شرخا بين السراج وضباطه الخمسة، الذين استجاروا بالمشير ضد السلطان ورفعوا مطالب عدة انحصرت بعدم حصر السلطات في يد «السلطان الاحمر» وبفصل الجهاز الاداري عن السياسي والاقتصادي . وفي اطار الامن الفصل بين الاستخبارات وأجهزة وزارة الداخلية وتوحيد استخبارات الاقليمين الشمالي والجنوبي تحت مظلة رئيس الجمهورية. وتبعا لذلك كف يد السراج عن أجهزة الاعلام وجعلها تابعة لوزير اعلام اقليمي او تنظيم الاعلام على مستوى الجمهورية العربية المتحدة يتولاه وزير واحد. . .

امتص سيكارة. عبّ دخانها. نفثه في فضاء الغرفة. تتبع بعينيه تموّج الدخان

الرمادي . شعر بالضيق . أطعم صحن الدخان السيكارة . قطع على اكرم الديري استرساله :

ـ منذ ثلاثة ايام ونحن نجتمع . سمعت ما يكفي ، وبات عليكم التضامن والتكاتف لايجاد حلول مرضية لمشكلات دمشق .

سكت عبدالناصر . فهم عبدالحكيم عامر . أخذ الكلام عن الريّس :

ـ عليكم ان تتدارسوا ما طرحه كل واحد منكم خلال الايام الثلاثة الاخيرة ثم تتفقوا فيما بينكم على حل تعرضونه على الريّس .

ساد صمت . تلاقت العيون . طوى احمد الحنيدي ورقة صغيرة دفنها في جيبة سترته الداخلية . قطع الصمت همس السراج :

ـ أنا أفرغت جعبتي وليس عندي ما أضيفه . لقد بت أشعر انني متهم .

تغيرت ملامح جمال عبدالناصر . مشى الحنق اليها . قطب . ضرب كفه على رجله :

ـ الجلسة انتهت . . . الجلسة انتهت .

انتصب واقفا . مرّ بعينيه على الوجوه المندهشة من حركته العصبية :

ـ ارجعوا الى قصر انطونيادس . اتفقوا على حل . عودوا الى هنا الساعة السابعة مساء ، فاذا لم تتفقوا على رأي ، فسأفرض عليكم الحل الذي أراه .

دخلوا عليه . وجدوه متجهم الوجه . رمى نظرة متثاقلة على وجوههم . تمهل . تأنّق في مخارج الكلام :

ـ لقد وصلني نبأ مقتل هزّاع المجالي تحت انقاض مبنى مجلس الوزراء الاردني . .

سكت . . مرّ على العيون . انتظر ردود الفعل . ارتسمت علامات الاستفهام . دارت حيرى على الوجوه . أكمل الريّس :

ـ هناك احتمال ان يقوم الملك حسين باستغلال حادث الاغتيال فيلصق التهم بالجمهورية العربية المتحدة . وقد يشير بالاصابع الى الاستخبارات السورية .

تجمعت العيون على السراج . بقي صامتا . ارتاح عبدالناصر على أريكة وثيرة . سرّح نظره في فضاء الغرفة . أخذ نفسا طويلا . عاد الى الحديث :

ـ لقد تشاورت مع عامر . وقر رأينا على تعيين عبدالحميد للمجلس التنفيذي في دمشق . وابقاء الوزراء في مناصبهم ما عدا جادو عزالدين الذي ينتقل من وزارة شؤون رئاسة الاقليم الشمالي الى الاشغال العامة .

تعجل في كلامه . فهم الجميع أن الجلسة قد انتهت . خرج «السلطان الاحمر» من بيت الريّس منتشيا بالنصر ، فلقد اعاد الريّس له الاعتبار ودعم موقفه تجاه الضباط الخمسة وولاه على بر الشام من جديد . فلقد كان مقتل هزاع المجالي العامل الاساسي في تغيير موقف عبدالناصر منه . فلقد كان يعرف ان السراج دبر

الحادث فيما أراد عزله وتقليص صلاحياته مخافة ان تثار الشكوك حوله، فيسقط معه لقمة سائغة في فم الحسين. وكان الغاء وزارة شؤون رئاسة الاقليم الشمالي، يعني ابعاد المشير عن دمشق ونزع صلاحيات رئيس الجمهورية عنه مرضاة للسراج.

وعاد «السلطان الأحمر» الى دمشق ليحكم ويتجبر من جديد.

ـ ٥ ـ

لما وصل عبدالحكيم عامر الى الشام خريف عام ١٩٥٩ كان الخلاف بين البعثيين وصاحب مصر يهدد الحكم بالاقليم الشمالي. اما يضرب البعث واما تطلق يده في حكم الشام. ولقد لعب السراج دورا بارزا في تشويه صورة البعثيين في ذهن عبدالناصر وأوغر صدره ضد قياداتهم التاريخية.

منذ البداية كان السراج يبيت للمشير المكائد في الخفاء، في حين اظهر له في العلن كل الود والتعاون. فهو كان يعرف ان «البعث» لن يطيل اقامته في الحكم ففضل ان يكون خارج الصراع الدائر بين اكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار وميشال عفلق وبين جمال عبدالناصر.

. . . واستقال وزراء «البعث» في دمشق والقاهرة. فوجد السراج ان المشير بدا كأنه الحاكم المطلق والمراقب المتشدد، الامر الذي نغص عليه امانيه وقضى على شهوته في التفرد بالسلطة، فأعد العدة للتخلص من المشير. تقرب من عبدالناصر. حاول ان يظهر بمظهر الامين على تطبيق توجيهاته وبين الحين والآخر كان يبدي له امتعاضاً من تصرفات المشير موغراً صدر الريّس ضده، شارحا له ان اخطاء عامر سببها انه لا يتفهم دواخل الامور في سورية. وطفق يحرك تنظيماته السرية في «الاتحاد القومي» لذر الرماد في عيون المشير ونشر النعرات الاقليمية محرضا على التظاهرات في شوارع الشام للتنديد حتى بسياسة عبدالناصر تجاه الاقليم الشمالي.

والخلاف الذي كان مستترا ظهر الى العلن وبدأ يزعج عبدالناصر . . . لكنه كان يسكت على مضض وفي روعه ان السكوت ينقذ «الوحدة» على أمل ترتيب البيت السوري . . .

في منتصف كانون الثاني (يناير) ١٩٦١ بعد مرور اربعة اشهر على تسلم السراج المسؤولية «الكاملة» في الشام. استدعاه عبدالناصر. اختلى به ساعات طويلة في بيته في منشية البكري. تسرب ان الريّس انحى عليه باللائمة لتكاثر التذمر والفوضى في ادارة شؤون الاقليم الشمالي. وقد ظن الريّس ان السراج متى عاد الى دمشق فانه سيغير من أسلوب حكمه. الا ان السلطان اخذ يعزز سيطرته على كل الاجهزة الادارية في دمشق والمحافظات. عطل «الاتحاد القومي» واستخدم سلطته على المؤسسة الاقتصادية ليمعن في ضرب الاقتصاد.

انقل هنا عمن سمع ممن حضر اجتماع المجلسين التنفيذين للاقليمين الشمالي والجنوبي، الذي انعقد في القاهرة في اوائل عام ١٩٦١ برئاسة جمال عبدالناصر، وخصص لعرض انجازات الوزراء ، ان عبدالناصر استدعى السراج ووزراءه العسكرين بحضور المشير عامر، وقد بدا الامتعاض على وجهه مستاء من صمت السراج الطويل عندما جرى عرض فكرة تأميم المصارف في الشام اسوة بالقاهرة. فبينما اعترض حسني الصواف [وكان وزيرا للاقتصاد] واستقال. ووقف نور الدين كحالة موقف المعارض يأخذ عبدالوهاب حومد بيده. . . بقي السراج عندما سئل رأيه يلف ويحور ويدور ويقول كلاما غير واضح يتأرجح بين الموافقة والرفض.

نظر اليه عبدالناصر. نهره بقسوة:

ـ عاوز أعملّك إيه علشـان ترضى. عاوز أعـرف ايه اللي يرضيك. ما تقول وتخلصنا. . . انا قاعد مفتح وداني وعيني لكل همسة في مجلس الوزراء وانت ولا انت هنا. . . هي الامور ما تهمكش ولا ايه؟.

امتقع وجه السراج. لم ينبس ببنت شفة. خرج عبدالناصر غاضبا، لحق به المشير عامر. وبقي السراج في القاعة وحيدا.

ـ ٦ ـ

وشكلت الحكومة الواحدة، بعد ثلاث سنوات على زواج الشام من القاهرة. صدر القـرار الجمهـوري بتشكيلهـا في ١٦ آب (اغسطس) ١٩٦١. أصبح السراج وزيرا للداخلية. أبعده عن الشام. جعل مقامه القاهرة.

شعر عبدالحميد السراج وهو في القاهرة بضيق. فهو كان محاصرا قياساً لما كان يتمتع به في الشام. اقتصر عمله على تلقي التقارير فما عاد على تواصل مع أجهزة أمنه في الشام وابتعد عن الخلص من أعوانه وجلاديه!

ضاق ذرعاً. اشتاق الى السلطة. عاد الى دمشق. وبدأ يخطط لاحداث القلاقل ضد حكم المشير في الشام. فأثار بين مؤيديه ان الحكومة الجديدة تهدف الى ابعاده لاحكام السيطرة المصرية على الشام. وانه وحده صمام الامان لمنع تلك الهيمنة.

وحرض ضباط الاستخبارات على عصيان الاوامر التي أصدرها جمال عبدالناصر بنقل بعضهم الى القاهرة، بعدما كان تم دمج جهازي الاستخبارات في الاقليمين. فقـد فسر السراج لهؤلاء قرار عبـدالنـاصر بأنه توطئة لتسريحهم ثم احالتهم على المحاكم العسكرية، فما كان من عبدالناصر الا أن أرسل المشير عبدالحكيم عامر ليقف على حقيقة التمرد.

كانت تنتظر عامر في الشام موجة استنكار عارمة نظمها اعوان السراج. وبدأ التنـظيم السري في «الاتحـادالقـومي» يحرك الشـارع ضد عبدالناصر، ثم ينظم

الاضرابات المفتوحة في غير مرفق من مرافق دمشق الاقتصادية الحيوية.

حاول المشير ان يثني «السلطان الاحمر» عن غيّه. لكن السراج اظهر تمنعا في بادىء الامر، ثم لجأ الى الحيلة وسياسة المراوغة والمساومة التي برع بها. فاخذ يتنصل امام المشير مما حدث في دمشق والمحافظات من بلبلة وفوضى وتخريب واضرابات. ثم أخذ يدافع عن تمرد ضباط الاستخبارات الذين ظنوا ان نقلهم يعني تسريحهم ومحاكمتهم. ثم عرض على المشير عدة مطالب، ولما وجد ان عامر ليس بوارد الانصياع والمساومة عاد الى تحريك الاتباع والاعوان ونشر الفوضى والبلبلة في الشارع الدمشقي.

وما كان من المشير الا ان اعطى الاوامر لوحدات من الجيش السوري تواليه، فاغلقت مقر «الاتحادالقومي» ثم أمر باعتقال الضباط المتمردين. فانصاع بعضهم بينما فر بعضهم الآخر الى لبنان مثل عبدالوهاب الخطيب ومروان السباعي...

كان السراج يتكل في تصلبه ومقارعته وتصديه لعبدالعناصر، على الجيش. ظن ان شيئا قد يحدث في وحداته. انتظر ان تتحرك الدبابات. ان تصوب البواريد الى صدر المشير. وبينما اعتبر ان سكوته على تحركات النحلاوي وصحبه، التي كان على دراية بها، قد تفيده فيتحرك الجيش لانقاذه... ظلت الثكن هادئة... وساعة الصفر أجلت. فانصاع السراج. وغادر دمشق بصحبة المشير الى القاهرة في ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١.

- ٧ -

كان المشير ثالثهما. بقي عبدالناصر مقطبا طوال الجلسة. مقتضبا في كلامه. اخذ في بادىء الامر يستوضح من السراج عن أسباب تحريكه للشارع الدمشقي وتأليبه ضده. تملص السراج. انتحل الاعذار. انكر وادعى. قال: ان لا دخل له بالتذمر الذي عم دمشق والمحافظات، انما ما جرى كان «عفوياً» نتيجة نقله الى القاهرة. اما مناقلات الضباط فقد اعتبر أنها موجهة ضده شخصيا، لأنه كان المسؤول عن هؤلاء الضباط. وطلب من الريّس الغاء قرار النقل. رفض عبدالناصر. تمسك بقراره. خاف السراج ان بدأت محاكمة ضباطه أن تنكشف مؤامراته وتصرفاته وجوره وعسفه.

قدم استقالته. قبلها عبدالناصر فورا. أعلنت في ٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١. استأذن الريّس بمغادرة القاهرة فأذن له.

بعد ستة ايام... وقع الانفصال.





عبدالحميد السراج بين اثنين من زواره في دارته بالقاهرة

الفصل الثالث عشر




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ١ -

٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٦١. بعيد منتصف الليل.

كان الضياء بدأ يخون الليل في سماء دمشق التي غفت على أمل نهار آخر. يداعب وجنتيها نسيم بارد فيه رائحة الخريف، كان وحده يثرثر في الشوارع الغافية يلطم الحيطان العمياء من كل بصر الا الشبابيك. يندس بين أوراق الشجر، فتغنج له في انحناءات رفيقة تسمع حفحفتها. ثمة أصوات اقتحمت فجأة الصمت البليد المتمدد في الشوارع والأزقة. في البعيد رجع هدير محركات، أعقبه اطلاق نار متفرق، بدأ يتسع. الرصاص ينهمر من حيثما كان على حيثما كان.

انتفضت في فراشي. فتشت باصابعي المرتبكة عن الساعة بين الاشياء المكومة على الطاولة قرب السرير. لم أعرف كيف أدرت المصباح الكهربائي وأنا أردد اسم زوجتي همساً أحاول ايقاظها. تولتني رعدة ذعر. أحسست بانقباض تكمش في ملامح وجهي. وبحركة لا شعورية وجدت نفسي امام النافذة وخلفي زوجتي. مدت يدها الى الستارة تحسرها عن زجاج النافذة. رحت بعيني ارسم مساحة الشارع المقابل شبرا... شبرا. ثم أعلق نظري على المباني انزل عليها طابقا... طابقا علني استكشف ما يدور لحظات.أصبحت انوار المصابيح المنبعثة من الشبابيك عناوين خوف في المدى الاسود. والعيون خلف الشبابيك تغرس في الزجاج بنظرات مستفسرة. مضطربة. خائفة. أزيز الرصاص يخدش. الصمت يتطاير. شرره.

أزحت نظري عن الشارع. رميته على وجه زوجتي فصدمني الشحوب الذي مشى على قسماتها، فهي مثلي علقت عينيها على نهاية الشارع المقابل لشارعنا حيث منزل شقيقتها مَلَكْ وصهرها «السلطان الاحمر». غاص قلبها. عرفت ان ايام العز التي تظللت بها بمظلة أُختها قد آلت الى زوال، وهو أمر أراه في هذه الايام صعبا عليها، لأنها وان لم تصبح ما أرادته في تلفزيون دمشق، فبقيت فيه مذيعة لبرامج تافهة سخيفة لكتّاب تافهين وسخفاء، فيما كان طموحها ان تتحول الى منصب سبقتها اليه نادية الغزي، قرينة المحامي نزار بقدونس، التي استقطبت

اهتمام المثقفين السوريين والعرب لرفعة مستوى المواضيع التي تناولتها في برامجها . . .

هزني رنـين الهـاتف. خطفني من تلك الافكـار المختلطة في رأسي. رفعت سماعته. تلعثمت . طلع صوتي رخيما. كان صوت مَلَك مزيجا من الارتباك والهدوء:

ـ هل سمعتم . . . هل سمعتم؟ ماذا يجري . . . ماذا يجري؟

فأجاني صوتها. اختلطت نبراتي مع دخان السيكارة التي كنت أمتص آخرها:

ـ سمعنا . . . سمعنا هل انتم بخير؟

ارتعش صوتها. تسترت بنبرات هادئة:

ـ بخير. . . بخير. . . لكنني . . .

تمهلت. شعرت بالغيظ يتكمش بمخارج كلامها:

ـ لقد أطللت من نافذة الغرفة على الحرس فما وجدت من الاربعين رجلا الا ثلاثة أحدهم رئيسهم الرقيب فاروق!

تلاطمت الافكـار في رأسي. تكاثرت الاسئلة: تُرى ماذا يجري؟ أين حرس «السلطان» الذين كانوا يمشون خلف ظله، كلهم عيون عليه وعلى الناظرين اليه. مسنونة تحرس والي الشام من شر مستطير او من غدر حتى ذوي القربى من ضباط وأعوان ومناصرين؟ لماذا تخلوا عنه؟

ارجعني صوتها الى صوابي:

ـ هل أحنف [شقيقها] عندكم؟

ـ لا . . . لم نره الليلة؟

تغيّر صوتها، انتابه قلق لفّ نبراته:

ـ حاول ان تصل الى بيت والدي الآغا وجئني بدريد وصفوان وجوان [أشقاؤها الصغار] أريدهم الى جانبي . . . حاول المستحيل حاول.

انتزعت زوجتي سماعة الهاتف. غرقت في حديث هامس مع شقيقتها. ارتجف شيء في داخلي كان مزيجـا من الانقباض والراحة. تمتمت وأنا أسوّي من ربطة عنقي: لقد دنت الساعة التي كنت انتظرها. . . لقد دنت ساعة «السلطان الأحمر».

ـ ٢ ـ

لم يكن بيت الآغا علي زلفو بعيدا عن بيتي وبيت «السلطان الاحمر». كان من أملاك هاني الجلاد، أحد رجال الصناعة السوريين الذين قارعوا الاستعمار الفرنسي منخرطاً في صفوف «الكتلة الوطنية». فاذا بجزائه،اني وقد نجحت في اصلاح ذات البين بين عبدالحميد السراج والآغا عمـه قام «السلطان الاحمـر» ارضاء للآغا

باجبار هاني الجلاد على تخفيض بدل ايجار البيت الكبير الضخم،من ستين الف ليرة سورية الى ستة آلاف فقط، وعلى اعطاء الآغا عقد ايجار مدى الحياة غير قابل للالغاء! الامر الذي عانى منه هاني الجلاد ونجله فايز من بعده على مدى السنوات الثلاثين الماضية ، الأمر الذي جعله موضوع دعوى قضائية بين ورثة الاب والابن وبين آل زلفو.

لما سلّمت نفسي للشارع، كنت أمد الخطى مسرعا وأزيز الرصاص المتقطع يلف البيوت. قلة تجاسرت ونزلت الى الشارع. فالدمشقيون الذين اعتادوا على اطلاق الرصاص المفاجىء في العاصمة، يعرفون انه حين يتغير الحكم بين العسكر عليهم باخفاء رؤوسهم كي تبقى على أكتافهم . . .

كان الآغا يستر جسده الفارع بعباءة بنية اللون مقصبة عند الصدر بخيطان ذهبية. يحتسي فنجان قهوة مُرة ويدير باصابعه الغليظة ابرة جهاز الراديو يحاول ان يلتقط من حنجرة المذيعين ما يمكن ان يرى فيه تفسيرا لما يجري في الخارج.

ساعة لمحني استدار. وضع فنجان القهوة على منضدة امامه. سألني بعينيه قبل فمه:

ـ ماذا عرفت؟ لماذا أنت هنا؟ ماذا يجري؟

لملمت اسئلته بهدوء. هونت عليه. عرفت ماذا يشغله. قلت له ان مَلَكْ مثله ومثلي لا تعرف ماذا يجري وانها طلبت مني الحضور لاصطحب صفوان وجوان ودريد اليها.

ارتاحت قسمات وجهه التي زحف العمر المديد اليها وترك على الجلد خطوطا تجمعت تحت العينين وعلى الجبين والخدين.

عاد الى جهاز الراديو يدير ابرته من جديد، بينما كانت الخادمة تسرع في الباس الاولاد الثلاثة.

«مسكين الآغا». . . لا أعرف لماذا تمتمت بهذه الكلمات وأنا أغلق الباب خلفي. لم يغادر مخيلتي طوال الطريق. تنبهت الى ان اذاعة دمشق لم تذع أي خبر عن أسباب اطلاق النار، وقد مضى عليه اكثر من ساعتين!

انسحب صوت نقيب المحامين والسفير السابق فؤاد القضماني هادئا من فمه وهو يناديني لما مررت تحت شرفة منزله. وقفت. كان ابنه المهندس وليد القضماني اكثر ارتباكا وقلقا. طمرني بالاسئلة. . . كان يظن أنني أعرف ما لا يعرفه غيري. والسؤال خلف السؤال: هل دوي الرصاص له صلة بـ «عديلي» السراج من قريب أو بعيد؟ هل «هو» أم ليس «هو»؟ وهذا يعني في ذلك الزمان: هل كان عبدالحميد السراج يحاول ملكاً أو يموت فيعذر؟!

لعلع الرصاص. انقذني من أسئلة وليد القضماني ووالده السفير. أومأت لهما.

هرولت مسرعا الى بيت عبدالحميد السراج ، مارا بقصر خالد العظم الابيض وبمنزل الشهيد عدنان المالكي بمحاذاته، ولم ترتح اعصابي الا لما رأيت عن بعد فاروق، رئيس حرس السلطان ، يتأبط رشاشا خفيفا، يزرع بخطوات ثابتة الدرب امام باب المبنى . . . رميت نظرة عجلى على الساعة في معصمي . كانت الرابعة صباحا. افترت شفتا فاروق عن ابتسامة متطفلة. بادلته مثلها و. . . دخلت المبنى.

★★★

ـ صباح الخير. . .

ـ أي خير. . . أي خير هذا . . ماذا يجري؟

لمت مَلَكْ شعرها بأناملها بحركة عصبية. دار نظري على الصالون أفتش عنه. فاذا به جالس بهدوء على مقعد في صدره يمتص سيكارة يرافق بعينيه دخانها الرمادي الـذي يفـرج عنـه من بين شفتيه. هز برأسه ساعة رآني. غدرتني ابتسامة لئيمة انتصبت على شفتي. ثم عادت مَلَكْ تشد انتباهي. اندفعت باسئلتها الى آخر مدى:

ـ هل سمعت شيئا . . . من هم مطلقو النار. أضباط عبدالحميد؟ هل ابو ابراهيم [برهان ادهم] معهم؟ أم أنهم فئة ثالثة تحاول الثأر منا؟

كادت عروق رقبتها تنفر وهي تتكلم. عيناهـا تتسعـان، تكـادان تقفزان من محجريها. تملكني زهو وأنا أرى تلك المرأة تتحرق:

ـ لا أدري . . . لا أدري . . . لقد سمعت من ال القضماني ان بعض أصدقائهم في شارع عدنان المالكي قد شاهدوا مع طلوع الفجر جنود البادية يلفون رؤوسهم بكـوفيات حمراء مرقطة. يهزجون ويصرخون. يمتطون مصفحات BTR يطلقون نيرانها على مبنى الاركان العامة التي صارت وزارة الدفاع، فيما بعضهم ضرب خيمة في مواجهة المبنى. لعلهم جعلوا منها موقعا لقيادتهم. . .

كنت أشعر وأنا أتكلم ان أحنف زلفوكان يلتقط بانتباه كل كلمة اقولها بينما بقي خالد يتلهى بطيّ ورقة صغيرة بين أصابعه.

وقف الصنم. تحرك. مشى نحـوي. هَمَدَ. دار بعينيه على وجوهنا. تملّانا . اطلق سراح سيكارته من حبس شفتيه. هوى بها الى صحن الدخان. عصرها مرات. نطق الصنم:

ـ عملها أبو راكان. . . عملها أبو راكان.

نزلت علامات الاستفهام من عيوننا . تجمعت على وجه عبد الحميد السراج.

من يكون «أبو راكان» كدت أسأله فسبقتني مَلَكْ.

سالت نظرة تهكمية من عينيه على وجه مَلَكْ قال همسا:

ـ تعرفين الرجل جيدا . . . انه حيدر الكزبري .
ارتخت مَلَكْ على المقعد. انفرجت اساريرها. اطلق احنف ضحكة عريضة وشت عن ارتياح ظاهر. وقف خالد أمام الشرفة. ازاح بيده الستارة واستدار يعلن علينا :
ـ اذا كان الرصاص انقلابا فهو انقلابنا.
لقد كانوا يظنون ان المقدم حيدر الكزبري قائد قوات البادية هو في جيب «السلطان الاحمر».
شاركه احنف الرأي. ضجوا بالسعادة، تمايلت مَلَكْ على مقعدها.
وحده بقي عبد الحميد السراج صامتا.

★★★

قرأت مجدك في الصحف وفي الكتاب
شآم ما المجد أنت المجد لم يغب

استبدلوا المارشات العسكرية بصوت فيروز. تركوا صوتها يرتل قوافي سعيد عقل. وليس أحب من صوت فيروز على الدمشقيين. فكيف اذا كان النغم سيالا والشعر وهاجا يعيد الى السوريين شعورهم بالعزة القومية والكرامة الوطنية بعدما غابت عنهم طوال سنوات «الوحدة» الممضة التي فرضها بعض سكان الجبال والسهول الشامية على مراكز السكان وتجمعاتهم السياسية ـ الاقتصادية ـ الثقافية في المدن الكبرى، الذين تحولوا بفعل «الروبل» السوفياتي و«الدولار» الاميركاني وتعاليم ماركس التي عرّبت، وصيحات الثأر التي اعتبروها صفة للعروبة، الى أسياد وجلادين استأثروا بالحكم وتحكموا. هتكوا وعاثوا بالبلاد خرابا.

الشام استفاقت من النوم على صوت فيروز. هزها الحنين الى الحرية. ليس من يعرف قيمة الحرية الا من عاش خارج دائرتها.
نزلوا الى الشوارع. حملوا البيارق. غسلوا وجوههم بأول أشعة الشمس. كانت الهتافات تزوبع في الشوارع والازقة للحرية والاستقلال الذي افتقدوه يوم قضت مصالح موسكو وواشنطن وطموحات عبدالحميد السراج في الحكم والسيطرة وشهوات حفنة من زملائه الضباط للتحكم ببلاد الشام وجعلها رهينة ما سمي «وحدة» هي في الاصل مصطنعة غير علمية لا قدرة لها على الحياة والنمو والاستمرار.

كانت الساعات تمر بطيئة. بليدة. بين طلوع الفجر وانتصاف النهار. كنت مشدودا الى المقعد يضج في داخلي شعور غريب. بعضه غبطة وبعضه قلق وارتباك. لم أزح سمعي عن جهاز الراديو. كل من حولي في صمت جنائزي. وخدها فيروز كان لها سطوة الكلام. مَلَكْ حاولت ان تبدد ارتباكها بتوزيع الاوامر على خادمتيها. خالد عاد الى الورقة الصغيرة يعلكها بين اصابعه حينا ويتركها على المنضدة حينا آخر. أحنف كان يرمي سماعة الهاتف من يده بعصبية كلما عصت خطوط الهاتف عليه. بينما بقي عبدالحميد السراج هادئا. صامتا. لا يتحرك من مقعده في صدر الصالون، يكتفي بنقل عينيه على وجوهنا ما أن يعصر سيكارة في صحن الدخان حتى يتناول أخرى من علبة السكاير في جيبه.

أرجعت فنجان القهوة عن شفتي. بعد الفنجان الخامس يصبح مذاق البن علقما. أحسست بانقباض لم أعرف تفسيرا له. سكتت فيروز. اعطت الكلام لمذيع تأنق في مخارج الكلام وهو يذيع البلاغ التاسع... فاذا ما جاء فيه يعيدنا الى نقطة الصفر، فلا ندري وعبدالحميد السراج أولنا حقيقة ما كان يجري... فيما الاشاعات التي نقلها الينا محمود اليوسف ممثل شركة «التابلاين» [شركة خط الانابيب الاميركانية عبر البلاد العربية] تؤكد بأن حيدر الكزبري لم يكن وحيدا في الحركة الانقلابية، انما كان طرفا رئيسا فيها فيما كانت أطراف عسكرية أخرى تمارس ضلوعا وحضورا ومكانة للاطاحة بالوجود المصري السياسي والاداري وحتى العسكري المحدود...

في تلك الساعات الطويلة الحاسمة كنت أرقب عبدالحميد السراج. أراه يتضاءل أمامي. أغرق عيني في عينيه. أحاول في المحنة ان أتبين فيه «رجل الدولة» الذي تقمصه ايام سطوته وقمعه فلا أرى الا الدركي الذي استمرأ الابهة والمناصب فاشتراها بالاستزلام والدهاء والختل والدلس. ويغيب عن ناظريّ الرجل الرجل الذي لا يهين امام الملمات ولا تلويه المحن ولا يتورع عن مجاهدتها بعزم وثاب.

كنت وأنا أعلق نظري عليه أحاول أن أقرأ في تصرفاته وتحركاته تصرفات وتحركات «القائد» الذي ادعاه وأوهم الناس به على مدى سنوات ست منذ سقوط عدنان المالكي شهيداً على منصة ملعب كرة القدم. فلا أفهم مما أقرأ سوى رجل يجلس في صحن داره حسيرا كليلا تغيظه الخيبة. صنماً صامتاً. ماهراً بالمكر والخنوع والاستزلام والتآمر والتجسس والجلد والتعذيب والقمع والتسلط، خائباً في مواقف الرجال الرجال.

ما لوّحت الشمس بالمغيب حتى بدأت تتكشف غوامض المحاولة. وما انغلق علينا انفتح امام عيوننا.

فلقد كانت المساومات والمناورات تدور سنجالا بين الخيمة التي نصبها حيدر

الكزبري أمام مبنى الاركان العامة وبين من كان في داخله من «مشير» وكبار ضباط مصريين و«بعض» سوريين أصروا على استمرار رهن بلادهم بثلاثين من فضة.

عبدالكريم النحلاوي الذي كان «الرأس المدبر»، و«العقل الفطن» للحركة التحريرية لا الانفصالية كما تسمى خطأ، نسجل له محاولته كما نسجل عليه انه ومجموعة ضباطه الدمشقيين قد وهنوا وضعفوا في ساعات انتصارهم الاولى على الاحتلال المصري، فاذا بهم يؤخذون بـ «هيبة» عبدالحكيم عامر، الذي اصبح «مشيرا» وهو لم يخض معركة ولم يقاتل في حرب . . .

تخاذلوا امام عبدالحكيم عامر. ارتضوا ان يصدروا البلاغ التاسع. قبلوا ان يعيدوا الامور الى نصابها. رضخوا لتهديدات جمال عبدالناصر التي جاءتهم عبر الهاتف. هرعوا الى محطة الاذاعة المواجهة. اعلنوا للسوريين ان الامر قد سُوّي وان «الريس» ما زال القائد الاعلى لما سمي بـ «الاقليم الشمالي» في حينه.

الا ان عبدالكريم النحلاوي لم يكن مسيطرا على الموقع بكامله فانتفض عليه بعض الضباط الرافضين لوجود واحتلال وسيطرة مصر. فما ان عاد اليهم وهم جلوس الى أجهزة استماعهم يسمعون البلاغ التاسع، حتى انتفض الضابط فخري عمر واستل مسدسه موجها فوهته الى رأسه وصرخ بالنحلاوي والضباط المجتمعين:

- اذا لم ننجح في انهاء الوجود المصري في سورية انهونا واحدا واحدا، فاذا كان هذا هو قراركم فأنا سأطلق النار على رأسي وليسجل التاريخ ان في الشام ضابطا حرا يرفض الاحتلال والذل والعبودية.

ساد الصمت بين المجتمعين. بقي فخري عمر رابط الجأش. لم يزح فوهة مسدسه عن صدغه. نقل نظره الحاد على عشرين وجها من حوله. بدأ الضباط يقفون الواحد بعد الآخر. شكلوا مجلسا عسكريا طرح على التصويت شأن الرضوخ للحاكم المصري او الاستقلال عنه. فاذا بالاغلبية تنتصر للرأي الاخير، واذا بالسوريين يسمعون من اذاعتهم البلاغ العاشر الذي أعلن سفر «المشير» عبدالحكيم عامر والضباط الوزراء السوريين الخمسة الى القاهرة واغلاق الحدود والمطارات والموانىء والدفع الى ما يثبت حضور الحركة التحريرية الاستقلالية العسكرية التي قامت و. . . انتصرت.

- ٤ -

بدا لي عبد الحميد السراج وهو يسترد نفسا طويلا ان الزمن قد غافله وسرق شيئا من قدرته وجسارته وسطوته وأنه أصبح وحيدا، كليلاً. هو الذي كان اذا التفت الى من حوله من الناس، فاذا الجميع يلوون ازاءه الرقاب وقد وثقوا بكونه لا شريك له، هو الحاكم والوالي المطاع. يرى في بلاطه المريدين والاصحاب والمتزلفين

المتنفعين الطامعين الطامحين في الحصول على رضاه.

كان يبحث في وجوهنا عن الاطمئنان على انه ما زال «السيد» و«السلطان» . تتعلق نظراته على حفنة من القوميين العرب، لم يتركوه لحظة.آثر الانكفاء [بينهم هاني الهندي. جهاد ضاحي . ممدوح رحمون. ثابت المهايني . مأمون طباع . . .] يستنجد بهم على غدرات الزمن. يستغلهم كما استغلوه. فلقد كان هؤلاء يأملون ان يكون عبدالحميد السراج لهم موطىء قدم في بلاد الشام على ضحالة فكرهم وقصر نظرهم ومحدودية حجمهم وضعف امكاناتهم.

الا ان عبدالحميد السراج في قرارة نفسه كان يشعر انه أصبح متروكا. ما عادت عناصره متسللة الى أصحاب القرار العسكري الجديد في دمشق. ضباط استخباراته ما عادوا في الجيش . قدرته العسكرية مكلولة معدومة.

مهيب الهندي. قاد دباباته من معسكرات «قطنا» ليحاصر الاركان العامة والتلفيزيون. حيدر الكزبري دفع بعرباته المدرعة ليحاصر طرفا آخر. موفق عصاصة سيطر على سلاح الجو ومطاراته وثكنه من جبال طوروس الى حدود الرمتا الاردنية. كاظم زيتوني احكم قبضته على سلاح البحرية واستعد لمجابهة اية عملية مصرية على الاراضي السورية. فما خاب ظنه. قام المصريون بمحاولة انزال للقضاء على الحركة التحريرية فسقط الضابط المصري جلال الهريدي في الاسر مع ٤٠٠ مظلي رمتهم طائرات مصرية فوق الشاطىء السوري. وما كان أمضّ على «الريّس» من أن يشاهد السوريون على شاشات التلفزيون احد قادته يكاد يبكي ويستغيث بالرحمة والرأفة ان يعتق من الاسر مع عسكره لأنه جندي ينفذ أوامر قيادته ليس إلّا!

★★★

٢٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١

لم تسمع مَلَك جلبة الحراس. ما أتاها فاروق ، رئيس الحرس، بجرائد الصباح كعادته. دست نظرها في شارع الجاحظ، فرأته خاليا من الحرس. توجست شرا. تكتمت. لم ترغب ان يعرف زوجها. انسلت خارج الشقة. نزلت الى المدخل، فلم تجد فاروق ولا الحراس الثلاثة الذين بقوا معه. فلقد حملوا بنادقهم وتركوا «السلطان» وحيدا. . . بلا حراسة.

خافت عليه من الناس. التظاهرات كانت ما تزال تنشر الغضب في الشوارع. الاشاعات كانت تلف بيت عبدالحميد السراج من ان جمهرة من المُضامين من جوره وعسفه، ومن الذين اذاقهم خلال تسلطه وسطوته صنوف التعذيب والجلد، وكواهم بسياخ النار ولدعهم بالكهرباء حتى الموت، سيصعدون اليه. سيرمون به الى الشارع. سيربطون ذراعيه الى سيارة تسحله في شوارع دمشق. واذا ما نجا من غضبة الناس فانه لن يسلم من قبضة الضباط الذين عانوا الامرين خلال ايام

حكمه. رصاصة واحدة تخترق صدغه. ونعيه خبر صغير في زاوية عمود في جريدة شعبية!

كان عند سماعه هذه الاشاعات يلبس وجهاً آخر. يخفي تحته خوفه ورعدته. غرق في الصمت. كان يحكم اغلاق نوافذ غرفته كي لا تصله أصوات الناس.

طرحت مَلَكْ الصوت، تنادى مجلس العائلة الذي ضمها وشقيقها احنف وشقيقها من ابيها زهير وزوجته اسيمة مالك - [التي كانت ربيبة جلادت بدرخان الزعيم الكردي المشهور الذي كان رائد المطالبة بقيام دولة كردستان في الثلاثينات والاربعينات قبل ان يتوفاه الله تاركا زوجته روشن التي كانت تزوجت من المهندس عمر مالك فطلقها قبل ان تلد منه ابنتها فربيت البنت اسيمة في منزل زوج أمها الثاني جلادت بدرخان فتشربت منه القومية الكردية وباتت بعد دخولها الحزب الشيوعي تحمل لواء القومية الكردية. وعندما تزوجت زهير زلفو شقيق مَلَكْ اصبحت تدخل بيت السراج وتحظى منه باهتمام وتلقى لديه آذانا صاغية] - وقر الرأي ان يهرب عبدالحميد السراج. ان يترك البيت الذي حكم منه الشام ست سنوات طويلة، وان يلجأ الى مكان يبقى سرا.

لقد دار الزمان دورته. والذي أذاق الناس ذل الهرب والتخفي والتلطي. أصبح شريدا. طريدا. هاربا. مطلوبا من الناس و. . . العسكر.

- ٥ -

هدير العربتين المدرعتين وحشرجة محركيهما سبقاهما الى الشارع.

كان الصوت المتثاقل الذي يقتحم صمت الليل، يقترب من البيت. مسامير أحذية الجنود كانت تحدث اصواتا غريبة على الاسفلت. والدعسات المتلاحقة كانت تطوق منافذ الشارع.

توجست زوجتي ريبة. قمت الى النافذة امد نظري الى حيث كان الهدير وجلبة العسكر. فاذا بعربيتن مدرعتين تقفان امام العمارة ثم ينزل من سيارة سوداء اللون ضابط ضخم الجسم عريض الكتفين لم أتبين ملامحه جيدا، يخفي شعره الكث تحت عمرة حمراء اللون يعتمرها عادة ضباط الشرطة العسكرية. يأمر الجند ان يتوزعوا يمنة ويسرة. يدخل العمارة وخلفه ثلاثة جنود يحرسونه.

ابتعدت عن النافذة رميت نظرة عجلى على وجه زوجتي فاذا بملامحها قد تغيرت وارتعدت أوصالها.

- الشباب وصلوا الينا.

قلت وانتظرت مع دقات قلبي دقات الباب.

انتصب أمامي . بانت ملامح وجهه . استجمعتها في ذهني . بانت أليفة . . .

ـ ماجد برتو . . ماجد برتو أليس كذلك؟

ملأت الدهشة وجهه . لم يجب . اكتفى بهز رأسه . أمامي شريط صور متسارعة . هذا الرجل المنتصب امامي ببزته العسكرية كان زميلي في الصفوف الابتدائية . افترقت عنه يوم التحق بالجيش والتحقت انا بالجامعة لدراسة التاريخ . شقيقه الاصغر كان رفيقي في الحركة السورية القومية الاجتماعية . لكنني وقد باعدت بيننا الايام ما عدت التقيته . هو كان في موقع السلطة وانا كنت في موقع المعارضة . وتتابعت الصور . . ماجد برتو يا الله أليس هو المتهم مع العقيد ابراهيم الحسيني بقتل العقيد محمد ناصر ، آمر سلاح الجو ، وامضى على زمن اديب الشيشكلي شهوراً في سجن «المزة» العسكري الى ان ثبتت «براءته» فأعيد الى صفوف الجيش يتدرج في الرتب من رقيب الى ملازم اول . . ؟

ـ نعم انا ماجد برتو . . .

سحب صوته الرخيم دفع الصور في مخيلتي :

ـ ماذا تفعل هنا؟ . . . لقد قالوا لي ان أزور عديل عبدالحميد السراج لافتش عنه . . . لو عرفت انك هو لما كنت زرتك بهذه الطريقة . لكنت . . . لكنت اكتفيت بالاتصال بك هاتفيا

أومأ الى الجند فخرجوا .

جلس . تحادثنا . تذكرنا . كنت اعتقد ان ماجد برتو وشقيقه ينتميان الى عائلة شركسية . فاذا بي بعد تلك السنوات الطويلة اسمع من يقول لي انه ليبي الاصول والجذور وانه صار ثريا ورجل أعمال ناجحا يملك قصرا مهيبا في ماربيا الاندلسية .

سألني عن عبدالحميد السراج . قال ان معلومات الشرطة العسكرية انه ترك منزله وهرب . وهو مطلوب للتحقيق في الاركان العامة . لم اخفه انني لا اعرف مكان تواري السراج . دارت نظراته في البيت بسرعة كأنه لم يصدقني . فبادرته طالبا ان يفتش البيت غرفة . . . غرفة .

رسم على وجهه ابتسامة . ضغط على يدي :

ـ أصدقك . . . أصدقك . لكن المقدم فخري [عمر] يريد الاجتماع بك على أي حال . سأمر بك غدا صباحا لاصطحبك اليه ، وآمل ان يحضر معك خالد زلفو شقيق زوجتك .

بلعت ريقا تجمد في حلقي . امتقع وجه زوجتي ، فسترت عن ماجد برتو ارتباكها بابتسامة تحايلت بها على شفتيها . عب آخر نفس من سيكارته . عصرها في صحن الدخان . قام الى الباب ، وهو يضغط على يدي .

ابتسم. . . تلاحمت ابتسامة باهتة على شفتي.
ـ سأمر عليك غدا إذن. . . لا نريد ان نتأخر على المقدم «مو هيك»؟

---

(١) ـ راجع «سجون البعث» ـ مجلة «سوراقيا» العدد ٣٧٤ عام ١٩٩٠



عبدالحميد السراج بعد وصوله الى القاهرة في اول مقابلة صحافية له مع جريدة «أخبار اليوم» يحدثها عن فترة اعتقاله في سجن «المزة».

الفصل الرابع عشر

اعتقال السلطان



- ١ -

ردت ستائر الشباك الليل عني. همت بين دفتي كتاب. في العادة اسافر على متن الكتب الى مطارح بعيدة يرسمها كاتب جُن مرة بالحبر، يجدها الكلام شرقا وغربا شمالا وجنوبا، وناسها احرف سود لا تعرف التمييز العنصري والتفرقة والتسلط. الا تلك الليلة. فلقد عصت السطور عليّ. رفضت اعطائي تأشيرة خروج من عالمي المتهالك المليء بالاحقاد والعنف و. . . الموت الى دنياها الخيالية المريحة الواسعة. توسلت. ازحت الكتاب عن عيني. اغمضتها. شيء ما كان يلكزني، فأعود اليه. أغرس عيني في صفحاته. نبرات صوت ماجد (برتو) شاكر تطن في أذني. يقفز وجهه أمامي. يزيح السطور. يفتت الحروف السود ليطل منها: «سأمر بك غدا. . . لا نريد أن نتأخر على المقدم موهيك».

المقدم. . . المقدم. ترى ماذا يريد؟

فخري عمر. قاومت ذاكرتي. غرقت في لحظات مغموسة بالوجوه التي أعرفها. استحضرت وجه فخري عمر من بينها. امسكت به. لن أدعه يفلت الآن. عرفته فلقد كان صديق والدي وعضوا في الجمعية الشركسية التي كنت انتمي اليها ايضا. . . الآن عرفته. بيني وبينه أحاديث ونقاشات وود.

ارتحت. أخذت نفسا طويلا من سيكارة نسيتها برهات تكتوي بنارها في صحن الدخان. فخري عمر. اتراه نسيني. أتراه لا يعرف ما كان من أمر عبدالحميد السراج معي حتى يطلب استدعائي؟

ارتعشني داخلي فجأة. استولت على فكري الظنون. طافت على لساني كلمات كنت أرددها مرارا: «لا تثق بالعسكر. . . لا تثق بالعسكر».

في النهاية فخري عمر «عسكري»، وصل الى السلطة في انقلاب لم يستتب له الاستقرار بعد. السلطة في بلادي تحول الخروف الى ذئب. ثم ان المقدم فخري عمر صار رئيسا للشرطة العسكرية، وهو المسؤول عن اعتقال الناس والتحقيق معهم قبل رميهم في سجن «المزة» العسكري الرابض فوق الهضبة المشهورة، منذ

صنع منه الفرنسيون عام ١٩٣٢ حصنا منيعا لاعتقال احرار الامة وحرائرها.

سجن «المزة». مرت امامي الصور متلاحقة. متلاطمة. سمعت همس عبدالحميد السراج: اعتقلوا. عذبوا. مداهمات. اعتقالات. غمرتني الاصوات. عنين السياط التي تصفع الهواء قبل ان تنزل على الاجساد المتورمة المشقوقة. جعير الجلادين وسبابهم. انين الموجوعين تحت السياط واسياخ النار ولسعات الكهرباء. وخزة السكين في الجلد والعظم لتقتلع الاظفار. احسست بالتقيوء. طرزت جبيني حبيبات عرق باردة. شعرت بحاجة الى الزعيق. كتمت صوتي. ضاقت انفاسي على صدري. قمت الى النافذة. دسست وجهي فيها. لطمني نسيم فيه رائحة الخريف.

السكون الذي يغمر دمشق اعادني الى صوابي. وحده مواء القطط التي تلتطم، بتنك الزبالة في الازقة المهجورة يسمع من بعيد. نوم دمشق ثقيل.

ارتخيت على المقعد. تراجعت الافكار السوداوية من رأسي. تنبهت الى ان القلق لم يحاصرني هذه المرة. بدأت رويدا... رويدا استرجع الشعور بالراحة والثقة الذي تملكني منذ فجر الثامن والعشرين من أيلول (سبتمبر) ١٩٦١. فلقد كنت اعتقد انه مع انحسار الهيمنة المصرية وزوال الوجود المصري الاداري والسياسي وحتى العسكري، انقشعت الغمامات السود التي كانت تعد بهبوب العاصفة. وانتهى عهد التسلط والارهاب بانتهاء عبدالحميد السراج وأعوانه...، وبدأ الانسان السوري يسترد حريته واستقلاله.

ثم إن بعض الذين قاموا بالحركة الانقلابية المسلحة كان من زملاء دراستي الثانوية:

محمد الموصلي، كان رئيس فريق «الفتوة» لكرة السلة الذي كان في عداده مع شرف الدين الزعبلاوي وننافسه في فريق «الوليد» المجاور له بشارع الروضة. مهيب الهندي كان زميلي في السنة الاولى الاعدادية. هشام عبد ربه [الذي كان لفترات معاونا لعبد الحميد السراج] كان يشاركني مقاعد الدراسة الابتدائية وبعض الثانوية. عبدالكريم النحلاوي يتقدمني في السن ولكنه ما كان يسبقني بغير عام دراسي واحد في المرحلة الثانوية. موفق عصاصة ما كنت اعرفه ولكن كان لي في ثكن سلاحه الجوي اكثر من صديق وزميل دراسة ورفيق فكر وعقيدة.

لكنني على الرغم من ذلك كله، فانني لم اكن أعرف اين يقف «الشباب» في حركتهم الانقلابية. فايز الرفاعي، [الذي تملك منذ عشرة اعوام سوبر ماركت في مونتريال بعدما عينته الحكومة السورية قنصلا فخريا لها في كندة]، كان يصغرني في السن، لكنه حين ارتدى البزة العسكرية، ووضع على رأسه القبعة الخضراء رمزا لسلاح المدرعات ضاع عني، ما عدت اعرف عن تطوره الفكري شيئا. فما كنت

اعرفه عنه شغفه بالحركة النازية. فقد كان يكثر الحديث عنها ويطيل عندما كنت التقيه مع شقيقه الاكبر منيب. فهما، مع وليد الكزبري، [المهاجر الى كندة هذه الايام]، ومنذر الميداني وممدوح رحمون وبرهان سكري وغيرهم. . . شكلوا ذات يوم شبه حزب نازي، وقد بلغ فيهم ولعهم بزعيم الرايخ الثالث ادولف هتلر ان حلقوا شعور رؤوسهم على طريقته واخذوا يحيون بعضهم البعض برفع اليد كما كان يفعل الزعيم الالماني.

ضاع فايز الرفاعي عني. اصبح واحدا من العسكر. وأنا صرت في الجانب المدني. لكنه كان كلما التقاني يرمي السلام علي بود ومحبة محترما أفكاري المناقضة لتسلط العسكر على السياسة والتحكم بالسلطة. ابادله السلام بمثله مع الود والمحبة. فليس سهلا ان تنفك عاطفيا عمن عايشتهم وعايشوك نيفا وخمسة عشر عاما.

«أمس ميت في غد مولود». . . قفزت هذه العبارة الى رأسي: همدت. حاولت ان اتذكر في اي كتاب قرأتها. نسيت. لم أعطها بالاً. شعرت بمزيد من الاطمئنان وأنا أطوي الوجوه في ذاكرتي وبخدر رقيق يدبدب في مفاصلي. استسلمت للكرى بعدما استحكم بي. تولاني. . . فنمت.

- ٢ -

غدرتني الشمس ساعة انسابت أشعتها من قداويح الستارة وتزحلقت على وجهي.

يلذ لي إن استبق الشمس. اعتز مثل الاديب اللبناني مارون عبود «ساعة يستفيق الديك بعدي» كما كتب مرة ومرات. فليس أحب عندي ان أكون الشاهد على جسم الوردة وهو يستحي تحت أول اشعة الشمس، وعلى غنج قطرة الندى على الورق الاخضر. . . قبل ان يلعقها لسان الغزالة الطويل.

ساعة انعكس وجهي على المرآة، ألملم بالشفرة الحادة صابون الحلاقة تيقظ حس غريب في نفسي. مرت الافكار كالومض في رأسي. تماسكت. حاولت ان أعيد ترتيبها. استولت علي فكرة واحدة. علقت في ذهني. تخيلت ان الزمان قد انضج ظرفا معينا لفتح حوار مع المقدم فخري عمر. يكون اول اتصال غير رسمي بين ضابط قيادي في الحركة الانقلابية وقومي اجتماعي. . . سحقت حركته مؤامرة اخطبوطية الرؤوس، معروف بعضها، تنقلت بين الشام ومصر ومرت عبر الدولة العبرية وواشنطن وبعض عواصم الرجعة العربية.

لِمَ لا. . . فالرجل صديق منفتح. ثم ان العثور على عبدالحميد السراج او سؤالي عنه هو امر ثانوي لا يعنيني. فان كانوا يعرفون - كما قال لي الملازم ماجد شاكر - انه

غادر منزله وتوارى عن الانظار فلا بد أنهم يعرفون جيدا ان منزلي لا يمكن ان يكون لـ «السلطان الاحمر» الهارب ملجأ ومأوى لألف سبب وسبب، وهم على دراية بعلاقتي الباردة به وبموقفي السياسي المعارض له والرافض لحكمه وإرهابه وعصره ووجوده.

راقتني الفكرة. حلقت مع نشوة عابرة امتلكتني. قلبت آخر قطرة في فنجان القهوة في فمي.

همهمت: سأنتهز الفرصة. سأحاول فتح حوار بين الحركة القومية الاجتماعية وهؤلاء الضباط الانقلابيين الشباب الذين استفزتهم العزة القومية والشعور بالمهانة والضعة والوجود المصري يحرض ويغطي ويتستر على حالات القمع والارهاب التي مارسها عبدالحميد السراج والمستفيدون من حكمه على مدى السنوات الست الماضية . . .

حطت نظراتي على الشباك المؤدي الى الشارع محمولة بأفكاري:

ـ تأخر. . . تأخر. قال سيأتي باكرا.

رطن خالد زلفو ساعة رآني اشبع نظري في التطلع الى الشارع.

رميت نظرة على وجه زوجتي. فاذا بالقلق يتكمش بملامحها. تركت ابتسامة تتمدد على شفتيها كأنها كانت تريد منحي شجاعة لم أكن بحاجة اليها. خطفت من لسانها كلمة كادت تسيل على شفتيها:

ـ لا تقلقي . . . لا تقلقي . . . سنعود باكرا.

وكتمتها كلمات رددتها همسا في نفسي. أرخت رأسها على كتفي. ثم سوّت من ربطة عنقي:

ـ أعرف . . . اعرف لكن عبدالحميد عديلك. قد يثأرون. قد يجعلون منك رهينة لاجبار عبدالحميد على تسليم نفسه. . .

ـ لي بينهم أكثر من صديق. . . وهم يعرفون علاقتي الفاترة والمضطربة بعبد الحميد.

تملكتها الراحة. طردتُ كلمة وقفت تنتظر على طرف لساني لحظة سمعت هدير محرك. تعجلت بالنظر من الشباك، فاذا بسيارة «الستوديبايكر» السوداء ذاتها تقف امام العمارة بلا عربات مدرعة ولا حرس ولا عسكر وينزل منها الملازم اول ماجد شاكر.

ـ ٣ ـ

أمعنت في التطلع الى وجهه. حاد القسمات واسع العينين. دقيق الانف. أجهد النفس في ترتيب شعيرات شاربيه فبانت رفيعة مستقيمة تترك على الوجه انطباعا بالجدية.

كان وهو يقود السيارة يترك يده اليسرى وهو يتكلم ترسم اشارات خارج النافذة . استجمع كل ما اختزنه من ذكريات عني . سردها . كأنه كان يحاول ان يهدىء من روعي ونحن نجتاز الشوارع الى مبنى الشرطة العسكرية في حي البرامكة. حاولت بالمقابل ان افهمه بانه ليس بحاجة الى اجهاد النفس واستحضار ما غاب من الايام، فلست قلقا ولا يعتريني الخوف!

عند البوابة الحديدية الكبيرة، تمهل. رفع الحارس يده بالتحية. هز له رأسه. مررنا الى الداخل . على يميننا كان الرائد فايز الرفاعي. يوقف سيارته. تواجهنا بالنظرات. رفع يده مسلما. ثم . . . كأنه تفاجأ بوجودي داخل مبنى الشرطة العسكرية أومأ مستفسرا فصحت به: «جئت ازوركم مهنئا».

لوح بيده. ترك ابتسامة عريضة تنتشي على شفتيه:

ـ أهلا . . . اهلا خلينا نشوفك.

صعدنا درجا ضيقا. انفتح امامنا ممر طويل. مد ماجد شاكر الخطوات امامنا. يرمي السلام يمنة ويسرة. توقف عند باب في آخر الممر، أزاحه فانفتح على غرفة انتظار صغيرة فيها بعض مقاعد ومنضدة خشبية عتيقة، عليها صحن دخان وبعض جرائد اصفر ورقها من أشعة الشمس التي تأتي من شباك يتشبث بحائط كلح فما عدت تعرف لونه. على الحيطان الاخرى ترك انتزاع صور «الريّس» جمال عبدالناصر، مساحات بيضاء كانت تتستر على الغبار وتقشر طبقات الالوان المتعددة التي دهنت بها تلك الجدران.

تركنا الملازم شاكر وحيدين لدقائق. دخل غرفة جانبية. سمعنا طرقة كعب حذائه وهو يحيي ضابطا آخر أعلى منه رتبة اعتقدت منذ الوهلة الاولى انه المقدم فخري عمر.

فجأة فتح الباب. دخل علينا شرطي عسكري ومعه آخر بثياب مدنية يقودان رجلا اجنبيا طاعنا في السن تتدلى من كتفه آلة تصوير وخلفهم دخلت سيدة في خريف العمر . شلحت علينا نظرة حمقى. وبدأت تجول بنظرها في الغرفة. يتكمش الغيظ في ملامحها. اشار الشرطي الى الرجل المسن بالجلوس ففعل. . . بينما رفضت السيدة. مدت في الغرفة صوتا رخيما. غلفت كلماتها الانكليزية برطنة اميركانية:

ـ أما من احد يتحدث الانكليزية هنا؟

استسلمت لسؤالها. رفعت نظري الى وجهها:

ـ انني اتحدث الانكليزية يا سيدتي. . .

ابتسمت كأنها رمت ثقلا عن كتفها. غيّرت نبرات صوتها:

ـ أخيرا. . . أخيرا.

جلست الى جانبي. سحبت سيكارة من حقيبتها الجلدية. اشعلتها بعصبية أخذت نفسا طويلا منها. نفثت الدخان تركته يتجمع في فضاء الغرفة.

- هل تسمح وتشرح للشرطي ورجل الاستخبارات معه، انني القنصلة الاميركانية لدى الدولة السورية. وان هذا الرجل هو زوجي وصل من يومين من الولايات المتحدة لزيارتي، وكل ما فعله انه التقط صورا لدبابات كانت متوقفة في زوايا احد الشوارع. هل هذه جريمة؟ حتى نقتاد الى هذا المبنى؟

هممت في الاجابة. شعرت انها لم تكمل الكلام:

- في بلادنا عندما تشترك دبابات الجيش في عرض عسكري تسقط عنها السرية والعسكرية وتصبح هدفا لكاميرات المصورين... فكيف الحال ودبابات الجيش السوري موجودة في كل شارع في العاصمة منذ حركة الانقلاب الاخيرة، فأين السرية في ذلك؟ كل يوم يمر آلاف السوريين بتلك الدبابات، وصورها تحتل الاعمدة العريضة في الصحف والمجلات المحلية والعالمية.

غالبت ابتسامة تمردت عليّ فتمددت على شفتي. لم أكن أعرف لماذا كنت أضحك. ألسخافة الحادثة أم لجهل القنصلة الاميركانية لبلد ما تزال تتحكم به عقلية الاستخبارات التي زرعها عبدالحميد السراج؟ لملمت غضبها بكلمات هادئة. حاولت ان أشرح لها ان الوضع ما يزال متوترا وان الامر لم يستتب بعد للانقلابيين. شعرت انني اقنعتها. ارتاحت قسمات وجهها، فشرحت لزوجها ما قلت همسا.

قطع الملازم ماجد شاكر همسها. لما فتح الباب وهمّ بالتحدث اليّ لكنه سكت عندما شاهد السيدة الاميركانية وزوجها. رسم علامات استفهام رددت عليها بسرعة معرفا بالقنصلة الاميركانية وزوجها. وأوجزت له سبب وجودهما. رمى على الشرطي نظرة عجلى. أومأ. فخرج مع العنصر الاستخباراتي من الغرفة. ارتبك الملازم. عاد بعدها الى الغرفة. غاب لحظات، ثم عاد دعاني لمرافقة السيدة وزوجها لأقوم بالترجمة فلا هو ولا المقدم فخري عمر يجيدان الانكليزية.

★★★

لا شيء فيه تغير. بعده ذاك الوسيم الانيق. طلته القفقاسية تزيد على بزته العسكرية هيبة ووقارا. عينان سوداوان تدوران في وجه جميل الملامح دقيقها. هادىء النبرات. ساعة دخلنا عليه كان يرتب اوراقا مبعثرة على مكتبه. تركه. مشى من خلف المكتب صافحني بكياسة عرف بها. السيدة الاميركانية، قدمت له زوجها. دعانا الى الجلوس جلسا. فضلت ان ابقى واقفا كي أساعد على حل مشكلتها بسرعة علّه يحل مشكلتنا بسرعة اكثر.

بذكاء حدثها. ترجمت. قال معتذرا إزاء تصرف رجال الاستخبارات. فالاعصاب مشدودة بعد الانقلاب.

تركها تحكي. كررت ما قالته لي واعادت اعتراضها. ابتسم لها. اعتذر قال ان جنوده «يعتبرون كل قطعة عسكرية هي سر عسكري يتعاملون به مع المواطنين والاجانب على هذا الاساس. فاعذروهم واقبلوا اعتذاري الشخصي مع الرجاء الا تستعمل آلة التصوير مرة أخرى يا سيدي كي لا تسبب لكما ازعاجاً».

مر جندي بصينية نحاسية عليها فناجين قهوة عربية مُرة فيها نكهة الهال. شعرت ان الرجل الاميركاني بعد احتساء فنجانه كتم شعورا بالارتياح. وقفت القنصلة. قبلت اعتذار المقدم. مشى معهما الى باب المكتب.

اخذ نفسا طويلا. تملاني. قال:

- اين خالد زلفو. أليس معك؟

في غرفة الانتظار...

عاد الى الباب. فتحه. دعا خالد زلفو للانضمام الينا. بقي واقفا خلف المكتب حتى جلستُ. فجلس.

حط نظره بعد تيه على الاوراق على مكتبه. استأذن. وقع على ثلاث منها. وضع القلم بهدوء أمامه. رفع نظره. نقله في وجهينا:

- لن اسألكما عن العقيد السراج. اعرف جوابكما سلفا. انا مقتنع تماما بجهلكما مكان تواريه. أنتما أدرى بما اقترف وفعل وخرّب.

تمهل. اقتضب في الكلام:

- رئيس الشعبة الثانية في الجيش يريد التحدث اليكما. سأرسلكما اليه بعد دقائق.

لم يترك مجالا للحوار. ضغط على زر جانبي. دخل جندي. أمر لنا بمرافقة الى مبنى الاركان العامة. وقف. مد يده مصافحا. قطع هذا الحسم آمالي في الحوار معه. فالرجل ما كان امكانية حوار بل كان وسيلة تنفيذ. اوحى لي انه يفضل ان يكون رئيس الاستخبارات العسكرية محاوري فهو رجل «الفكر» في القوات المسلحة. هو مفكر الجيش الدائم.

- ٤ -

خلت المسافة من مبنى الشرطة العسكرية الى مبنى الاركان العامة دهراً. كانت الافكار تتلاطم في رأسي. لمت نفسي انني فكرت لحظة واحدة بأمل الحوار. رنت كلمات فخري عمر في رأسي. تلاشى كل شيء امامي. تناثرت افكاري. شعرت وانا أخطو والى جانبي خالد زلفو في الممر الداخلي لمبنى الاركان العامة بأن العيون تتبعنا. حررت ذهني من الظنون ساعة ابتسم لي احد الجنود، وهويدعونا الى دخول غرفة انتظار كبيرة، أنيقة الاثاث. من نافذتها العريضة أطللنا على ساحة الامويين

وعلى الخيمة البدوية التي نصبها المقدم حيدر الكزبري. عشرات الدبابات والعربات المدرعة ومئات الجنود بخوذاتهم الحديدية، يأخذون الحيطة في زوايا المبنى والشوارع التي توصل اليها ، يحمون الانقلاب الذي لم يغير مجرى التاريخ بقدر ما أعاد لسورية استقلالها وللسوريين الحرية والكرامة بعد سنوات من الذل والمهانة والتبعية.

مضت الساعات بطيئة ونحن ننتظر. الفت أعيننا ما في الغرفة. تسليت مرارا في عد بلاطات الغرفة وزهقت من كثرة التطلع من النافذة ومن الجلوس. بين الفينة والفينة كان يدخل جندي يعرض علينا فناجين القهوة. ثم يدخل آخر يزف الينا بأن المقدم سيستقبلنا بعد دقائق:

والدقائق صارت ساعات. والقهوة صارت علقماً. وصحن الدخان طفح باعقاب السكائر . والانتظار مربك. ممل. مضجر. مقلق. مخيف. يأكل من الاعصاب نتفا.

فتح الباب فمه. أطل منه المقدم محمد الموصلي. صعق لمشاهدتي أدور في أرض الغرفة. صرخ في مرحبا:

ـ يا هلا... ماذا تفعل هنا؟ هل انت هنا لزيارة شرف الدين؟

اندفعت الكلمات عجلى من فمي:

ـ لا اعرف... لا اعرف. الحقيقة لست بغرض زيارة احد. لقد طُلب مني المجيء الى هنا.

قطبَ. ترك مساحة على وجهه لعلامة استفهام حيرى:

ـ عجيب.. من طلب اليك المجيء الى هنا... ثم لماذا؟

بادرته بهدوء:

ـ المقدم فخري عمر طلب مني المجيء الى هنا... اما لماذا فلست أعرف؟

ابصرت ارتباكا مر على قسمات وجهه. سقطت عيناه على وجهي فأحسست بأنه ارتاب بالامر. أطرق مفكرا ثم قال:

ـ سأرى المقدم الزعبلاوي قبل دخولك عليه.

أغلق الباب خلفه. عادت تلك الغرفة الانيقة لتتحول الى زنزانة انتظار. وعدت الى النافذة. الساعة الثالثة بعد الظهر... سبع ساعات مرت منذ خروجنا من البيت، وما زلت اجهل لماذا استدعيت وماذا يريدون مني؟

بدأ الضيق يعتصرني. كففت عن الحركة. همدت في مكاني. ابتلعت مع ريقي عبارة بذيئة كادت تتفلت مني. كان خالد زلفو طوال الوقت جالسا يدفن رأسه بين يديه. اثارني صمته.

دعسات كانت تقترب من الباب. دعسات ألفنا سماعها طوال ساعات. فتح

الباب. انتصب جندي امامه. دعانا لمرافقته. اخيرا... افرج عنا.

مشينا خلف الجندي وهويقطع الممر. بخطوات مسرعة. تمهل امام باب. نقر عليه بهدوء سمعنا صوتا رخيما. لم نفهم منه شيئا. دخل الجندي. بقي الباب مفتوحا. أومأ. فدخلنا.

★★★

انتصب بقامته المربوعة خلف مكتبه العريض المزدحم بآلات الهاتف وبالملفات. امامه وقف ثلاثة ضباط كانوا يتلقون الاوامر منه. وعلى المقاعد في زاوية الغرفة الكبيرة اربعة ضباط مغرقين في حديث هامس. بينما كان محمد الموصلي يتحدث الى ضابطين آخرين.

لما رآني مشى من خلف مكتبه نحوي. لا شيء في اللقاء يعادل لقائي بالسراج قبل خمسة أعوام. مد يده مبتسما. دعانا الى الجلوس. صمت الجميع. طووا احاديثهم. لملم أحد الضباط اوراقا كانت على منضدة الدخان. طلب المقدم الزعبلاوي منهم الخروج. ابتسم البعض. افسحوا مكانا لنا. خرجوا. استبقى محمد الموصلي معنا.

بقي واقفا. كلما كان يريد ان يبدأ الحديث يقطعه رنين الهاتف. فيعود الى الهمس. وعندما كان ينتبه الى ارتفاع صوته يخفضه. فالرجل كان يتحمل مسؤولية امن حركة انقلابية قوضت وجود الرئيس جمال عبدالناصر في ما سمي بـ «الاقليم الشمالي» للجمهورية العربية المتحدة. والانقلاب، لم يكن مستتبا في كل مكان. ففي الشمال السوري كانت عساكر عبدالناصر من السوريين تحاول تمردا وعصيانا. وفي الشرق بعض التمرد والعصيان. وفي الجنوب تململ قرب الحدود الاردنية والضباط الشباب قليلو الخبرة بعمليات الكر والفر السياسية. لم يعترفوا بأنهم افتقدوا الى غطاء عربي ودولي، الى مظلة ضخمة من حجم عبدالناصر. ففي مواجهة «الريّس» واطماعه كان عبدالكريم النحلاوي وموفق عصاصة وحيدر الكزبري وشرف الدين الزعبلاوي و... فايز الرفاعي.

ـ أهلا... أهلا. فوجئت انك أنت عديل السراج. فلقد مرت سنوات طويلة لم أرك خلالها وانقطعت عني اخبارك وأحوالك. لذلك عندما اتصل بي المقدم عمر ليعطيني اسمك على انك عديل العقيد السراج كدت لا اصدق. فطينتك ليست من عجينته.

تمايل المقدم شرف الدين الزعبلاوي وهو يقول آخر العبارات وانتظر مني جوابا:

ـ قدره أنه كان عديلي. فلقد ناسبني بعد زواجي بثلاثة أعوام. وكما تعرف ما كنا على صلات جيدة...

هز برأسه:

ـ مفهوم... مفهوم...

اكملت بعدما شعرت انني في مكتب صديق قديم وليس خصما او عدوا. ولا هو عسكري حاقد لئيم.

ـ لم أكن أقره يوما على افعاله واعماله وتصرفاته حتى لا استرسل وأروي لكم خلافي السياسي والفكري معه. اننا يا صديقي لا نعزف على قيثارة واحدة.

قاطعني رافعا يده:

ـ سنعود الى هذه الامور في جلسة أخرى خارج هذا المكان.

عبّ نفسا من سيكارة حبسها طويلا بين أصابعه ثم قال:

ـ انا مهتم الآن بالعثور عليه. ليس لما فعل ولما خرب ودمر في الانسان والمجتمع فحسب، انما لأنه ما زال يتحكم ببعض الشارع الدمشقي وهو قادر على تحريكه لعرقلة حركتنا لصالحه وليس لصالح «الوحدة» كما يظن البعض.

مر وجه عبدالحميد السراج امامي كالومض. ظل واقفا ينفث الدخان الرمادي من فمه فيتكوم ثم يتبعثر في فراغ الغرفة. حانت مني التفاتة الى محمد الموصلي فرأيته يغرس نظره في وجهي متلهفا للجواب:

ـ آخر مرة رأيت عبدالحميد فجر يوم الانقلاب. بقيت في منزله حتى ظهر التاسع والعشرين من ايلول (سبتمبر) ولما اتصلت بزوجته في اليوم التالي للاطمئنان عليها، وذهبت لزيارتها فوجئت انه لم يكن في البيت. انه هرب، توارى. لكنني لا أعرف اين يختبىء؟

افرج شرف الدين الزعبلاوي عن ابتسامة ترحرحت على شفتيه:

ـ اعرف انك لا تعرف اين يتوارى. لن يمضي الوقت الا ويكون العقيد السراج خلف القضبان. سيدفع ثمن ما اقترف وصدقني لو كنا نعرف مَنْ عديل السراج من قبل لما كنا جشمناك عناء المجيء الينا. ثق انني ساسعى في وقت قريب الى لقائك. فأترك لدى مساعدي رقم هاتفك كي اتصل بك فنلتقي.

مد يده. ضغط على يدي مصافحا. رفع المقدم محمد الموصلي يده بالتحية. طلب اليه ان يوفر لنا سيارة تعود بنا الى المنزل.

نفذ محمد الموصلي الامر. اعادتنا سيارة «دودج» رصاصية اللون الى دارتي في رقم ١٤ شارع ابو رمانة.

ـ ٥ ـ

ما كدت أدير المفتاح في الباب، حتى إحتدّ رنين الهاتف. كان الاعياء قد اخذ مني مأخذا. تهالكت على سماعة الهاتف. ما كدت ارفعها حتى علا صوتها:

ـ أين أنتما. ماذا حلّ بكما. ماذا فعل بكما هؤلاء الـ (. . .)؟!

تركتها تنهي آخر كلمة بذيئة. . . فأجبتها:

ـ لقد حصل خير. . لم نصب بسوء. لم يفعلوا بنا اي شيء. مجرد حديث.
عرفت من الحاح السيدة مَلَكْ ان نأتي اليها شغفها لمعرفة ما دار في مبنى الاركان العامة.

كانت تلوب في صالون المنزل مثل لبوة جريحة. صاحت بي حين شاهدتني:
ـ هذا الـ (. . .). حيدر الكزبري اقسم لعبدالحميد حين اصطحبه للاجتماع بهم في الاركان العامة ان لا يتعرضوا اليه بسوء. ان لا يؤذيه او يعتقله. وقد عرضوا عليه في الاركان ان يوفروا له الحماية والحراسة لو شاء ذلك. فما الذي غير فكرهم حتى بدأوا يفتشون عنه ويتعرضون الى انسبائه؟
نفرت عروق رقبتها. احمر وجهها حنقا:
ـ هل تعرضتم للتعذيب. هل ضربتما؟
سبقني خالد في الكلام:
ـ زمن التعذيب والضرب بالسياط قد ولى يا مَلَكْ فعندهم شربنا من القهوة حتى انتشت عروقنا ودخنا من السكاير ما ضاق له صدرنا. حتى انهم لم يسألوا عن عبدالحميد السراج بعدما عرفوا ان غسان عديله.
أحسست ان نظراتها تنسج خيوطا حولي. اختنقت بأفكارها. لم ترتح لكلام خالد.
ـ لماذا استدعوكما اذن؟
بقيت علامة الاستفهام مرتسمة في عينيها فبددتها:
ـ لم يعرفوا انني عديل عبدالحميد. ولما عرفوا صدقوا عدم معرفتي بمكان وجوده.
هدأت. عادت قسمات وجهها المشدودة تتمدد على وجهها. سألتها:
ـ هل جاء حيدر الكزبري الى هنا؟ متى اخذوه الى الاركان؟
قاطعتني. استرسلت بالكلام:
ـ اخذوه بعد ظهر اليوم الاول للانقلاب. جاء حيدر الكزبري بمصفحة الينا. صعد الى الدار. عانق عبدالحميد. طلب اليه مرافقته للاركان العامة. فقادة الانقلاب يرغبون في الاجتماع به. ما غاب طويلا. وقف الكزبري في وسط الصالون واقسم أمامي ان يداً لن تطال عبدالحميد وانهم اصروا عليه قبول حراسة للدار ولنا فرفض. فهو تقاعد وانصرف الى شؤون وهموم العائلة.
قطعت عليها تنهدها. سألت:
ـ لماذا ارسلوا بطلبه اذن؟
ضحكت. لعقت جرحها. تسترت بالزهو:
ـ استدعوه لاستمالته اليهم. فهوالوحيد بينهم العارف بادق تفاصيل النظام المصري الذي قام في دمشق. لقد أرادوا الافادة من معلوماته لمواجهة عبدالناصر

وعندما رفض عرضهم طلبوا منه عدم تحريك فلول «الاتحادالقومي» ضدهم وبعض الشارع الذي ما يزال يحابيه ويناصره.

انتشت بكلامها. استعادت تكابرها على الخيبة والسقوط. كنت أراها تتضاءل امامي. مكلومة. تعاند وجع الانكسار. الكل ابتعد عنها.تفرق من حولها. هي التي كانت سيدة البلاط. زوجة الوالي. الست مَلَكْ. اصبحت تنتظر من يدق بابها. من يفسح لها المجال للتكاثر على الخيبة والسقوط. وهو هارب. يطويه الليل. مكتوب اسمه على لوائح المطلوبين في المخافر. تُراه كان يشعر بشعور الهارب من ارهاب المخابرات؟

تمددت على السرير. انسحب التعب من مفاصلي. تركت الليل يدخل الى الغرفة.

الحقبة السراجية انتهت. كذلك الحقبة الناصرية. وقامت في بلاد الشام حقبة وطنية تحاول ان تعيد للانسان حريته وكرامته وفكره السليب.

تراجعت الافكار من رأسي. انسدلت ستارة سوداء امام عيني. نمت.

- ٦ -

«يا فتاح يا رزاق يا عليم». «لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم»...

مد صوته في البيت.

- ألم تسمع يا استاذ... ألم تسمع؟.

هز أجير اللحام رأسه وهو يضع بين يدي ما كانت طلبته زوجتي من ملحمة حي نوري باشا المتفرع عن حي أبي رمانة. وكأنه حمل اليّ سبقا صحافيا. قال بزهو ممزوج بالتفجع:

- لقد اعتقلوا عبدالحميد السراج. لقد اعتقلوا عبدالحميد بك!!!

امتلأت عينا الاجير بشيء من الدهشة. انتظر ردة فعلي. هزني من كتفي. رمى السلام. تركني في ذهول.

هرعت الى الراديو. ركزت ابرته على اذاعة دمشق. الساعة السابعة والربع. بدأت نشرة الاخبار. أول خبر فيها تصريح لناطق عسكري يعلن على ملايين السوريين ان سلطانهم الاحمر الذي تحكم برقابهم على مدى سنوات ست طويلة. أصبح سجينا في معتقل المزة الرهيب.

شعرت بحاجة الى الزعيق. الى دق ابواب الدمشقيين بابا... بابا. ان أقف في الساحات. ان أخبر من لم يصله الخبر بعد ان السراج في المزة... في المزة... في المزة.

تولاني شعور ممزوج بالفرح والريبة. السلطان في المزة. اريده ان يذوق العلقم

الذي اذاقه للآلاف طوال سنوات تحكمه وتسلطه. اريده ان يجلد كما جلد. ان يتـوجع كما أوجَع. ان يجافي جنبه السرير الخشبي المسوس في الزنزانة الرطبة من الضرب المبرح. هزتني زوجتي. منعت عني استرسالي في نشوتي العابرة. طلبت مني ان نذهب الى منزل السراج.

ـ اخذوه. . . اخذوه. . . هؤلاء الـ (. . .) اخذوه!

صرخت مَلَكْ في وجهي. كانت منكوشة الشعر. نظراتها تشع في عينيها تقدح شرراً. ذهبت منذ وصول خبر اعتقاله الى مبنى الاركان العامة. حاولت اقتحام الباب الحديدي الكبير. منعها الحرس. اداروا لها ظهورهم. تركوها تزعق مهددة متوعدة.

والسلطان منذ ان توارى التجأ الى منزل روشن بدرخان والدة اسيمة زوجة زهير زلفو شقيق مَلَكْ من أبيها. وروشن خانم، كانت تسكن في طابق ارضي بمنطقة الحواكير المطلة على نصب تمثال العقيد الشهيد عدنان المالكي. ولدارتها مدخلان واحـد رئيسي تنزل اليها منه وآخر فرعي يلامس طريقا فرعية. فوق دارتها كانت تقطن ابنتها اسيمة. فكان اختيار المكان ذكيا. فمن كان يخطر ببال من يداهم بيت زهير زلفو بحثا عن السراج ان السلطان الاحمر قد لجأ الى حرم سيدة مسنة تعيش وحيدة، محتميا؟!

وما فعله عسكر الشام ذاك اليوم انهم رصدوا المنطقة بكاملها. راقبوا بيتي وبيت الآغا علي زلفو. وبيت زهير زلفو على مدار الساعة. عرفوا ان في الشقة السفلى لدارة زهير تسكن حماته روشن خانم. فكيف تبقى ستائر الشبابيك محكمة الاغلاق دائما؟ ثم. . . ان اياما أربعة قد مرت لم تفتح فيها نافذة او يدخل او يخرج منها انسان. لذلـك قرروا ان يداهـموا الشقـة بعيد منتصف الليل التـاسع من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦١ وأوكلوا المهمة الى النقيب هشام عبد ربه الذي كان مساعدا للسراج قبل ان يترك الشعبة الثانية والاستخبارات ويلتحق بحرس الحدود مساعدا لحيدر الكزبري في قوات البادية.

★★★

خنقـوا محركـات عرباتهم الـ BTR . توزعوا على المفارق غرسوا بنادقهم بين البيوت المجاورة لبيت زهير زلفو. طوقوا المكان. انتظروا الاوامر.

ساورت النقيب هشام عبد ربه فكرة أن يصيح بالسراج من مكبر الصوت كي يسلم نفسه. ان يخرج رافع اليدين الى أعلى.

تراجع عن فكرته. أوامر القيادة كانت واضحة: القيام بالعملية من دون ضوضاء.

حمل مسدسه . رافقه جنديان . دق على الباب بمقبض المسدس . صرخ : افتحوا الباب .

فتح الباب . تراجع هشام عبد ربه خطوتين الى الوراء ساعة انتصب عبدالحميد السراج امامه بكامل اناقته . ادى النقيب له التحية . طلب منه ان يخرج رافع اليدين الى اعلى . استسلم السراج . نفذ . فتشه النقيب . مر باصابعه على صدره وخصره ورجليه . لم يجد معه سلاحا . مشى امامه . خلفهما مشى الجنديان الى العربة المصفحة . جلس عبد الحميد السراج واجما . صامتا . اكتفى بطلب السماح له باشعال سيكارة .

قطعت العربة المصفحة المسافة بين منطقة الحواكير في حي المهاجرين والبوابات الحديدية الضخمة لسجن المزة بنصف ساعة .

كانت العصافير تنفض اجنحتها من الليل التشريني والفجر يعد بنهار العاشر من تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٦١ . رمى «السلطان الاحمر» نظرة حزن تمرغت على بيوت دمشق الشيقة الجاثية تحت اقدام هضبة المزة . وقف برهات كأنه كان يخاطبها كما خاطبها هرقل امبراطور بيزنطية قبل ثلاثة عشر قرناً . «وداعا دمشق . . . وداعا لا لقاء بعده» .

شده عسكري من ذراعه وغاب في سجن المزة فلم يعد يرى عاصمة الامويين من يومها . !

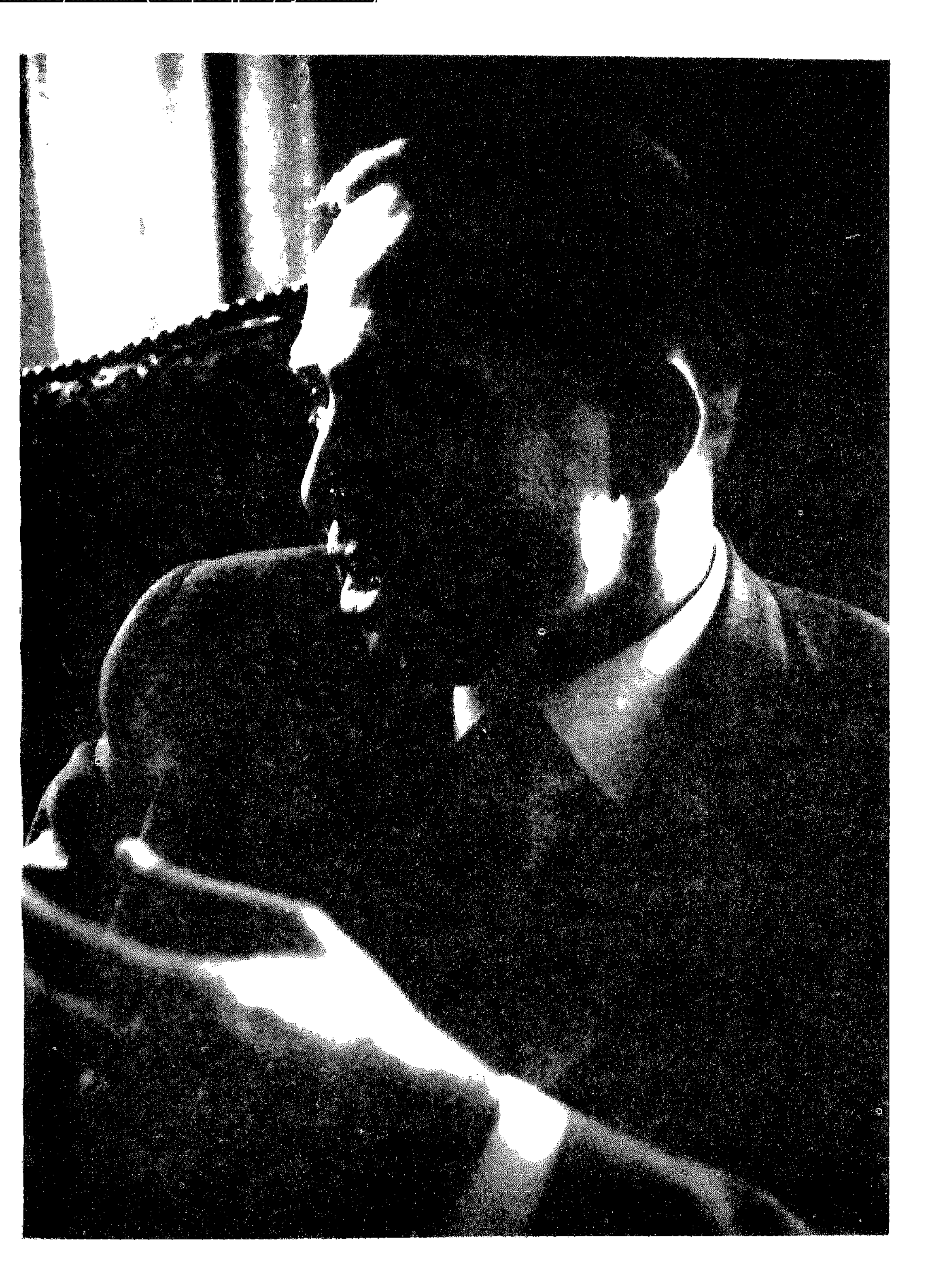




الفصل الخامس عشر

في حمى الريس

في حمى الريّس
بعدما ذاق الاعتقال
في «المزة»



- ١ -

امتلأت عينا مَلَك بشيء من الحزن، حاولت ان تخفيه عمّن كان يزورها ويسأل. كانت تغدرها تنهدات تطلع من صدرها مثقلة. يفضحها ذبول كان بدأ يتكمش في وجهها. خطوط سود كانت تتجمع تحت عينيها. تحركت دمعة على خدها لما رأتني. تنبهت الى ان تلك الدمعة قد جرّحت الكبرياء الذي حاولت التستر خلفه. محت دمعتها بابهامها. تغيّرت تفاصيل وجهها. نشرت عليه ملامح القوة. استعادت نفسا طويلا. احتويتها بنظرة عطف استرجعتها لما تلاطمت في مخيلتي صورها.. تذكرت يوم جئتها التمس للسيد ة جوليات المير [زوجة انطون سعاده مؤسس وزعيم الحزب السوري القومي الاجتماعي] التي كانت تعاني الامرين في سجنها. كيف اعرضت. كيف تصوّرت ان مَلَك قوة تعطيها الحق في ان تجلس على القمة... هاجمتني آلاف الوجوه المستغيثة المضرجة بالدماء. رأيتها تضحك. بقي وجه والدة عصام المحايري يتكمش في عيني. لقد جاء دور مَلَك كي تتحرق. كي تتلوع. كي تعرف ما معنى ان يسجن من تحب.

شعرت بأحساس يداهمني. احساس بالتشفي قاومته. تملكتني الرغبة في ان أصرخ في وجهها. ان اذكرها وهي في الهاوية اي نوع من النساء كانت وهي في القمة. نزل نظري عليها. رأيتها في تلك اللحظات تتضاءل. مكلومة. تعض على الجرح وتتلوى. فالايام التي تلت سجن زوجها لم تكن سهلة عليها. فهي لم تستطع ان ترى نفسها وحيدة. متروكة. لم تعد زوجة الوالي. لم تعد الست مَلَك التي يزحف الى بلاطها المريدون والمحاسيبَ والازلام.

أدارت فنجان القهوة بين أصابعها. ارتجف. دفنت بقاياه في جوفها. امتصت شفتها السفلى. رمت في عيني نظرة بان فيها ضعفها وارتباكها:

ـ أود لو تذهب معي غدا لنزور عبدالحميد في... السجن.

تجمعت كل شراستها في العبارة الاخيرة.

غالبت ابتسامة نشوانة حاولت التمدد على شفتي. كتمتها. ولكنني لم استطع

السيطرة على الشعور بالراحة الذي اجتاحني واستولى عليّ. كنت انتظر تلك اللحظة. ان أرى عبدالحميد السراج خلف القضبان. ان أراه ذليلا. مهانا. كما ذل وأهان الآلاف.

ظلت تلتفت اليّ لترى تأثير طلبها على وجهي. احسست بلسع نظراتها فردتني من نشوتي. تسارعت الكلمات على لساني:

- بكل تأكيد... بكل تأكيد...

أوشكت ان أنطق بكلام آخر يشفي غليلي. يُفهمها كم احتقر زوجها. كم أتمنى لو تنهال على ظهره السياط تشققه. تغرس في العظم. فيتذوق ما اذاقه للآلاف في غياهب سراديبه وغرف التعذيب. أحسست بالضيق. طفا على وجهي امتعاض شعرت به. فتحت عينيها على اتساعهما. نَاسَ فيهما البريق. ازدادت شراستها. تجمع الكلام في فمها:

- هل سمعت اذاعة «صوت العرب»... هل سمعت ما يقولون عن الـ (...) في الاركان العامة؟!

سكنت حركة يديها. انشغلت في تقليب صفحات جريدة «الاهرام». اصابعها كانت تفتش عن مقالة محمد حسنين هيكل. لم تجدها. نسيت. عادت وتذكرت. ليس اليوم ينشر هيكل مقاله الطويل. علكت الجريدة باصابعها. مسحت الحبر العالق بهما. شعرت برغبة أخرى للكلام.

كانت وهي تتكلم يقفز امامي وجه السراج وتتدافع الافكار في رأسي: فحتى ٢٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ كان «انفصاليا» كما درجت تسمية الحركة التحريرية التي قادتها مجموعة من الضباط الشباب. ويوم اعتقل عاد ناصريا وحدويا. وها هي زوجته تتعاطى مع الحركة العسكرية الانقلابية من موقع العودة الى الماضي والتمسك بحمى جمال عبدالناصر وبـ «الوحدة» التي كانت على عجرها وبجرها «مظهرا» عسكريا يواجه «اسرائيل»، لولا ان ضربها السراج قبل ان تقوم وبعدما قامت ويوم دُفع الى الاستقالة التي سببها سوء ادارته وانتهازية وقمعه.

مرت لحظات لم اسمع كلمة واحدة. كنت اكتفي بمراقبة حركات فمها. شغلتني افكاري عنها. ثملت بفكرة زيارة السلطان في سجن المزة.

لويت عنق السيكارة في صحن الدخان، وقفت. سكتت. فتشت عن الوقت في ساعة معصمها. حركت ابرة جهاز الراديو:

«صوت العرب من القاهرة... أكاذيب وحقائق»...

انتشت. لامس ظهرها ظهر المقعد بتثاقل. تولاها تحفز وضح في عينيها.

طلع صوت احمد سعيد. تركته يكذب عليها كما كذب على الملايين معها و... مشيت.

- ٢ -

مر الجندي على وجهي بسرعة. ابتسمت. عبس. ظللت ابتسم. كان الجندي الآخر يغرس اصابعه في سرة الملابس. ثم يحشر انفه في الاطعمة. وقفت يرقص الغضب في عينيها. لم تنبس بكلمة. تكتمت غيظا. تملت الجندي جيدا. رافقت حركات يديه بعينيها. ارتاحت ملامح الجندي لمّا لم يجد ما يفتش عنه. شعر انه تمادى في تصرفاته. لملم الملابس وحشرها في السرة ثم عاد يغطي الاطعمة. ابتعد عن الطاولة. أومأ الجندي الآخر. مشى. تبعناه. لملمنا الخطوات خلفه. أدخلنا غرفة صغيرة في وسطها طاولة خشبية مستطيلة. على جانبيها اربعة كراس. اومأ مرة ثانية. اشار الى الكراسي. جلسنا. ابتسمتُ له. عبس. ظللت ابتسم. خرج. أغلق الباب. تركنا ننتظر.

كفّت مَلَكْ عن سعالها. دارت نظراتها على الغرفة: حيطان مشققة. عارية. علقت نظرها على شريط كهربائي مجدول في آخره لمبة كهربائية كانت تولد ضوءا يكابد ليخرج من زجاجها الوسخ الذي يغطيه الغبار بطبقات سميكة.

تمسكت بانفي رائحة عفونة نتنة. شعرت ببرودة عجيبة تسربت الى مفاصلي. وقفت أطردها من اصابع قدمي. مشيت. بقيت هامدة. مذهولة. فضحت حركة اصابعها على الطاولة عصبيتها. بين الفينة والفينة كان نظرها يتجمع هنيهات على الباب بلهفة. تنتظر ان يفتح. ان يطل منه عليها. ضاقت ذرعا من الانتظار. ثقل نفسُها على صدرها. علت وتيرة صوتها. وقفت. همّت بفتح الباب. رددتها عنه. فركت الهواء بيديها. عادت الى الكرسي. دفنت رأسها بين كفيها. أحسستُ بحاجة ملحاحة للخروج من تلك الغرفة. الضوء الشحيح المتنسل من اللمبة بدأ يضغط على اعصابي. فكرت مرارا ان أشق الباب. ان أنادي الجندي. وقفت امام الباب. هيأت على شفتي ابتسامة. مددت يدي على مقبض الباب. سمعت حركة غريبة. دعسات تقترب من الباب. تنبهت لها مَلَكْ. رفعت رأسها. حولت نظرها الى الباب. ابتعدت عنه. رجعت خطوات الى الوراء. لم يترك نظري قبضة الباب. رأيتها تتحرك على مهل. فتح الباب فمه العريض. دخل ضابط أظنه «ملازم اول». بعد لحظات دخل عبدالحميد السراج. تبعه عريف. اغلق الباب بحركة عصبية.

وقف قبالتها. همدت. شلت حركة قدميها. ابتسم. حول نظره عنها بسرعة. رماه على وجهي. طافت الدهشة على ملامحه. تكمشت فيها. رسم الامتعاض شكلا غريبا في عينيه. تحول الى غيظ، كأنه ادرك فرحي برؤيته في ذلك المعتقل الذي حاول ان يدفن فيه احرار الامة طوال سنوات ست. تيقظ. تلامحت على

شفتيه ابتسامة صفراء. بادلته بمثلها. همس. لم أفهم. سحت بعيني على وجهه. هوذا السلطان امامي، آتيا من زنزانته. شاحب الوجه. عيناه تدوران في محجريهما بعياء ظاهر. الشرايين الدقيقة الحمراء أزاحت بياضهما. ترك عدم النوم مساحة سوداء حولهما. اخترقت مسام جلد وجنتيه شعيرات سوداء اطلت من بينها أخرى بيضاء. كان ما يزال يرتدي البدلة التي لبسها ليلة اعتقاله من منزل روشن خانم بدرخان، تفوح منها رائحة عرق كريهة. قميصه متسخ.

جلس بتكاسل امامها. لم تلح في عينيه اي بارقة حب. حاولتُ أن افتش في مساحة وجهه عن امارات الانفعال. عن شعور قد يرتسم على محياه. فوجدته شاحبا، باردا، بليدا. لم تحركه دمعة حزن طافت في عينيها. ولا هزه حديثها عن أولاده. بقي هامدا، ساهيا، يهز برأسه.

أمسكت وجهه بعيني من جديد، لم أرَ فيه ذلك الديكتاتور الذي حكم بالحديد والنار وبنظام الاقبية والسراديب ستة ملايين سوري على مدى سنوات ست، بدا لي خانعا، هادئا، مطأطأ الرأس. كأنه استسلم للقضاء والقدر، كما يستسلم له عادة المؤمن المتدين. هو الذي لم أسمع أنه قرأ من آيات الله البينات. او واظب على صلاة. فالمرات التي أم فيها الجامع للصلاة كانت لشؤون رسمية. صلاة العيدين، او صلاة ترافق ضيفا زائرا الى عاصمة الاقليم الشمالي. ولا اذكر اني رأيت في منزله نسخة من القرآن او الانجيل، فآخر ما كان يعنيه ان يقرأ ويتعظ.

اذكر جيدا، ان توفيق الحبوباتي، وقف مرة في صيف عام ١٩٦٠ على شرفة منزله الصيفي في بلودان والى جانبه عبدالحميد السراج، وكنت انا ثالثهما. فقال الحبوباتي بزهو موجها كلامه الى السلطان الاحمر:

- لقد نورناه يا ابا فراس.

تمهل عبدالحميد السراج ثم همس:

- ماذا نورتم يا ابا محمد؟!

قطب الحبوباتي. رمى كلامه بانزعاج:

- ولو... ولو يا ابا فراس. الجامع. نورنا الجامع.

وأشار الى لون «نيون» أخضر يشع من مئذنة جامع بلودان. ثم نقل اشارته الى قبة كنيسة بلودان للروم الارثوذكس واكمل:

- نوّروها فنورناه...

احتوى عبد الحميد السراج كل حماسة الحبوباتي. علكَ كلامه علكا:

- آه... آه... برافو... برافو يا ابا محمد.

واعطى ظهره للجامع وللكنيسة و. . . غير الحديث.

لم يعذبوه اذن. . . تمتمت بسري. وأنا أهدهد نظري في ملامح وجهه أبحث عن اثر لكمة وفي يديه عن عضة سوط. . . لم يعامل إذن كما عامل اسراه من القوميين الاجتماعيين والشيوعيين والبعثيين الاشتراكيين والمستقلين الذين سقطوا في قبضته وتحت آلة تعذيبه الرهيبة. لم «يشبح» الى السقف اياما بلا نوم ولا اكل وشرب، كما شُبِحَ عبدالمنعم دبوسي. لم يغطس عاريا في براميل المازوت بعد حفلة تعذيب دامية، كما فعل ببديع مخلوف، قبل ان يعدم الاثنين في منطقة ام الشراطيط القريبة من بلدة سعسع في الجولان.

لم تلسعه تيارات الكهرباء كما لسعت كامل حسان، (عميد الداخلية في الحزب السوري القومي الاجتماعي)، الذي كان يشكو من مرض الربو في صدره. لم يضرب بالفلق ليغمى عليه كما فعلوا بفؤاد جديد، (شقيق غسان وصلاح جديد)، لم يركع ليل نهار في زنزانة مراحيضها فيها كذلك الجرذ والفئران. لم تمر سكين الجلاد على اظفاره تقتلعها، ولا السياط على جلده تشققه: تفسخ الجلد عن اللحم وتكسر العظم. . .

وضعوه في زنزانة كبيرة.تركوه يستمع الى الراديو فينقل اليه أخبار الابتهاج والتأييد بعدما استتب الامن والاطمئنان للحركة الانقلابية التحريرية.

ارجعني صوت مَلَكْ . سحبني من بئر افكاري. اعطته ما حملته له من ملابس ومآكل. انتشلها العريف عن الطاولة بحركة عصبية.

ـ خلصت الزيارة. . .

تغرغر الضابط بعبارته. وقف عبدالحميد السراج . مشى. بكت. لحقت به الى الباب. تكلم الصنم قال بثقة:

ـ بسيطة. . . بسيطة. . . فليطمئن قلبك ليست القضية كبيرة. . .

لسعتني نظرة افلتت من عينيه بغضب. ابتسم:

ـ خلي بالك. . .

وسكت. لم يكمل . كأنه ندم انه فتح فمه. بلع الكلام مع ريقه. تجاسرت ابتسامة وسرت على شفتيه:

ـ طمن بالك. . . طمن بالك.

رددت. هز برأسه و. . . غاب مع الضابط والعريف في البهو الكبير المؤدي الى زنزانته.

- ٣ -

فتحت باب الشرفة. زحفت الاصوات الهادرة في الشارع. انتشت.

- إسمعوا. . . اسمعوا صوت الشعب الهادر.

«ايتها المرأة المنكسرة. انها الحرية التي استردها الشعب. انها الديمقراطية عادت الى الشام». . .

تمتمت بسري وانا امرجح نظري عليها. اكتفت زوجتي بهز رأسها.

كانت الأيام تمر بطيئة. تحمل كل يوم مزيدا من الديمقراطية للسوريين. ومزيدا من الحريات التي افتقدوها من يوم اغتيال عدنان المالكي إلى يوم اعتقال عبدالحميد السراج. لقد افسح مناخ الحرية والديمقراطية المجال أمام اللذين حرموا من حق التظاهر والتعبير عن الرأي وحق الرفض والاعتراض على سلطة الحاكم طوال فترة حكم السراج. وكانوا من مؤيدي «الوحدة» ومن فلول «الاتحاد القومي» الذين جندهم السراج ليصبحوا نوابا عن الاقليم الشمالي في القاهرة. إلى النزول إلى الشوارع والتعبير عن آرائهم.

ردت مَلَك باب الشرفة. كانت الأصوات ترتطم بزجاجها وترتد. أبصرت ضيقا في وجهها. حطت نظرة متثاقلة على وجهي:

- لقد جاء من اخبرني ان صديقك المحامي عمر الرباط هو المحقق العسكري الذي كلفته قيادة العسكر التحقيق مع عبدالحميد. . .

سكتت. أخذت نفسا طويلا. طردت دمعات كانت تلتمع في بياض عينيها. استردت بعض تكابرها. علا صوتها:

- ما رأيكما بزيارته؟ في النهاية هو صديقكما. . .

سألت. لململت تعجبا مر على وجهي:

- مجرد استفسار. مجرد حديث. أريد أن أعرف ماذا يجري. قد يحكي لكما بحكم الصداقة. لقد أوصدوا كل الأبواب في وجهي. وليس عندي من اتكل عليه سواكما.

ترددت. مشت نظرة توسل من عيني زوجتي على وجهي. فكرت بسري بسرعة:

«انها قد تكون فرحة لمعرفة حقيقة ما يجري. . . اغتنمها يا رجل». . .

- في اي شارع مكتبه؟ . . .

طفت على وجهها علامات الارتياح. انهمكت في التفتيش عن ورقة صغيرة بين كومة الأوراق المبعثرة على طاولة الدخان. سحبتها. تلعثمت. وضعتها بين يدي.

مكتبه في شارع ضيق متفرع عن شارع النصر خلف قصر العدل. وعمر الرباط كان يؤدي خدمة العلم، يعمل في ساعات الصباح ضابط احتياط في الجيش وبعد الظهر محاميا. . .

استسلمنا للشارع المترنح على أصوات المتظاهرين. اليافطات كانت مرشوشة في كل مكان. زهقت من قراءتها. لكل عهد يافطة. نحن شعب لا يتقن الا كتابة الشعارات على اليافطات. دس أحد المتظاهرين في يدي بيانا كان يوزعه على المارة: «الاتحاد القومي طليعة قوى الشعب العامل»!! هراء. عجنت البيان بين اصابعي. شدت زوجتي على يدي. سكتت.

من بين مئات الوجوه، حط نظري على وجهه. كان على رأس المتظاهرين. يشبك ذراعيه بذراعي نائبين سابقين في «الاتحاد القومي». بدا لي وجهه أليفا. همست لزوجتي:

ـ أليس هذا عصام الدالاتي؟

هزت برأسها. ارجعني وجهه سنوات الى الوراء. لقد اضاع هذا الرجل بعض ثروته الطائلة على انتمائه وتبعيته لفيصل العسلي التعاوني الاشتراكي، الذي زرع لسنتين [١٩٤٨ ـ ١٩٤٩] شوارع دمشق رعبا وارهابا قبل ان يرمي به حسني الزعيم في السجن. كان مناصرو فيصل العسلي يعتدون على الناس اذا لم يخلوا الطريق ليمر موكب «زعيمهم». كما عاد عصام الدالاتي وأضاع ما تبقى من ثروته على المطربة اللبنانية نجاح سلام، التي أحبها واحبته. فاختفت اسبوعا كاملا، قيل يومها ان عصام الدالاتي قد خطفها ليعقد قرانه عليها.

عصام الدالاتي، التعاوني الاشتراكي، صار اليوم منفيا في الاسكندرية، اضطر بعدما قمع فيصل العسلي والغى حزبه وتشتت المناصرون من جوله، ان يبيع الثلاجات وافران الغاز في شارع الفردوس. جاءني مرارا يتوسلني لاعرفه على السلطان الاحمر، وعندما عرف ان مَلَك تؤثث منزلا صادره زوجها من الثري الكويتي كما صادرت هي اثاث النقيب مصطفى كمال المالكي [كما مر معنا] وضع ما تحتويه مؤسسته التجارية بتصرف الست مَلَك، علها توصله إلى الوالي صاحب الأمر والنهي، شأنه في ذلك شأن كل انتهازي اقترب من السراج وكل سراج في كل أوان وعصر ومكان...

بقيت هامدا. غاب عني وجهه. شدتني زوجتي من ذراعي. مشينا. تركت خلفي عصام الدالاتي يهتف للوحدة والاشتراكية...

★★★

بيني وبين عمر الرباط مودة. كان محاميا طماحا، مثقفا ثقافة لا تبرّج فيها ولا زيف. يسعى الى بريق شهرة بين اترابه. هادىء الملامح وسيمها. دمث الاخلاق لينّ العريكة.

عرف لماذا جئنا. ابتسم. قال:

ـ انتم هنا لسؤالي عن عبدالحميد السراج.

لم اترك له مجالا ليزيد. كانت لهفتي لمعرفة مصير السلطان الأحمر لا توصف:
ـ هل سيبقى طويلا في سجن المزة؟
جاء سؤالي فاترا. ابتسم. فهم سؤالي على غير محله. على انه حرص على عبد الحميد السراج وخوف:
ـ اطمئن. . . اطمئن. لا اعتقد أنه سيبقى في المزة طويلا. . .
نزل كلامه عليّ مثل الصاعقة. أحسست بالامتعاض يتآكل احشائي. هاجمتني رغبة فاحشة في الصراخ بوجهه: «لن يبقى طويلا. . . سيخرج من دون محاكمة؟».

تصنعت الاهتمام. تابع كلامه. لم أفهم اي كلمة. كان ذهني شاردا مع افكاري. شعرت بالخيبة تعتصرني. كنت انتظر ان اسمع من المحقق العسكري كلاما آخر، من نوع ان التحقيق قد انتهى وقرار الاتهام يعد وجلسة المحاكمة الأولى ستكون بعد اسبوع. بعد اسبوعين. . . كنت اطمح ان يعود القانون يتحكم بمصير الموقوفين والمعتقلين من أصحاب الرأي والفكر والفعل السياسي. كنت أتوق إلى يوم تعود فيه سلطة القانون بين الناس. كنت أنام في الليل خلال الحقبة السراجية وانا أطلب ان يقرب الله الصبح الذي نسمع تباشيره فلا يخاف فيه مواطن من التعبير عن رأيه وفكره. ولا سياسي من البوح بمخططه وعقيدته. لحظات شعرت ان العهد الانقلابي الجديد لا زال يعتمد أساليب عبدالحميد السراج. لا زال يوقف الناس بلا مذكرات توقيف. بلا غطاء قانوني يضمن حرياتهم وامنهم. توجست ريبة. ان شيئا ما يعد. . . لست أعرفه.

زنت افكاري. ليس السراج من أصحاب الفكر والعقيدة والمبادىء. كان دركيا يحرس «البحسيتا» ثم عسكريا انتهازيا. عرف كيف يتسرب عبر تقاطعات الحياة السورية في خمسينات هذا القرن، الى مواقع السلطة. فيسخر بعض ضعفاء النفوس وعبدة المناصب مثله لمآربه فيحكم ويحكمون معه. يقمع الشعب السوري ويدمر أمنه وثقافته واقتصاده وحريته وديمقراطيته.

لم ادخل عليه يوما في دارته ووجدت بين يديه كتابا. لم اسمع زوجته تقول لي انه معتكف في غرفة مكتبه بمنزله يكتب خطابا او يرد على رسالة. كان اميا كأكثر عساكر العالم الثالث. اميته ضيقت افق تفكيره حتى بات واحدا ممن قرعوا بوابات الاحزاب العقائدية يحتمي بها.
ـ اليس كذلك. . . يا غسان.

سمعت عمر الرباط يلفظ اسمي. تيقظت، منع عني صوته الغرق في افكاري. انتشلتني لحظات. اجبته بسرعة من دون ان افهم السؤال:
ـ بكل تأكيد. . . صحيح. . . صحيح.

عاد الى الكلام ، وعدت الى التيه.

«يخرج من دون محاكمة. ؟ رددت في سري. ذلك الأمي الظالم. تذكرت. مرة عندما كان ما يزال مرافقا لاديب الشيشكلي التقى عصام المحايري في نادي مطار المزة. فاقترب منه واسر في اذنه:

- يا استاذ عصام. تعرفت على زعيم حركتكم. خلبني. اردت الدخول الى حزبكم فلم أوفق.

ذكّر عصام المحايري السراج بهذه الحادثة أمام اكرم الديري وبهجت مسوتي في احدى ليالي التحقيق والتعذيب معه في سجن «المزة». فاذا بالسلطان الاحمر ينتفض غضبا. ينهال على عصام المحايري قذفاً وقدحاً يطلب منه ان يغادر غرفة التحقيق ويتجه الى بوابة السجن الحديدية الضخمة فيفتحها ويخرج منها الى الحرية شريطة ان لا يبقى ليلة واحدة في دمشق.

رمقه عصام المحايري بنظرة عجلى. ابتسم. ثم حول نظره على وجهي اكرم الديري وبهجت مسوتي وقال:

- انني هنا في حماكم مرتاح البال. أنا بريء من كل التهم التي ذكرت امامي اثناء التحقيق. ولا أظن ان الحاجة تستدعي مغادرتكم. . .

سقط السراج في الخيبة. بقي صامتا. لقد كان ينتظر ان يخرج عصام المحايري. ان يصل الى بوابة السجن الحديدية فيطلق الحراس النار عليه من الخلف. وفي الصباح يعلن، كما جرت العادة، ان عصام المحايري قتل وهو يحاول الهروب من السجن. . . وهو ما عاد وجرى في لبنان عام ١٩٦٢ حيث قتل ٣١ قومياً سورياً اجتماعياً بحجة «محاولة الهرب».

التقطت عبارته فجأة وهو يتحدث الى زوجتي:

- انه بريء. بريء من دم سورية. انه لم يسرق. لم يرتكب معصية او أمرا أداً قاطعته ، تجمع الغضب في كلامي:

- بريء . بريء. السراج بريء من دم سورية والسوريين هكذا تقول. اذن. . . لماذا حرصتم على تعقبه؟ لماذا ألقيتم القبض عليه؟ لماذا هو الآن في سجن المزة العسكري؟

جاء جوابه بسيطا. ساذجا.

- لنمنعه من تحريك بعض الشارع الدمشقي ضد الحركة الانقلابية. . الانقلابية. .

التمعت عينا عمر الرباط. انهى حديثه بابتسامة عريضة تركها تتربع بين شفتيه. طار صوابي. ماذا عن سنوات حكمه الست؟ ماذا عن سراديبه وأقبيته؟ ماذا عن تآمره في صيف الدم اللبناني عام ١٩٥٨ وفي الاردن والعراق؟ . . . بريء. بريء.

لن يبقى طويلا في المزة . لن يدخل محكمة . لن تفتح ملفاته .

مددت له يدي . ضغط عليها . لم انبس ببنت شفة . اكتفيت برسم ابتسامة مجاملة . خرجنا .

- ٤ -

لم أتكلم حتى لا يفضح الكلام ما يعتمر في صدري . تركت زوجتي تشرح لها وتشرح قلبها . انه سيعود اليها . لم تمسه يد . ظننت ان الكلمات التي كانت تتزاحم بين شفتي زوجتي قد دفأت جسدها المرتعش . لكنني وجدتها تزداد ارتعاشا واضطرابا توتر صوتها :

- انه يكذب . عمر الرباط كذب عليكما . . .

تنبهت . فتحت عيني على اتساعهما . اطلقت سؤالا خرج عنيفا :

- يكذب علينا؟ لماذا . . . لم يكذب عليّ من قبل ثم انه . . .

لم تدعني اكمل . خطفت الكلام مني . ازداد توتر صوتها :

- عبدالحميد السراج لن يخرج من المزة حيا . . . لن يخرج حيا . . .

لطمت خديها . ساد صمت بليد . صدقتها . فهي كانت تعرف خبايا وخفايا زوجها اكثر مني . انها شريكته في البيت، كما كانت شريكته في الشأن السياسي . اسراره عندها . كان ضعيفا امامها او هكذا كان يتظاهر امام الناس وامامنا .

- انهم سيقتلون عبدالحميد . وسيعلنون في اليوم التالي انه انتحر . او انه حاول الهرب من السجن : انهم يخافون ان يفتح ملفاتهم . ان يكشف اتصالاتهم وارتباطاتهم الخارجية .

شدني كلامها . اردت الاستزادة ، غمست اصبعي في جرحها . اوجعتها . سألتها سؤالا سخيفا . انتفضت . حرضتها على الكلام . حكت :

- ماذا يعرف . . . ماذا يعرف تقول لي . انه يا استاذ يعرف عنهم كل شيء . حيدر الكزبري عميل للاردن ، عبدالكريم النحلاوي عميل للاميركان . موفق عصاصة شوهد مرارا يخرج من السفارة البريطانية . كلهم عملاء . ملوثون . اما ملفاتهم فمعروفة وجاهزة في ادراج عبدالحميد . لذلك لا أثق بما قاله لكما عمر الرباط . كذب عليكما . اخفى عنكما حقيقة ما يدور . انهم يرتبون خطة لتصفيته .

- البعثيون معه . . .

رميت السؤال على عواهنه . التقطته :

- البعثيون صاروا اجنحة . اكرم الحوراني ايد الانفصال . ميشال عفلق وصلاح الدين البيطار اعادا اصدار جريدة «البعث» ، ليهاجما الانقلاب والانفصال .

كأني لا اعرف . رميت نظرة على نسخة جريدة «البعث» ، غريب . اصبح ميشال

عفلق يدافع عن الـذين حجبـوا جريدتـه ومنعوا عنه الكلام واودعوا انصاره في السجون. وصلاح الدين البيطار اصبح ينكر على الدكتور مأمون الكزبري ، الذي اعاد له الحرية، الحق بالحكم وبالاستقلال عن الهيمنة المصرية! لم يحاول البيطار وعفلق مرة واحدة ان يناقشا قيمة الحرية الصحافية والسياسية التي منحها لهما حكـم مأمـون الكـزبـري. لم يقـولا للسوريين لماذا فجأة يؤيدان نظاما قمعيا كانا أولى ضحاياه. فجأة غفر عفلق والبيطار ذنوب السراج وخطاياه. غضا الطرف عن القمع والارهاب والاضطهاد. بررا مع من جاراهم في رومانسيتهم في البعث ان لا القمع ولا الارهـاب ولا التسلط. . . من الاسبـاب التي يجب ان تقضي على «الوحدة» وتؤدي الى الكيانية السورية. . .

ـ اذا تخلى عنه الجميع . عبدالناصر لن يتخلى.

عدت اغمس اصبعي في الجرح. أزبدت وأرعدت. انهالت بالشتائم على محمد حسنين هيكل. يومها خصص مقاله «بصراحة» عن عبد الحميد السراج، لم يتهمه بالقضاء على «الوحدة» فقط، بل بكل المساوىء والتجاوزات التي ارتكبها في الشام قبل دخول مصر.

لقد كان مقال محمد حسنين هيكل وثيقة اتهام واضحة وصريحة.[1] لو قدمت هذه الايام لاية محكمة عرفية او مدنية لادانت عبدالحميد السراج . ولكانت جعلت منه عبرة للمغامرين من عسكر ومدنيين في ان لا يتجاوزوا القانون ويطعنوا الدستور ويقتلوا الحرية ويذبحوا الديمقراطية ويحولوا البلاد الى مزرعة والناس الى عبيد.

فقدت السيطرة على لسانها. انتابتها موجة غضب. ما عدت سمعت. تلهيت في قراءة مقـال هيكـل. هل ما جاء في المقـال كان خافيا من قبـل على جمال عبدالناصر؟. ام... انه الآن حان زمن نشره؟!

حانت مني التفاتة على وجه ملك. رأيتها تدير بلهفة ابرة الراديو. تفتش عن صوت احمد سعيد في «صوت العرب» تفتش عن. . . عبدالناصر.

ـ ٥ ـ

قتلوه. . . قتلوه. . .

اختنق صوت مَلَكْ بالتـأثـر . تموجت المشـاعر في نفسي. همدت. صعقت. سمرت عيني عليها. اثارت فيّ الرغبة بالزعيق. تناولتها من ذراعيها. رفعتها عن الكرسي. هززتها. عادت الى صوابها. رنت كلماتها في اذني: «قتلوه. . . قتلوه». تلاشت. احتست بقية كوب الماء دفعة واحدة. هززتها مرة ثانية وانا اسألها:

ـ ماذا جرى؟ من نقل الخبر اليك؟

استردت انفاسها. تدافعت الكلمات من بين شفتيها:

ـ هو. مدير سجن المزة.

ـ كيف. . . كيف؟

امتصت شفتها السفلى اليابسة. رطبتها بريقها:

ـ حوالي الثالثة صباحا، اتصل بي شخص اغلب الظن انه مدير السجن. سألني ان كان عبد الحميد قد لجأ الى البيت. فلقد فر من السجن.

عاد الغضب يزحف الى ملامح وجهها. ضيّعت الكلام. استردته:

ـ لم أعرف بماذا أجبته. تصورت عبدالحميد جثة هامدة امامي. انهلت عليه بالسباب والشتائم. هددته بأن أثير الفضائح في الاركان العامة ان لم يعد عبدالحميد. قتلوه.. لقد قلت لك انهم سيفعلون.

«هرب. . . هرب» شعرت بالضيق. كدت اختنق بافكاري، ان كان افلت من قبضة الشعب فلن يفلت من قبضة التاريخ. هدهدت هذه الفكرة في رأسي.

اجترت الساعة الوقت. مر متثاقلا. بطيئا. بليدا. اذاعة دمشق كانت تكرر في مطلع نشراتها الاخبارية خبر هروب السراج من سجن المزة. في نشرة المساء ذكرت ان الرقيب منصور الرواشدة سهل هربه وفر معه.

من وراء الرواشدة؟ من هرب السراج؟

طافت الاسئلة في رأسي: من له مصلحة بتهريب السراج. قفز عبدالناصر امامي.

«عملها الريّس». . . تمتمت بسري. فأسرار صاحب مصر في ملفات السراج. فلقد كان السلطان الاحمر ذراعه الضاربة. يوزع له الاوامر على الاعوان والازلام والعملاء والمحاسيب داخل الانظمة العربية. بقاء السراج في السجن او احالته على المحكمة يعني فتح ملف عبدالناصر. يعني ان الريس سيقف في قفص الاتهام. وبين قادة الانقلاب من كان يواطىء الضباط مع عبد الناصر. فسهل فرار السراج.

★★★

قبل أسبوع من هربه. وصل مدير الاستخبارات الاردنية بشكل سري الى دمشق. فلقد كان مدير استخبارات الحسين بن طلال ناصري الميول عميلا مزدوجا عند عبدالناصر والسراج. حضر الى دمشق ومعه تعليمات من القاهرة لتحضير هرب السراج. اعد مدير الاستخبارات الاردنية العدة. جند الرقيب منصور الرواشدة، الذي كان رئيسا للحرس في سجن المزة، لتنفيذ المهمة. فتمكن من الاتصال بالسراج. وكشف له عن هويته وما يخطط.

في اليوم المحدد. قام منصور الرواشدة بتغيير مناوبته في السجن مع زميل له. احضر بزة عسكرية برتبة رقيب: سربها الى زنزانة السراج كي يرتديها. بعدها صرف العسكري المكلف بالحراسة من امام مكتبه. فتح باب الزنزانة. اخرج السراج

منهـا، حامـلا بطانية تحت ابـطه . مشى خلف الرواشدة. فتحت بوابة الحديد الغليظة. تصنع منصور الرواشدة انه يمازح عبدالحميد السراج . ضحك. ضحك «السلطان الاحمر».

نزع السراج الرتبة العسكرية عن ذراعيه. خلع قبعته. طمرها في حفرة لكي يبعد الشكوك عنه والشبهات ان شاهده احد الحراس وهو برتبة رقيب.

فالبزة العسكرية العادية لا تثير في العادة تحفز الحرس.

أخذ السراج يرمي البطانية. مشيا عليها. ثم يعود يسحبها من جديد ويرميها أمـامهـا. لاخفـاء آثار دعساتهما على الدرب الترابية. ظلا هكذا حتى وصلا الى سيارة منصور الرواشدة وكان قد تركها في ساحة قرب السجن.

نهبت دواليب السيارة الطريق نهبا. كان منصور الرواشدة عند الحواجز يفتح نافذة السيارة. يرمي على الحرس كلمة السر ويمشي. اختفيا في سفح جبل المزة. كانت سيارة أخـرى تنتظرهما. رتبتها الاستخبارت الاردنية. اخترقت بهما الحدود الى . . . لبنان.

كانت الاستخبارات المصرية في بيروت قد اعدت العدة. كمال جنبلاط تلقى مع السفير المصري عبدالحميد غالب رسالة من «الريس» لمساعدة السراج على الهرب من لبنـان. الزعيم الاشـتراكي أخفى السراج في حماه ومعـاقله ببت الدين وفي المختارة، الى ان نقلته باخرة مصرية الى الاسكندرية. فأصبح «السلطان الاحمر» في حمى الريّس. . .

---

(١) ـ راجع نص مقال هيكل في فصل «شهود وشهادات»



شهادات وشهود



الانفصال

ورواية صلاح نصر

منذ البداية كان الانفصال هو القدر المحتوم الذي ستؤول اليه الوحدة بين دمشق والقاهرة.

فلقد كانت مولودا غير طبيعي قفز فوق حقائق الجغرافية والتاريخ وعلم السياسة والاجتماع.. لذلك عندما حدث الانفصال في ايلول (سبتمبر) عام ١٩٦١ لم يكن مفاجئا الا بالنسبة الى «الرومانسيين» الذين كانوا يحكمون على ظواهر الامور دون الغوص في أعماقها وخلفياتها.

بل ان الانفصال لم يكن مفاجئا حتى «للسلطان الاحمر» نفسه.

من كتاب «عبدالناصر وتجربة الوحدة» نترك صلاح نصر، رئيس الاستخبارات المصرية، والشاهد على الاحداث يروي حكاية الانفصال:

كان تشكيل الحكومة الواحدة في (آب) اغسطس من عام ١٩٦١، يهدف الى معالجة الاوضاع المضطربة التي سادت سورية في السنة الاخيرة، والتي بلغت ذروتها عقب اعلان القرارات الاشتراكية، والتي استغلت في سورية لتدعيم الجو المعادي للوحدة، وتصبغ عليها صبغة السيطرة المصرية على سورية، والتي لا تعامل على أساس التكافؤ مع الاقليم المصري.

والواقع ان تشكيل الحكومة هذه لم يساعد على ما كان يهدف اليه، ذلك لأن غالبية الاعضاء السوريين في هذه الحكومة، لم يكونوا مرتاحين لاوضاعهم في التشكيل الجديد، فمعظمهم كانوا يتصورون ان العملية تحوي عناصر كي تقلص سلطتهم، وتهيىء لاخراجهم من الحكم.

وكان السراج اكثر الافراد شعورا بهذا التصور، لذلك كان الوزراء السوريون

وخاصة العسكريون، يعلنون في سورية سخطهم على أوضاعهم، وعلى هذا التشكيل الذي أجرته القاهرة.

كانت أجواء سورية مهيأة لمثل هذاالمناخ، كما كانت القوى العديدة المتحركة ضد الوحدة ترحب بما يعبر عنه أعضاء الحكومة من عدم الرضا.

وخلال شهر سبتمبر (ايلول) ١٩٦١، عاد السراج من القاهرة الى دمشق وحرض ضباطه على الامتناع عن تنفيذ أوامر نقلهم الى القاهرة وقامت تشكيلات الاتحاد القومي بايعاز من السراج باطلاق موجات من التذمر من القاهرة ومن مسلكها مع سورية، حتى ان هذه الاجهزة تناولت عبدالناصر بالذات بالتجريح، واتهمته بالتنكر للمخلصين اليه من أمثال السراج.

وكان لا مفر في هذه الفترة من ان يقوم المشير عامر بالرد على تحركات السراج، ومحاولة توضيح الامور لكثير من الاوساط التي تأثرت بالشائعات.

كما انهمكت مخابرات الجيش بالالتفاف على محاولات التشويش التي كانت تغذيها أجهزة السراج والاتحاد القومي السوري. والى معالجة الفوضى السائدة في دمشق نتيجة محاولة اضراب المخابز، واضراب وسائل النقل الداخلي، ومحاولة اثارة بعض فئات العمال، ودفع بعض العناصر للقيام بالمظاهرات. وقد اشترك في هذا النشاط الشيوعيون والسوريون يدعمهم الاتحاد القومي السوري.

والواقع ان هذه الفترة المضطربة كانت فرصة لا تعوض سنحت للتنظيمات السرية القائمة في الجيش، كي تنشط بعيدة عن الرقابة، وتقوم باعداد نفسها لتنفيذ الانفصال.

وحقيقة كانت أجهزة الدولة في سورية في شلل تام. حينما تحركت القوات المسلحة السورية للاستيلاء على السلطة وتنفيذ الانفصال.

على أننا كي نعرف نشاط البعث في تلك الفترة، ينبغي ان نعود الى الوراء، الى اوائل عام ١٩٦٠ بعد استقالة وزراء البعث من حكم الوحدة. حيث تعذرت اللقاءات العلنية في سورية بين البعثيين القدامى الذين كانوا مبعثرين منذ سنوات، فعمدوا الى النشاط السري، حيث بدأ أكرم الحوراني نشاطه السري ضد حكم الوحدة استنادا الى المجموعات القديمة والجديدة التي كانت تؤمن بالولاء له، وتشاطره الأراء، بينما قام البيطار وعفلق بنقد نظام حكم الوحدة، والمطالبة بتجديد الوحدة من الداخل وليس من الخارج.

وفي محاولة لرأب الصدع، تقرر عقد اجتماعات اسبوعية بعد ظهر كل يوم جمعة في بيت الضابط المسرح عبد الغني قنوت، للوصول الى رأي موحد حول الموقف

الجديد من الوحدة ومن نظام عبدالناصر.

ودارت مناقشات مطولة حول دور الحزب ومسؤوليته تجاه الوحدة وتجاه عبدالناصر وتجاه الجماهير، ووفق الطرفان ظاهريا الى صيغة مشتركة تقضي بضرورة اعادة بناء الحزب بشكل سري خشية من رقابة المباحث السورية. لكن الاختلاف حول تجديد الوحدة وحول عبدالناصر استمر قائما بين الزعماء الثلاثة. فبينما كان أكرم الحوراني مقتنعا بضرورة الحفاظ على الشخصية السورية وتوحيد السياسة الخارجية والدفاع فقط، كان رأي عفلق والبيطار عدم فك الوحدة مع مصر، والنضال من أجل اقناع عبد الناصر بضرورة تغيير أساليبه وشكل النظام العام في سورية ومصر بالوسائل السلمية.

على ان اجتماعات يوم الجمعة في بيت عبد الغني قنوت لم تحسم الموقف بين مختلف تيارات البعث. وكان ميشال عفلق قد غادر سورية الى بيروت كاحتجاج على ما وصلت اليه الحال في سورية.

وفي شهر سبتمبر (ايلول) عام ١٩٦١ كانت الوحدة قد دخلت عامها الثالث. وكمحاولة لرأب الصدع والبدء بنشاط الحزب الجديد السري، تقرر عقد اجتماع للقيادة القومية البعثية في فيللا الصنوبر في مصيف «برمانا» في جبل لبنان وذلك في منتصف شهر سبتمبر (ايلول).

وحضر الاجتماع صلاح البيطار وعبدالغني قنوت ممثلا الحوراني عن سورية، وفيصل الخيزران عن العراق، وغسان شرارة وخالد يشرطي عن بعث لبنان.

وقام المؤتمرون بدراسة ما وصلت اليه الحال في سورية وتداولوا فيما بينهم حول افضل الحلول لاصلاح الموقف. وفي أثناء اجتماعاتهم وصل الى برمانا السيد محمد اليوسفي الجزائري مندوبا عن بن بلا الذي عرض عليهم التوسط بينهم وبين عبدالناصر لاعادة توحيد الصفوف والحفاظ على الخط الاشتراكي.

وقد رحب المؤتمرون بمندوب بن بلا، وظنوا ان هناك تحولا في خط القاهرة، واستبشروا بالوساطة، وعاد اليوسفي الى القاهرة لاتمام مهمته.

لكن تردي الاوضاع داخل سورية كان قد وصل الى نقطة الانفجار. فبينما كان قادة البعث ينتظرون جواب عبدالناصر على وساطة بن بلا، اذ يفاجئون باذاعة دمشق صبيحة الثامن والعشرين من سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ باذاعة البيان رقم واحد معلنا «قيام الانتفاضة المباركة وانهاء حكم الوحدة والتسلط المصري»، وكانت محطة الاذاعة تعزف النشيد الوطني السوري الذي لم يكن قد سمع منذ ثلاث سنوات او اكثر.

في ليلة ٢٨ من (ايلول) سبتمبر عام ١٩٦١ قامت بعض الوحدات العسكرية السورية بالتحرك نحو دمشق لتنفيذ الانفصال، وجرت الاحداث على النحو التالي:

أولا: تحركت قوات البادية تحت قيادة حيدر الكزبري من منطقة الضمير على طريق الضمير ـ دوما ـ حرستا ـ دمشق، وهدفها استراحة المشير عامر في نهاية شارع المرج (. . .) الموصل الى منطقة المهاجرين، لقتل عبدالحكيم عامر، والقضاء على المقاومة التى تواجه القوة.

ثانيا: تحرك اللواء الاول المتمركز في قطنة وهو أقوى لواء في الجيش السوري حينئذ، وهو لواء محمول ويضم في تشكيله دبابات ومدفعية ميدان مضادة للطائرات، وكان على رأس اللواء المقدم مهيب الهندي رئيس اركان اللواء وهو صهر عبد الكريم النحلاوي.

كان هذا اللواء هو القوة الاساسية لتنفيذ الانفصال، ولذا قام عبد الكريم النحلاوي كاتم الاسرار بتركيز عدد كبير من ضباط الانقلاب به.

كانت مهمة هذه القوة الاحاطة بمبنى الاركان ومبنى الاذاعة ومبنى الهاتف الآلي، كذا تأمين بعض مداخل دمشق التي يخشى ان تتحرك منها وحدات معادية لقوة الانقلاب.

ثالثا: بالنسبة لباقي قطاعات الجيش، كان النحلاوي قد قام بتعيين ضباط موالين له فيها قبل بداية الانقلاب، بحيث ان اي تحركات للقطاعات، كانت ستؤدي الى انقسام فيها يعيق حركتها او تصديها. وهكذا ضمن الى حد ما تجميد الوحدات المعارضة للانقلاب.

رابعا: أصدر النحلاوي تعليمات بالقبض على الضباط المصريين الذين كانوا يعملون في وحدات الجيش السوري، للحيلولة دون قيامهم بأية مقاومة. ناهيك ان التعليمات الاساسية التي كانت معطاة للضباط المصريين تؤكد على ضرورة طاعتهم لقادة وحداتهم وكانوا جميعهم ـ من مستوى كتيبة فما فوق ـ من السوريين، كما ان التعليمات كانت تقضي بعدم التصدي لمثل هذه المواقف التي تبلغ حد التقاتل وبخاصة ان الامر لم يكن محليا في بداية التحرك، للانقلاب.

خامسا: الطيران السوري تحت قيادة العقيد موفق عصاصة وهو أحد أعوان النحلاوي الاساسيين والذي كان قد أعد الوضع في الطيران بحيث يضمن عدم قدرته على التحرك ضد الانقلاب.

قبل ان تبلغ الوحدات المتحركة دمشق كانت شعبة المخابرات العسكرية بقيادة العقيد السوري محمد الاستنبولي قد علمت بتحرك وحدات الانقلاب، فأخطرت المشير عامر في استراحته، الذي أمر فورا بالاتصال باللواء جمال فيصل قائد الجيش، ورؤساء شعب الاركان كي يتوجهوا فورا الى مبنى الاركان.

كذلك أعطى أوامره كي يجري اتصال مع الوزراء العسكريين لينضموا في مبنى الاركان.

وفعلا وصل الوزراء السوريون العسكريون الى مبنى الاركان بالترتيب التالي: طعمة العودةالله وأحمد حنيدي الساعة الثالثة والنصف صباحا، جادو عز الدين الساعة الثالثة وأربعين دقيقة صباحا، اما أكرم ديري فلم يكن في منزله في تلك الساعة المتأخرة.

وكان المشير عامر وقائد الجيش ورؤساء الشعب قد اجتمعوا في مبنى رئاسة الاركان، حينما وصل الوزراء العسكريون السوريون، اما اكرم ديري فلم يكن موجودا في منزله حينما تم الاتصال به الساعة الثالثة صباحا، وتكرر الاتصال بمنزله، فكانت زوجته تجيب بأنه غير موجود.

وقرابة الساعة الثالثة وخمسة واربعون دقيقة، سمع تبادل اطلاق النار في استراحة المشير! وفي الساعة الرابعة صباحا وصلت دبابات اللواء الاول السوري المتحرك من قطنة الى مبنى الاركان والاذاعة واحاطت بها، واتضح حينئذ ان عبد الكريم النحلاوي الذي لم يكن قد حضر الى مبنى الاركان، كان مصاحبا للدبابات التي أحاطت بمبنى الاركان، كما كان برفقته مهيب الهندي بوصفه قائدا للقوات المتحركة من اللواء.

وقرابة الساعة الرابعة والنصف اتصل اكرم ديري هاتفيا بمبنى الاركان واستوضح عن الموضوع وذكر بأنه في طريقه اليه.

وجاء اكرم ديري الى مبنى الاركان، وعند وصوله اليه، تصدى له حيدر الكزبري، وجرى نقاش بينهما. واستغرب الكزبري عن سبب مجيء اكرم ديري للمبنى، فالمعروف لديه ان اكرم ديري كان مع الانقلابيين، ونفى اكرم ديري علمه بالانقلاب، وتراشقا بالسباب، فما كان من الكزبري - الذي كان ثملا - الا ان اطلق النار على اكرم، واصابت طلقة ساق اكرم ديري بجرح طفيف ودخل اكرم بعدها مبنى الاركان.

وقد فسرت هذه العملية بأنها تمثيلية الغرض منها ابعاد الشبهة عن اكرم ديري، لا سيما بعد تأخره عن الحضور لمبنى الاركان للانضمام مع رفاقه من الوزراء

العسكريين، الامر الذي أثار الشك لدى زملائه، وقد ثبت لديهم انه كان خارج بيته في هذه الساعة المتأخرة، فاعتقدوا انه كان مجتمعا مع بعض ضباط الانقلاب.

ومع الفجر بدأت الاتصالات بين الانقلابيين وبين المشير عبدالحكيم عامر، فكلف المشير كلا من جاسم علوان قائد اللواء المحاصر لمبنى الاركان ـ وكان جاسم قد استدعى للاركان من قطنة الساعة الواحدة صباحا من الليلة ذاتها ـ وجادو عز الدين واكرم ديري، بالاستفسار من النحلاوي والهندي عن أهدافهما، فأجاب النحلاوي بأن الحركة لا تستهدف سوى اجراء بعض الاصلاحات في الجيش بعد ان ساءت الامور الى الحد الذي اقتضى هذا التحرك.

واعلن النحلاوي انه يقوم بهذه الحركة وهو حريص على وحدة الاقليمين في الجمهورية العربية المتحدة، وعلى الاعتراف برئاسة عبدالناصر للجمهورية، وبقيادة عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة في الاقليمين المصري والسوري.

ونفى النحلاوي بأن تكون هذه الحركة هدفها اي غرض آخر أو القيام بعمل انفصالي.

ومن خلال هذه المبادىء اعلن النحلاوي عن رغبته في ان يقابل المشير عامر ويعرض عليه تصوره للاصلاحات التي يرى الجيش ضرورة القيام بها، لتنتهي الحركة وتعود القوات الى ثكناتها.

وقد طلب عبد الحكيم عامر من النحلاوي ان يسحب دباباته بعيدا عن مبنى الاركان لاثبات حسن نيته! والواقع ان النحلاوي انصاع لهذا الطلب، وتراجعت الدبابات الى اطراف ساحة الامويين القائمة امام مبنى الاركان، والتي تبعد عنه مسافة صغيرة نسبيا.

وليطمئن النحلاوي على نفسه، طلب ان يوضع خارج مبنى الاركان مع الوحدات المحاصرة له بعض الرهائن، واختار ان تكون الرهائن مكونة من اللواء انور القاضي، والعقيد احمد زكي وهما مصريان، وقد وافق المشير على تأمين النحلاوي، فأمر اللواء القاضي والعميد احمد زكي بالخروج والوقوف مع القوات المتمردة.

وحينما قابل النحلاوي المشير عامر، اكد الاول ان حركته لا تهدف الى اي اغراض انفصالية، وان غرضها اجراء بعض الاصلاحات، منها تخفيف عدد الضباط المصريين في الجيش السوري وبخاصة في رئاسته، كذلك اجراء بعض التنقلات التي عرضها النحلاوي على المشير.

وتيسيرا لانهاء الحركة وسحب القوات الى قواعدها، اقترح النحلاوي على المشير الموافقة على ترحيل بعض الضباط الى القاهرة وهم اللواء انور القاضي والعقيد احمد علوي ، والعقيد احمد زكي ، والعقيد محمد استنبولي رئيس شعبة المخابرات السورية، والاخير من أبناء الاقليم السوري.

كذلك اقترح النحلاوي ترحيل الوزراء العسكريين الذي كانوا مجتمعين في الاركان ، وقد رحل الوزراء فعلا حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر.

وكان النحلاوي قد اتفق مع المشير على صيغة بيان يعلن بعد اتمام عملية الترحيل هذه. ينهي بموجبه حالة العصيان وتعود الامور الى طبيعتها. وفعلا صدر البيان الذي سمي بالبيان رقم (٩)، وأذيع من اذاعة دمشق وهذا نصه:

«ان القيادة العربية الثورية للقوات المسلحة تعلن انها لمست عناصر مخربة انتهازية تريد الاساءة لقوميتنا، فقامت بحركتها المباركة تلبية لرغبة الشعب العربي وآماله وأهدافه، وعرضت قضايا الجيش وأهدافه على سيادة المشير نائب رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة الذي تفهم امور الجيش على حقيقتها واتخذ الاجراءات المناسبة لحلها لصالح وحدة القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة. وقد عادت الامور العسكرية الى مجراها الطبيعي اعتمادا على ثقتها بحكمة القائد العام للقوات المسلحة وقائد الجيش الاول اللذين يحققان اهداف القوات المسلحة والجمهورية العربية المتحدة».

وقامت في سورية نتيجة اعلان البيان مظاهرات ابتهاج وفرح لانتهاء الازمة، واعتقد الشعب السوري ان الامور ستعود الى ما كانت عليه.

ولكن النحلاوي وزمرته ما لبثوا ان نكثوا بالعهد، فقد صدر البيان رقم (١٠) يلغي مضمون البيان السابق ويعلن ان المشير عامر لم يوافق على ما جاء بالبيان السالف.

والواقع ان البيان رقم تسعة لم يكن سوى محاولة للمساومة او المناورة لكسب الوقت، وقد طلب الانفصاليون من المشير عامر قائد عام القوات المسلحة والفريق جمال فيصل قائد الجيش السوري - وهما تحت الحراسة - ان يعلنا بيانا بأن الامور قد انتهت. ولكن المشير عامر رفض طلب الانفصاليين، كما رفض جمال فيصل ان يعلن اي شيء، واصبحت حياتهما وحياة من معهما معرضة للتضحية والخطر.

وقامت قوة الانقلاب بتفريق المظاهرات بعد اعلان هذا البيان، وعم الوجوم الكثيرين.

وبعد ترحيل الوزراء بما يقرب من الساعتين قام الانفصاليون بترحيل المشير عبد

الحكيم عامر الى القاهرة في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين مساء، واذاعوا بيان بذلك بعد ان استقل الطائرة مباشرة، عسى ان تقوم «اسرائيل» باقتناص طائرته كما حدث عام ١٩٥٦ مع طائرة مرافقي المشير.

على ان ما ينبغي ان نذكره هنا، هو ان النحلاوي بصفته عنصرا عاملا داخل مبنى الاركان، عمل على تجنيد سرية الحراسة في مبنى الاركان الى جانبه، فحينما اطبقت دبابات الانفصال على مبنى الاركان، قام قائد سرية الحراسة بجمع افراد السرية التي كانت منتشرة في مواقع قتالية على سطح الاركان وفي ساحتها، وادخل أسلحتها الى مخزن الاسلحة، الامر الذي جعل المشير عامر وقيادة الجيش الاول بكاملها مجردة من أي عنصر للدفاع عنها.

وقد مكن ذلك النحلاوي وضباطه من ان يدخلوا أحد أجنحة المبنى ويشغلوه، وان يقيموا حراسة على هذا الجناح من العناصر المتمردة.

وبعد رحيل عبد الحكيم عامر عن دمشق. احس الانفصاليون بأن الامور استقرت لهم، وبدأوا اتصالاتهم الفورية مع القوى السياسية الانفصالية لتشكيل حكومة تطلب الاعتراف بها، تدعيما لموقف سورية.

وبالفعل تم تشكيل هذه الحكومة في الساعة الحادية عشر مساء يوم ٢٨ من سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ برئاسة مأمون الكزبري الانفصالي العريق بخيانته.

وتشكلت الوزارة الانفصالية على النحو التالي:

- مأمون الكزبري ـ للرئاسة والخارجية والدفاع ـ محام من دمشق.
- أمين احمد ناظيف ـ للزراعة والاصلاح الزراعي ـ مزارع من دمشق.
- احمد محمد سلطان ـ للاوقاف والعدل ـ محام من حماه.
- فؤاد العادل ـ للشؤون الاجتماعية ـ مدير ادارة في وزارة الشؤون الاجتماعية.
- فرحان الجندلي ـ للصحة ـ طبيب من حمص وعمل وزيرا في عهد الشيشكلي.
- ليون زمرية ـ للمالية وللتموين ـ محام من حلب.
- عدنان القوتلي ـ للداخلية ـ محام من دمشق.
- عوض بركات ـ للاقتصاد والصناعة ـ نائب حاكم المصرف المركزي.
- عزت النص ـ للتربية والارشاد القومي ـ مدرس جامعي وصديق للشيشكلي.
- نعمان ازهري ـ للتخطيط والشؤون البلدية.
- عبد الرحمن حورية ـ للاشغال والمواصلات.

وما ان تشكلت هذه الحكومة حتى بادرت الاردن والسعودية والعراق وتركية بالاعتراف بها، وهذا ما خلق وضعا معقدا بالنسبة لمعالجة الوضع في سورية من

جانب عبد الناصر.

وطوال يوم ٢٨ من سبتمبر (ايلول) ١٩٦١ كانت جميع مراكز المحافظات السورية تجتاحها المظاهرات المؤيدة للقاهرة، ولم تبق عاصمة من عواصم المحافظات الا وسقط فيها في ذلك اليوم العديد من الشهداء على يد القوات العسكرية الموالية للانفصاليين.

وظل الموقف في كل في حلب واللاذقية متصديا للانفصاليين، وظلت اذاعة حلب تذيع البيانات التي تشجب الانفصال حتى الساعة الحادية عشرة مساء من يوم الانفصال، حتى تم اسكاتها، اذ ان قطاعات حلب كانت معادية للحركة الانفصالية.

غير ان بعض الضباط الانفصاليين مثل جورج محصل اعلن ولاءه لقائد المنطقة الشمالية المعارض للانفصال وكان يدعى العميد حكمت داية، واستأذنه ان يتحرك بوحدات عسكرية من مركز تدريب حلب الى المدينة لترابط في نقاطها الحساسة لتمنع اي عمل قد يقوم به الانفصاليون.

وكان العميد حكمت داية قد اذاع بيانا يستنكر التمرد هذا نصه:

«أيها الاخوة المواطنون في الاقليم الشمالي من الجمهورية العربية المتحدة: مما لا شك فيه ان الحركة التي قام بها بعض ضباط الجيش لم تكن ولن تكون باي حال من الاحوال الا دافعا لكم على التمسك والاتحاد وحافزا قويا يحدوكم للتكاتف والوقوف صفا واحدا متراصا للحفاظ على مكاسب القومية العربية والذود عن كيان هذه الجمهورية.

«فالجيش لا شك ولن يشك يوما باندفاع ابناء هذا الشعب نحو تحقيق الاهداف السامية والغايات النبيلة وكله ثقة بوحدتكم الوطنية التي لا يمكن ان تصدع الاعاصير بناءها المتين، كمايؤمن ايمانا خالصا بتعلقكم بوحدتكم المباركة وجمهوريتكم العربية المتحدة والتفافكم حول رائدكم جمال عبدالناصر، وما دام الحق معكم فلا غالب لكم. والله ينصركم».

غير ان جورج محصل بدلا من ذلك، استخدم الوحدات التي وضعت تحت قيادته والتي تحركت الى المدينة، في تفريق المظاهرات التي كانت تندد بالانفصال وتهتف بالوحدة، واحتل قيادة المنطقة، واعلن تأييده لحركة النحلاوي، وقام باحتلال الاذاعة واعتقل قائد المنطقة.

اما في اللاذقية فقد ظلت حاميتها السورية حتى آخر ضوء ذلك اليوم على ولائها للجمهورية العربية المتحدة، غير ان قيادة الانفصال ـ خشية منها ان يقوم عبد

الناصر بعمليات انزال في منطقة الساحل - قامت بتحريك وحدات مدرعة ومحمولة من منطقة حمص وتلكلخ الى اللاذقية بحجة تعزيز حاميتها، وعندما دخلت هذه القوات بقيادة المقدم محمد منصور الى اللاذقية، احاطت بقيادة المنطقة واعلنت ولاءها للانفصاليين، فأعلن كامل زيتونه قائد المنطقة ولاءه للانفصاليين، وهكذا كان زيتونه يلعب على الحبلين، وقد اعلن زيتونه ولاءه للانفصاليين قبل هبوط المظلات المصرية في منطقة الساحل.

وفي دير الزور اعلن محافظ دير الزور ان الشعب العربي في دير الزور يؤكد تمسكه بالوحدة العربية وجمهوريته الغالية، ويعلن استعداده للبذل والفداء.

★ ★ ★

هكذا يروي صلاح نصر حكاية الانفصال الذي انهى الوحدة بين دمشق والقاهرة قبل حوالى ثلاثين عاما... كما أنهى «الحقبة السراجية» في سورية ولبنان والاردن والعراق، ووضع نقطة النهاية لنفوذ «السلطان الاحمر».

السراج في رأي هيكل

يكتب محمد حسنين هيكل هذا المقال الطويل في «الاهرام» عقب الانفصال، وعبدالحميد السراج يرتعد في سجن «المزة»... يحاول هيكل فيه تبيان «لمسات ضوء» في شخصية سلطان دمشق وكلها في نظره «وطنية» و«مروءة» و«اقدام»... و«لمسات ظل» يختفي خلفها وجه السراج البوليسي القمعي الحاقد.

ويستشهد هيكل على بوليسية حكم «السلطان الاحمر» بحكاية هو بطلها بالطبع... عن تجاوزات ضباط المخابرات في دمشق.

وما يستغرب له ان لا يثير هيكل وهو من ندماء رئيس مصر ورئيس اقليمي الجمهورية العربية المتحدة ما لمسه وعايشه أثناء زياراته المتكررة لدمشق من تجاوزات رجال السلطان وجواسيسه... فلا يتخذ صاحب القاهرة أي اجراء ردعي بحق نائبه و«عسسه»، الا اذا كان «الريّس» في تلك المرحلة المحرض على تحكم وتسلط «السلطان» على البلاد والعباد وهو ما يراه كثيرون واقع الحال.

لقد وصلت الآن الى حكاية عبد الحميد السراج في تجربة الوحدة وصلت الى الحكاية على طريق الشوك.

والشوك على طريق هذه الحكاية بالذات أسبابه كثيرة.

* سبب منها، شخصي، بحت، أعترف به في مقدمة هذا الحديث مع تسليمي الكامل، بأن مثل هذا السبب ليس عنصرا له أهميته حين التصدي لمحاولة تحليل الظروف في حادث كبير من أحداث التاريخ.

هذا السبب هو اني أحب عبد الحميد السراج ـ وما زلت ـ برغم أخطائه التي لا أغمض عيني عنها ـ أشعر انه شاب عربي قومي مخلص.

* وسبب منها، ان حكاية عبدالحميد السراج نزل عليها ستار من الظلام الكثيف عقب الانقلاب على الوحدة في سورية، ولست أعرف عبدالحميد السراج الآن، وما هو رأيه فيما حدث؟ كل ما أعرفه ان عبدالحميد السراج معتقل، وأن صاحب الجلالة الملك سعود ـ بالذات ـ يطالب برأسه لكي يحمل اليه ـ حيث يكون ـ على طبق من ذهب!

* وسبب منها ثالث وأخير، هو ان القراء الذين يتابعون هذه السلسلة من المقالات باهتمام ـ كرما منهم وحسن ظن ـ لم يتركوني حتى أنتهي من كتابة حكاية عبدالحميد السراج، وانما سبقوني اليها بمجرد ان أشرت الى ان دور عبد الحميد السراج قد جاء في تجربة الوحدة. . .

ما كادت هذه الاشارة تظهر في ختام الحديث الماضي، حتى وجدت سيلا من الخطابات يقتحم مكتبي.

وكان واضحاً من هذا السيل ان هناك تيارين يتنازعان الرأي العام فيما يتعلق بعبدالحميد السراج.

تيار عبر عن نفسه بعبارة في أحد الخطابات التي تلقيتها تقول:

«لا تقل بالله كلمة تسيء الى عبد الحميد السراج، لقد عمل من أجل الوحدة ما لم يعمله غيره، بل لقد جرب الذين قاموا بالانقلاب على الوحدة في دمشق ان يجروه الى التعاون معهم، ولكنه رفض، في حين ان الذين كانوا يناصبونه العداء، هرولوا الى الخضوع للانقلاب ووضع توقيعاتهم بالخط الكبير على بيانات رسمية بتأييده وبالسمع والطاعة له».

وتيار آخر عبر عن نفسه بعبارة مختلفة في خطاب آخر مما تلقيته عن خطابات. . جاء فيها:

«ربما دفعتك محنة عبد الحميد السراج الحالية ووجوده في سجن «المزة» الى الدفاع عنه. ان الشعب «العربي» في سورية يمكن ان يغفر كل شيء الا الدفاع عن السراج فهو المسؤول الاول عن هذه النكسة، يكفي انه، وهو يزعم، السيطرة على كل شيء في سورية، لم يعرف بهذا الانقلاب الذي يدبر منذ سنوات ضد الوحدة، أما اذا كان يعرف، ولم يفعل شيئا فالمصيبة أدهى».

* * *

طريق الشوك اذن طريقي الى حكاية عبدالحميد السراج.

من عاطفتي الخاصة له.

من الغموض الذي يحيط به، ويحيط بمصيره.

من موقف الرأي العام نحوه، وبروز تيارين فيه يتصارعان معا ولا يلتقيان أبدا.

ولكن الذي يسهل الامور علي الى حد بعيد هو اقتناعي الكامل بأنني هنا لا أكتب تاريخا، فان الشرط الاساسي لكتابة التاريخ بصدق وأمانة، هو ان تكون حوادثه قد ابتعدت طويلا مع السنين، وهدأت فيها حرارة العواطف مهما كان اتجاهها، وتجردت الوقائع كلها من اي اثر للانفعال..

وحكاية عبد الحميد السراج، ما زالت حية.

ولست أدعي لنفسي التجرد، وكل ما أتمنى ان أدعيه لنفسي لو استطعت، هو ان أكون صادقا مع نفسي في رواية الحوادث بقدر ما أراه بالفعل منها، وليس هذا تجردا، فان كل انسان يحكمه تكوينه الفكري في نظرته الى الحوادث، مهما طلب الصدق وألح في طلبه، وأنا واحد من الذين يقولون بأنه لا شيء يمكن ان يوجد في فراغ، حتى الحقيقة ذاتها، ومعنى ذلك ان الحقيقة في تصوري، كالهواء الذي يملأ غرفة مكتبي، تحدده جدران الحائط وزواياه وارتفاعاته.

ولكني أكاد استطرد الى بحث فلسفي، يبعد بي عن حكاية عبد الحميد السراج!

وإذن أعود الى وقائعها!

***

من أين تبدأ حكاية عبد الحميد السراج!

والرد على هذا السؤال:

انها تبدأ من قبل الوحدة بكثير، بل ان دراسة هذه الحكاية في بدايتها من قبل الوحدة، اكثر ضرورة لمتابعة استمرار هذه الحكاية ـ طبيعيا ـ بعد الوحدة.

لمسات الضوء في صورة عبدالحميد السراج لمعت قبل الوحدة ولمسات الظل في صورة عبدالحميد السراج لفها الغموض من قبل الوحدة.

***

لمسات الضوء في صورة عبد الحميد السراج، في رأيي ثلاث:

١ـ كان عبدالحميد السراج في الفترة الحرجة، من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٨ ايام ضغط حلف بغداد على سورية، وأيام محاولة الحزب الشيوعي للسيطرة على سورية، واحدا من مجموعة الشباب الوطني في الجيش السوري، الذين قدروا على حماية استقلال سورية، وصمدوا لمختلف أنواع المؤامرات، سواء منها التآمر بالاغراء أو التآمر بالارهاب، اي التآمر بسلاح المال او التآمر بسلاح القتل، كان عبد الحميد السراج واحدا من هذه المجموعة من الشباب الوطني. .:. بل كان بحكم عمله في رئاسة المكتب الثاني ـ المخابرات ـ أظهر أفراد هذه المجموعة، فان منصبه يعرضه،

ويفرض عليه بدوره ان يتعرض لمواجهة هذه المؤامرات، بكشفها وتحطيمها.

٢ـ كان عبدالحميد السراج، في اليوم الاول من شهر تشرين الاول (نوفمبر) ١٩٥٦، هو الذي أخذ على عاتقه عملية نسف انابيب البترول القادمة من العراق عبر سورية الى البحر.

وكان نسف أنابيب البترول، وتوقف تدفقه من العراق عبر سورية الى البحر، خصوصا بعد اغلاق قناة السويس بحكم العمليات العسكرية الهائلة التي دارت خلال معارك العدوان الثلاثي على مصر في تلك الفترة، عاملا هاما من عوامل النصر الذي أحرزته قوى «القومية» العربية ضد قوى الاستعمار وأدواته التي أرادت في ذلك الوقت توجيه الضربة الساحقة الى قاعدة التحرر العربي في مصر سنة ١٩٥٦.

ولقد ثارت عليه بسبب ذلك ثائرة الوزارة القائمة بحكم في سورية وقتها واتهمته بتعريض سلامة سورية للخطر.

ولكن ما حدث. . كان قد حدث فعلا. . ولم تصل ثورة الوزارة الى نتيجة، بحكم الامر الواقع. . وبحكم العجز ايضا.

٣ـ كان عبدالحميد السراج هو بطل قصة ملايين الملك سعود الشهيرة التي أرادت ان تتآمر على الوحدة في يومها الاول.

وصحيح ان وسطاء الملك سعود حاولوا الاتصال بمجموعة الضباط الوطنيين في الجيش السوري في ذلك الوقت كلهم، وصحيح ان هؤلاء جميعا حولوا الموضوع بأكمله الى عبد الحميد السراج بوصفه رئيس المكتب الثاني ليتولى تسجيل المؤامرة وكشفها ولكن عبد الحميد السراج تلقى باسمه مليونا وسبعمائة وخمسين الف جنيه استرليني، ولم يستطع هذا المبلغ الطائل الذي تتحطم أمامه مقاومة كثيرين، ان يكون بالنسبة لعبد الحميد السراج ، الا دليلا في قضية. . لا اكثر ولا أقل.

لم يفكر عبدالحميد السراج لحظة في قيمة شيكات الملك سعود كأموال.

وانما كان فكره فيها طول الوقت انها مجرد وثائق تدين الملك وتثبت عليه التآمر وتكشف الرجعية العربية أمام الرأي العام العربي.

هذه لمسات الضوء في الصورة، وفيها دون جدال ومضات باهرة. ثم انتقل ال لمسات الظل.

* * *

لمسات الظل ثلاث أيضا:

١ـ القوة، في تقديري هي لمسة الظل الاولى في شخصية عبدالحميد السراج

وأعني بالقوة هنا . . تجميعها والامساك بها ولم خيوطها جميعا في قبضة يد واحدة.

كان عبد الحميد السراج - ولقد أكون مخطئا - يحب القوة، وحب القوة يحمل في طياته الرغبة في الانفراد بها فان الذي يحب القوة يعتقد ان توزيعها على الايدي الكثيرة ينتقص من احساسه بها في يده.

من هنا . لم يكن عبدالحميد السراج ، وسط الكتل المتصارعة في الجيش السوري قبل الوحدة يمثل كتلة او يقود مجموعة، كان بعيدا عن كل الكتل والمجموعات، وكان في نفس الوقت على اتصال بها جميعا، وان كان سنده الرئيسي هو كتلة الضباط الوطنيين في الجيش.

وحين صدرت سنة ١٩٥٧ حركة تنقلات في الجيش - صدرت بتحريض الملك سعود وضغطه على شكري القوتلي وبمساندة أمين النفوري الذي كان رئيس الشعبة الأولى في الجيش وقتها - وتضمنت هذه الحركة نقل عبدالحميد السراج من منصب رئيس المكتب الثاني - اي المخابرات - كانت كتلة الضباط الوطنيين هي التي هددت باجراء انقلاب اذا لم يبق عبدالحميد السراج في مكانه . . وبقى .

وليست القوة ظلا، ولكن الظل يلحق بها اذا كانت القوة غاية ولم تكن وسيلة .

القوة مطلب للثائر لأنها أداة تغيير ثوري والسلطة طاقة دافعة تستطيع ان تفرض الفكرة المثالية على التجربة وتمنحها فرصة الحياة.

وليست القـوة غاية في حد ذاتها وليست السلطة رغبة شخصية والا أصبحت مقدمة ضاعت منها نتيجتها والا خطوة تعلقت في الهواء دون مقصد او هدف.

٢- وتقودني هذه النقطة الى لمسة الظل الثانية في عبد الحميد السراج.

هذه اللمسة هي ان عبدالحميد السراج لم يكن بطبيعته، أو بحكم ما أحاط به من ظروف، ثوريا اجتماعيا.

من هنا فان القوة في يده وصلت الى طريق مسدود.

لقد جمع في يده من السلطات قبل الوحدة، ما لم يتجمع في يد فرد.

في درج مكتبه كل المفاتيح، وأصابعه على كل الازرار.

ولكن ماذا بعد ذلك؟

لم تكن القوة في يده الا صراعا على القمة، من أجل مزيد من السلطة، ولكن القوة لم تواصل سيرها من يده لتنزل الى الجماهير السورية لتكون أداة مؤثرة وقوة دافعة لنضال الشعب وان كنت هنا لا أقلل من قيمة الدور الذي لعبته القوة التي ركزها عبدالحميد السراج في يده في حماية الاستقلال السوري قبل الوحدة.

٣- من هذه النقـطة ايضـا جاءت لمسـة الظل الثالثة في شخصية عبدالحميد

السراج، وتلك هي ايمانه بالوسائل البوليسية.

كان يريد أن يعرف كل شيء عن كل الناس ، لا تفوته حركة، ولا تفلت سمعه همسة.

وفي الدعايات التي توجه ضد الجمهورية العربية الآن، ما يقال من ان عبدالحميد السراج كان يراقب جميع تليفونات خصومه، ولكن الذي لم يقله أحد - وان كان حقيقة - هو ما تبين من ان عبدالحميد السراج كان يضع تليفونات زملائه في الوزارة أنفسهم تحت الرقابة.

ونتيجة لهذا فان جهاز البوليس تحت اشرافه توغل واستشرى.

هنا أيضا لم يعد جهاز البوليس وسيلة تحمي المجتمع وتخدم القانون. .

وانما في بعض الاحيان فلت جهاز البوليس فأصبح فوق المجتمع وفوق القانون وكانت هذه بالذات. . اعقد المشاكل في سورية.

* * *

ولقد كنت اسمع كثيرا عن جهاز عبدالحميد السراج البوليسي ولم أكن أصدق. . حتى جربته بنفسي. . ورأيته بعيني وجها لوجه.

في ليلة من ليالي تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٥٩ كنت في دمشق.

وكان المشير عبدالحكيم عامر قد وصل اليها منذ أيام في مهمة رسمية.

في تلك الليلة، قابلت في فندق أمية الجديد، الصحافي الاميركي المشهور هاري ايليس، وكان قد جاء من بيروت بناء على موعد مع المشير عبد الحكيم عامر حدده المكتب الصحافي لسفارة الجمهورية العربية المتحدة في بيروت.

وقال لي هاري ايليس:

- لقد عدت الان فورا من موعد مع المشير عبدالحكيم عامر. .

وجلست مع هاري ايليس في بهو فندق أمية نتحدث معا في قصص وذكريات وتجارب، واجهناها معا ايام كنا مراسلين حربيين في كورية قبل ما يقرب من عشر سنوات. . .

* * *

وتركت هاري ايليس وصعدت الى غرفتي في الفندق لانام .

ولم تمض الا بضع دقائق حتى سمعت طرقة على الباب، وفتحت واذا شاب يقدم لي نفسه باعتباره من المكتب الثاني. . . ودهشت.

وقال لي الشاب في رقة وأدب شديدين:

- سيدي. . . ألم تكن الان مع هذا الصحافي الاميركي. . . «ايليس»؟

قلت له: نعم.
قال: عرفنا انه قابل المشير الليلة..
قلت: هكذا سمعت منه.
قال: ألم يقل لك ماذا سمع من المشير؟
وتحولت دهشتي الى ذهول، وقلت له:
- هل تسمح لي ان أسألك.. لماذا تريد ان تعرف؟
قال ببساطة:
- لأكتبه في التقرير.
قلت:
- تقرير.. لمن سوف تكتب التقرير؟
قال:
- لوزير الداخلية.
قلت:
- لا أظن ان وزير الداخلية - عبد الحميد السراج - يحتاج الى تقرير في هذا الامر، ان حديث ايليس دار مع المشير، ويستطيع وزير الداخلية ان يسأل فيه المشير رأسا.
قال الشاب بحزم:
- سيدي.. ظننتك تستطيع مساعدتي بدل ان أسأل الرجل الاجنبي نفسه...
وأحسست بقلق، لقد تصورت ما يمكن ان يحدث لو ذهب هذا الضابط الشاب من المكتب الثاني الى هاري ايليس وسأله عن حديثه مع المشير عبدالحكيم عامر.
ما الذي يمكن ان يفهمه هاري ايليس من هذا الوضع؟
أغلب الظن انه كصحافي مجرب وقديم، سوف يفهم منه الكثير.
وقررت على الفور ان لا أترك الامر.
سكت لحظة ثم قلت لضابط المكتب الثاني الشاب:
- اسمع.. ما رأيك لو انتظرت الى الصباح، وأنا أعطيك كل ما سمعته من هاري ايليس عما دار بينه وبين المشير.
قال الضابط الشاب:
- ألا تستطيع ان تفعل ذلك الآن؟
قلت:
- نحن الآن في الواحدة من الصباح، ولقد كنت على وشك أن أنام كما ترى، والمسألة كلها بضع ساعات.

قال الضابط الشاب:
ـ في الصباح الباكر. . حتى أكتب تقريري قبل ان تفتح الدوائر الحكومية.
قلت: في السابعة صباحا سوف أكون تحت أمرك.

* * *

وأقفلت الباب وأنا أفكر كيف أتصرف في الامر بهدوء، كان همي كله ان لا تبدو الجمهورية العربية المتحدة امام صحافي أجنبي غريب في صورة تثير فضوله ومن يدري ماذا يمكن ان تثيره بعد الفضول، ثم وصلت الى حل، ورفعت سماعة التليفون وطلبت هاري ايليس وكان ينزل في نفس الفندق وقلت له:

ـ هاري. . يبدو ان صحافيا آخر حصل على حديث من المشير. وفي رأيي ان لا تنتظر للغد حتى تبرق بحديثك معه ويسبقك الصحافي الآخر.

انك لن تجد مكتب البرق مفتوحا في دمشق الآن، لهذا فاني أقترح عليك ان تركب سيارتك فورا الى بيروت وتبرق بحديثك مع المشير قبل الفجر وتسبق به غيرك.

واعتبرها الصديق الطيب جميلا أسديته اليه تطوعا ووفاء.

وظللت بعدها أشعر بوخزة الضمير. ولكن المهم ان هاري ايليس خرج من دمشق ووصل الى بيروت قبل الصباح.

* * *

ودق جرس التليفون بجوار سريري في الساعة السابعة صباحا.
وكان المتحدث هو ضابط المكتب الثاني الشاب يذكرني بموعده معي وقلت له:
ـ متأسف. . هل تتركني لأنام؟.
قال:
ـ ولو. . أما وعدتني ان تحكى لي ما قاله لك ايليس من حديث المشير معه؟.
قلت له ببساطة:
ـ لم يقل لي شيئا في هذا الموضوع.
قال بحدة:
ـ شوها الحكي.
قلت بهدوء:
ـ هذا ما حدث. .

واقفل التليفون غاضبا، ولكن الصمت في الحجرة بعد بضع دقائق تمزق وتبدد من طرقات عنيفة على الباب، وقمت لأفتح، وكان هو بنفسه ضابط المكتب الثاني

الشاب. . جاء ثائرا غاضبا بعد ان عرف ان هاري ايليس نفسه غادر الفندق في الفجر وانطلق على طريق بيروت.

* * *

ولقد أطلت في هذه الحكاية عن عمد. . . فهي في رأيي ترسم صورة عشتها بنفسي ورأيتها.

وهـذا أول مرة أسمـح لنفسي ان أرويهـا، وان كانت قد أثارت في عديد من المناسبات أسئلة كثيرة في خاطري.

* مثلا. . . هل يعرف عبدالحميد السراج ما كان يفعله ضابطه الشاب؟.

* مثلا. . . هل يمكن ان تصل الامور الى هذا المدى بغير علمه؟

* مثلا. . . اذا كان هذا يمكن ان يحدث معي ـ وأنا صحافي ـ يملك ان يكتب وان يتكلم، فما الذي يمكن ان يحدث مع غيري ممن لا يملك وسيلة للكتابة او للكلام؟

* ومثلا. . . وهذا هو الاهم. . انني أجيء الى دمشق زائرا ثلاث مرات او أربعاً في السنة. . فما الذي يحدث للذين يعيشون فيها طول السنة؟

ولست أريد ان أقسو على عبدالحميد السراج، فلقد يكون فيما جرى، لغيري ولي، كثير لا يعلمه. . ولكن المشكلة ان الاجهزة البوليسية اذا تركت من غير حدود تقف عندها فانها تكتسب طبيعة سرطانية قاسية ومدمرة.

* * *

كانت هذه لمسات الضوء ولمسات الظل في صورة عبد الحميد السراج قبل الوحدة.

وفي عهد الوحدة كبر عبد الحميد السراج.

لم يعد رئيس المكتب الثاني. . وانما وصل حتى أصبح نائبا لرئيس الجمهورية. . .

وكانت لمسات الضوء فيه من قبل الوحدة نقطة انطلاقه الى مكانته البارزة في النظام الجديد.

كان ديدبان الحراسة ضد المؤامرات في الفترة الحرجة.

كان منظم عملية نسف خط أنابيب البترول.

كان ممثل دور البطل في الدراما العنيفة التي ظهر فيها الملك سعود في دور قوى الشر الرجعية التي حاولت بالمال وبالغواية ان تفسد وان تحطم.

ومن هذه الانطلاقة أصبح لعبد الحميد السراج وضع خاص في تجربة الوحدة.

وكانت لهذا الوضع الخاص احتمالاته . . واخطاره .

* * *

أولا ـ أصبح عبد الحميد السراج بالنسبة لكل الذين يكرهون الوحدة هدفا يسهل التركيز عليه .

ان ظروف الحوادث نفسها وضعته موضع البطل في مواجهة قوى الشر . . .

ولما بدأت قوى الشر تضرب انتقاما لنفسها كان محتما ان تكون بعض ضرباتها موجهة له .

هكذا اخذته الرياض وعمان وبغداد تحت الحكم الهاشمي ـ وبعده لسوء الحظ ـ هدفا مكشوفا لحملاتها ، وأخذته قوى الاستعمار ايضا وراء هؤلاء ، وفي ذيل الجميع بطبيعة منطق الحوادث . . . أخذته ايضا «اسرائيل» .

ثانيا ـ أصبح عبدالحميد السراج بالنسبة لعدد كبير من ساسة سورية القدامى ، حتى اولئك الذين انساقوا منهم في صدر تيار الوحدة ، خطرا داهما ، بحكم ما يعرفه عنهم . . وقد كان عبدالحميد السراج يعرف عنهم الكثير ويبقيه تحت يده ، ومن هنا فاني لا اتصور ان حكومة الانقلاب في دمشق سوف تحاكم عبد الحميد السراج . . . فلو أعطيت له فرصة للمحاكمة وتكلم لاستطاع وهو في قفص الاتهام ان يضع الحبل حول رؤوس الذين يدعون عليه بالاتهام ، ولتمكن منهم قبل ان يتمكنوا منه .

وطوال سني الوحدة . . كان عبدالحميد السراج هدفا لحملات الكراهية المنظمة والهمس المسموم .

* *

ثالثا ـ زاد على ذلك كله ، وضع آخر ، يختلف في طبيعته .

ذلك هو علاقة عبد الحميد السراج بغيره من كتلة الضباط الوطنيين في الجيش . . هؤلاء الذين كانوا يسندونه فيما مضى ، ثم وجدوه فجأة يكبر عليهم ويتقدمهم في الشوط بكثير .

هنا مشكلة انسانية بحتة ، سمعت واحدا من الضباط الوطنيين يعبر عنها مرة في صدق وطيبة بقوله :

ـ لقد كانت لعبد الحميد السراج في حمل الجمل قشة ، ولكنه بالقشة أخذ الجمل بما حمل .

* * *

ولقد كان يمكن ان يتحسن الموقف لو ان لمسات الظل في شخصية عبدالحميد السراج توارت أمام لمسات الضوء ، وخبت بعد انطلاقة عبدالحميد السراج الكبرى

بعد الوحدة الى آفاق النجوم.

لكن لمسات الظل، حتى في آفاق النجوم، بقيت في مكانها.

* القوة . . . حب القوة.

* القوة كغاية . . . وليس كوسيلة لتغيير ثوري.

* الفكرة البوليسية.

* * *

ومن القوة، من حب القوة، كانت المشاكل التي تعرض لها عبدالحميد السراج، وعرض لها الجمهورية العربية المتحدة كلها، لكي تكون كلمته في النهاية هي الكلمة في سورية.

وكان عبد الحميد السراج ، قبل اقامة الحكومة الموحدة للجمهورية العربية المتحدة، في شهر تموز (يوليو)، من اكثر المتحمسين لتوحيد الحكومة والغاء المجالس التنفيذية.

ولكن الواضح اليوم، انه كان يتصور وقتها ، ان طبيعة الظروف سوف تتركه نائبا لرئيس الجمهورية في دمشق.

وفي الظروف السائدة في سورية ايامها كان ذلك أمرا يصعب قبوله.

ولربما كانت من هنا حساسية عبدالحميد السراج بعد ان عرف ان منصبه يقتضيه العمل في القاهرة.

كذلك من هنا المشكلة التي ثارت بينه وبين المشير عبدالحكيم عامر الذي كلف بالسفر الى دمشق والبقاء فيها فترة توحيد الحكومة وفترة تطبيق الاجراءات الاشتراكية الثورية . . قوانين (تموز) يوليو سنة ١٩٦١.

* * *

ولو كانت القوة في تصور عبد الحميد السراج وسيلة في يد الثائر لدفع التغيير الثوري، وليست غاية في حد ذاتها لاختلف تصرفه في المشكلة التي أثارها بسبب مهمة المشير عبد الحكيم عامر في دمشق.

في تلك الفترة الحساسة في اعقاب صدور القوانين الاشتراكية، وبدء تنفيذها، عاد عبدالحميد السراج فجأة من القاهرة الى دمشق، بجمع أوراقه من مكتبه في وزارة الداخلية ويقول: انه لا يريد ان يعمل.

ثم ترك بعض ضباطه المقربين اليه دورهم كحراس للامن وراحوا يتصلون ببعض العناصر لكي تثير الشعب وتحرك القلاقل ليكون الضغط الذي يبقى بعده - عبدالحميد السراج - وحده في سورية.

وكان بعض هؤلاء الضباط في علاقاتهم بالناس قد تركوا اثرا رؤي معه ضرورة ابتعادهم عن دمشق، وفوتح عبدالحميد السراج في ذلك من قبلها، وطلب اليه ان ينتدبهم معه للعمل في القاهرة وقبل، ولكنهم فجأة تلكأوا في القدوم الى القاهرة وانساقوا في نشاطهم العصبي بحماقة لا يبررها اي قدر من افتراض حسن النية.

* * *

ثم جاء ضياع أعصاب عبدالحميد السراج، هذا الضياع الذي حمله على الاستقالة.. جاء بذلك القرار الذي أصدره المشير عبدالحكيم عامر بتاريخ ١٨ ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ والذي نص فيه على ما يلي:

«يمنع توقيف ـ اعتقال ـ اي شخص الا بمذكرة من النيابة العامة اي انه لا يجوز لاية سلطة من سلطات الامن توقيف اي مواطن الا اذا كان هذا التوقيف عن طريق السلطة القضائية. اي النيابة العامة».

وفي نفس اليوم أصدر المشير عبدالحكيم عامر قرارا بتعيين مدير جديد للامن العام بدلا من العقيد مروان السباعي.

وكان العقيد مروان السباعي مشرفا على ما كانوا يسمونه بالمكاتب الخاصة التابعة لوزارة الداخلية تعطي نفسها سلطة اعتقال اي مواطن والتصرف معه كما تشاء، بحجة دواعي الامن.

ومع ان انهاء الجو البوليسي كان رغبة شعبية في سورية.

ومع ان بعض الذين كانوا يعملون في البوليس في خدمة الامن بدأوا فجأة يعملون ضد الامن بالتحريض على الاثارة وتحريك القلاقل حتى في اوساط العمال وفي داخل الاتحاد القومي ذاته.

مع ذلك كله، فان عبدالحميد السراج اعتبر القرار الذي صدر بمنع اعتقال اي مواطن عن غير طريق السلطة القضائية، وبتغيير مدير الامن العام، اعتبره على حد قوله «شرشحة» له.

ومن ثم أصبح الموقف في دمشق بالغ الدقة.

* * *

وصدر أمر من القاهرة بأن يركب المشير عبدالحكيم عامر ومعه السيد عبدالحميد السراج طائرة واحدة ويجيئان معا اليها لمقابلة رئيس الجمهورية.

واجتمع الرئيس جمال عبدالناصر بكل منهما في القاهرة، ثم اجتمع بهما معا، ثم توالت اجتماعاته مع عبدالحميد السراج يحاول اقناعه بمنطق العقل ان لا ينساق وراء عصبيته.

وكان في المشكلة جانبها العاطفي، وهو ان جمال عبدالناصر يحب عبدالحميد السراج كشاب عربي وطني مخلص، ولكنه بالتأكيد يحب شعب سورية اكثر منه.

كان يحبه وهو يرى الضوء في شخصيته ويرى الظل.

وكان أمله ان يتمكن الضوء يوما من الغلبة على الظلال كلها وتبديدها...

وفعـل جمال عبدالناصر مع عبدالحميد السراج ما لم يفعله مع غيره.. قابله خمس مرات، استغرقت ما يقرب من عشرين ساعة. حاول فيها أن يجعله يرى الحقيقة كما هي.

كان بين ما قاله جمال عبدالناصر:

- انني لا استطيع ان افهم تصرفاتك وتصرفات رجالك في دمشق. لقد قابلتكم جميعـا - انت وعـدد من الوزراء السوريين - في الاسكندرية في شهر تموز (يوليو) الماضي وتحدثت اليكم عن نيتي في توحيد حكومة الجمهورية العربية المتحدة، بل ويومها تحدثت اليكم بصراحة ليس بعدها صراحة.

قلت لكم يومها انني لا استطيع ان اترك الاحوال في الاقليم السوري تمضي كما كانت تمضي.

لقد كانت لكل منكم في الاقليم جماعته ومعنى هذه الجماعات المتفرقة ان يتمزق الوطن الواحد..

قلت لكم انكم، وانتم دعاة الوحدة وأنصارها، قد سببتم لي من المتاعب ما لم يسببه اعداء الوحدة وخصومها وانه لولا ايماني بالجماهير السورية نفسها، ولولا ثقتي فيهـا، لكنت طلبت من شكـري القوتلي ان يتسلم رياسة الجمهورية في سورية ويعفيني منها، ولكني في سبيل الجماهير السورية وحدها اتحمل ما اتحمله.

ولقـد اخترتك نائبا لرئيس الجمهورية واعطيتك اوسع الاختصاصات وطلبت منك قبل سفري الى بلغراد لحضور مؤتمر الدول غير المنحازة ان تتحمل مسؤوليتك الكبيرة على مستوى الجمهورية كله، ولكني فوجئت بما فعلته بعد ذلك في دمشق، ثم بالـذي فعله بعض رجـالك، واتضح لي ان كل الذي تريده ان تبقى حاكماً لسورية.. وأنا أريدك مسؤولا في الجمهورية العربية المتحدة كلها.

ثم من ناحية أخرى أنت تعرف رأيي في كثير من اجراءات البوليس في دمشق، ولقد قلت لك انها في كثير من الاحيان تضر بسمعة الجمهورية اكثر مما تخدم أمنها..

وأنـا أقـدر حسن نيتك فيما تفعله وافهم ان الاخلاص للجمهورية هو الذي يدفعك اليه ولكن الأمور لا تحتاج الوصول الى هذا المدى الذي يصل اليه بعض رجالك في بعض الاحيان.

ولم تستطع لمسات الضوء ان تظهر لمسات الظل.

واستقال عبدالحميد السراج .

وهو الآن في سجن «المزة» في دمشق، وبالرغم من كل شيء ، فاني أشعر ان جزءا من عواطفي معه وأسأل نفسي:

ـ ترى ماذا سيكون من اثر المحنة عليه؟

وفي منأى ان يكون الضوء في شخصيته قد انتصر على الظلال، وصهرها وأذابها.

لا من أجل شيء، ولكن من أجله هو كشاب عربي وطني مخلص تحمل في التاريخ المعاصر لـ الأمة» العربية كثيرا من المسؤوليات، ولعب يوما من الايام دور البطل أمام قوى الشر الرجعية، وارتفع مرة من المرات الى آفاق النجوم.

التنظيمات السرية داخل الجيش السوري

كشف الانفصال والفترة التي اعقبته انه كان هناك اكثر من تكتل انفصالي داخل الجيش، كما تكشف ايضا ان عبد الكريم النحلاوي كان على علم وعلى صلة بكل التكتلات الاخرى.

وكان تعاونه معها بحيث يظل هو بتنظيمه قادرا على الاستفادة من باقي التكتلات وعلى ابقائها خاضعة لتنظيمه وتابعة له. وغير قادرة على التمرد عليه.

وكانت أهم التنظيمات القائمة في الجيش السوري قبل الانفصال كما يلي:

اولا: تنظيم حيدرالكزبري، وكان قوام هذا التنظيم وحدات البادية المحمولة، وبعض الافراد العسكريين المتعاطفين معه والمبعثرين في بعض القطعات القريبة من دمشق.

وكان الكزبري على اتصال بالمخابرات الاردنية مند سنة سبقت الانفصال، وكان النحلاوي على اتصال بالكزبري يشجعه ويطلع على كل نشاطه وتحركاته ويعرف حجم قدرته العسكرية التي لم يكن يخشاها النحلاوي، بل على العكس كان متأكدا دائما بأنها ستكون عند العمل تحت سيطرته، وستعمل وفقا لمخططه.

كما كان عبدالحميد السراج يلم بنشاط الكزبري وعلى صلة بأفراد تنظيمه. ويعرف كل تحركاته، وصلته بعبدالكريم النحلاوي، وبمباركة الاخير للكزبري.

وكان عبدالحميد السراج يشجع الكزبري ظنا منه انه سيكون قادرا على ابقائه في نطاق سيطرته، كما كان يظن ان في قدرته استخدامه في الوقت المناسب لتحقيق مصلحته وتحقيق أطماعه وتطلعاته.

وكانت المعلومات التي يقدمها عبدالحميد السراج لعبد الناصر عن خيوط شبكة الكزبري بالقدر الذي لا يؤول على انه حجب معلومات تمس امن الوحدة السورية ـ المصرية عن رئيس الجمهورية.

كانت المعلومات التي يقدمها عبدالحميد السراج لعبد الناصر تشير الى ان الوقت لم يحن بعد لالقاء القبض على عناصر هذا التنظيم، لانه لا يزال في وضع لا يشكل اي تهديد او خطورة.

ثانيا: تنظيم اكرم ديري، حرص اكرم الديري بعد خروجه من الجيش الى الوزارة، ان يبقي صلته قائمة بمجموعة من الضباط الدمشقيين او ما يطلق عليهم «الضباط الشوام» على رأسهم محمد منصور وعدنان شيخ فضلي ومأمون قضماني، بهدف ان يبقى على علم بما يجري في الجيش، وبخاصة وقد أحس بأن الوضع في الجيش لا يكن اي روح عدائية نحو تكتلات غير حزبية، مثل تكتل الضباط الشوام.

وكان أكرم الديري يرى في بقاء النحلاوي في رئاسة ادارة كاتم اسرار ضمانا بعدم مس هذه الفئات كما كان أكرم الديري يدرك ان جمال فيصل قائد الجيش لن يقدم على الاضرار بهذه المجموعة حتى لو شعر بتكتلها. لأنه كان من طبيعته عدم اقحام نفسه في المشاكل.

وبعد تشكيل الحكومة الواحدة في آب (اغسطس) عام ١٩٦١، كان أكرم الديري من العناصر غير الموافقة على تشكيلها، وغير الراضية عن مناصبهم فيها، فنشط في اتصالاته العسكرية، وبدأ يحاول ان يجعل من هذه المجموعة فئة يرتكز اليها في هذه المرحلة القلقة من حياة الوحدة.

وكان أكرم الديري يعلم خلال هذه المجموعة بتحركات حيدر الكزبري وكانت علاقة اكرم بالكزبري ودية بالذات، بغرض ابقاء الاتصال معه لاستخدامه اذا ما دعت الضرورة.

وكان اكرم يعرف ايضا من خلال هذه المجموعة ان عبدالكريم النحلاوي متعاطف مع الضباط الدمشقيين ويسهل لهم أمورهم.

ومن خلال أكرم الديري اطلع عبدالحميد السراج على هذا التكتل.

ولما كان كل من السراج وديري غير راض عن نظام الحكم الواحد، فقد بدأ كل منهما يتصل بالآخر للتعاون معا.

ولقد اتصل الاثنان في ايلول (سبتمبر) من عام ١٩٦١ بجمال فيصل قائد الجيش الاول في بلودان، وعرضا عليه القيام بحركة بهدف اصلاح الامور في سورية، بعد ان وصلت - على حد تعبيرهما - الى ما وصلت اليه من سيطرة مصرية تامة على سورية واوحيا اليه انه رجل الساعة في سورية، الذي يستطيع ان يلعب دورا اصلاحيا هاما.

وقد اخفى عبد الحميد السراج هذا اللقاء عن عبدالناصر، لانه كان ضالعا بذاته في التآمر هذه المرة.

ثالثا: تنظيم المقدم عبدالله الشيخ عطية.

كانت هذه المجموعة تضم مجموعة من الضباط حريصة على الوحدة، وتحس بهذه الاجواء التي كانت تسود الجيش ومن بلبلة نتيجة الاشاعات الكثيرة التي تروجها الجهات العديدة، سواء مدنية او عسكرية، وفي مقدمتها الحزبيين والمخابرات والمباحث السورية معا.

هذه المجموعة كانت تبحث عن أسلوب تستطيع به طرح هذه المشكلات، والمطالبة بحسم الامور واصلاحها في الجيش. وكان قائد هذه المجموعة تربطه بأحمد حنيدي أواصر رباط اقليمية، فكلاهما من منطقة دير الزور، وقد علم جنيدي بهذا التكتل من خلال هذه الصلة.

وفي الوقت ذاته كانت تربط اكرم ديري واحمد حنيدي صلات كثيرة من صداقة وزمالة ورفقة دورة تدريب وعضوية في المجلس العسكري، الذي هيأ الظروف للوحدة.

ومن ثم علم كل من حنيدي واكرم ديري بالتنظيمين، وبالتفاهم بين الاثنين، طلب أحمد جنيدي من المقدم عبدالله الشيخ عطية ان يفاتح عبدالكريم نحلاوي بالامر، بوصفه كاتم أسرار الجيش، ويتعاون معه.

وقد تعاطف نحلاوي في بادىء الامر مع عبدالله الشيخ عطية وطمأنه، ولكن نحلاوي كان في قرارة نفسه غير مطمئن لهذه المجموعة ويخشاها، فعمد، بحكم موقعه الى نقل عبدالله الشيخ عطية من سورية ملحقا عسكريا في الكويت، وقام بتشتيت مجموعته.

ومن ثم اطمأن نحلاوي انه لم يعد هناك في الجيش تنظيم يخرج عن سيطرة تنظيمية.

ومن البديهي ان يعرف عبدالحميد السراج بهذا التنظيم، بعد ان اخذ اكرم ديري علما به، ولكن السراج لم يخطر ايضا عبدالناصر ولا عبدالحكيم عامر بشيء عن هذا.

رابعا تنظيم عبدالكريم النحلاوي.

وهو التنظيم الاقوى بين كل هذه التنظيمات. وكان يضم أكثر التشكيلات العسكرية قوة وتأثيرا، وكان يشمل الوحدات المتمركزة في المنطقة المركزية ـ قطنة، القابون، الكسوة ـ بالاضافة الى بعض المناطق الاخرى.

وقد أتاح له منصبه والفترة الطويلة التي قضاها فيه، فضلا عن الجو الذي ساد رئاسة اركان الجيش، وتأثيره على قائد الجيش، كل هذه الاشياء اتاحت له ان يجري كل التنقلات والتعيينات، داخل الجيش السوري وفقا لما يضمن له النجاح والسيطرة.

على ان نقطة الضعف في التنظيم التي كانت سببا في عدم استمرار النظام بعد الانفصال كانت تكمن في ان تنظيمه ارتكز في قوته على عنصر اقليمي (ضباط دمشق)، مما جعل الجيش ينفر منه وينقلب عليه بعد ان قام بالانفصال.

وكان في مقدمة مجموعة نحلاوي الضباط الآتين:

فايز رفاعي، مهيب هندي، سعيد عاقل، فخري عمر، هشام عبد ربه، شرف الدين زعبلاوي، برهان الدين بولس، تيسير طباع، موفق عصاصة، عبدالغني دهمان.

★ راجع كتاب «عبد الناصر وتجربة الوحدة» لصلاح نصر

فهرس الأعلام

أ

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ي

الطبعة الأولى
١٩٩١
لندن

كان فراغ «دار أرادوس» للنشر
من صف وتصحيح وطباعة هذا
الكتاب في العاشر من شهر
تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩١

ARADOS PUBLISHING LTD.
JNIT F11 LANTERNS COURT, MILLHARBOUR, DOCKLANDS,
LONDON E14



فهرس الكتاب







عندما يغتال حكم بوليسي حريات شعب وديمقراطية حكم فيلاحق احرار الامة ورجال الفكر فيها والاخلاق والبطولة المؤيدة بصحة العقيدة لا يبقى غريبا او عجيبا ان يظهر سلطان احمر او الف سلطان احمر

هذا الكتاب الذي وضعه الصحافي غسان زكريا عن عبدالحميد السراج (السلطان الاحمر) هو سرد موثقة صريحة واضحة معززة بالوقائع وبالشهود وبالتواريخ عن مرحلة من مراحل الزمان الرديء الذي ارتدى فيه الجهل والغرور وشهوة السلطة لباسا عسكريا حمل اسم العسكري الذي ساعدته مرحلة تسلق الرئيس المصري جمال عبدالناصر ذروات القوة ليواكبه ـ مستفيدا ـ كشهاب اضاء في السماء السورية ـ اللبنانية ـ العراقية ـ الاردنية لاربعة خمسة اعوام قبل ان ينطفىء لاجئا الى القاهرة التي اطعمته وكسته واسكنته وما زال!

وهو كتاب عانى مخاضا طويلا قبل صدوره لكنه وهو الان في الاسواق سيكون مرجعا للباحث عن الرجل الذي كان يعيش في الظلام قبل حكمه وتحكمه واستمر فيه وهو يحكم وما زال يحاصره الى هذه الايام!

الناشر